عَبدُ اللهِ كنُّون

العصف والريحان

عبد الله كنـون

العصف والريحان

1969
تطوان



مقدمة

المقالة التى تتضمن فكـرة ما او نقدا او تصويرا لحالـة من الحالات هى مجهود عقلى بذل صاحبه فيه من وقته ومقدرته الادبيـة ما لا يحق انكاره.

وكذلك البحث ولو كـان صغيرا فانـه يقتضى تفكيـرا عميقا ومراجعة للمصادر قبل صياغته النهائية وبذلك يكلف كاتبه اكثـر مما تكلف المقالة من زمن وطاقة.

والاعمال من هذا القبيل تكوّن ثروة أدبية طائلة، لان هذا الفن من الكتابة نما فـى العصر الحديث نموا كبيرا وتنـاول من شؤون الثقافة والفكر وقضايا الادب والاجتماع مـا شذ عن امهات الكتـب واهم الدراسات الخاصة بهذه المواضيع. وانا إذ أقول هذا القول اعنى المقالات التى تتسم بسمة الجدة والابتكار، والابحاث الرصينة يتوخى اصحابها منها اضافة شيء ولو بمقدار حبـة رمل إلى صرح الفكر الانسانى الجبار.

اما المقالة التافهة والبحث المأخوذ من غيره فان الزمن الذى لا يبقى الا على الصالح النافع، كفيل بـان يعرفهما قدرهما ويرمى بهما جفـاء.

فالذين ينتجون أدبا من هذا النوع معذورون اذا هم عنوا به وجمعوه فى كتاب انقاذاً له من الضياع وحرصاً على تعميم فائدته، لان ما بذلوا فيه من ذات انفسهم لم يكن بالقليل. وقلت انهم معذورون وحقّى ان اقول انهم مشكورون.

ولقد سبق لى ان نشرت ثلاث مجموعات مما يندرج فى هذا السلك هى على التوالى: التعاشيب، وواحة الفكر، وخل وبقل، وكان لها أثرها فى إثراء حياتنا الفكرية واخصاب انتاجنا الادبى، بدليل اعتمادها من غير واحد من الباحثين وتقصى اثرها من ناشئة المتأدبين.

وهذه مجموعة رابعة أطلقت عليها اسم العصف والريحان ايذانا بان ما تحتويه ليس كله فى الدرجة التى وصفت من الاصالة والابداع ولكنها لا تنتفى عنها صفة الفائدة والنفع، فان من العصف ما هو مأكول.

وبديهى فى مثل هذه المجموعات انها لا تتناول موضوعا واحدا وانما تضم شتى الافكار فى الفن والادب والنقد، فهى ليست كتبا ذات تصميم ومنهاج موحد، وان كان تنوع مضمونها لا يسلبها اسم كتاب.

ولعل بعضا منها يرقى الى ان يتضاءل امامه العشرات من الكتب والمؤلفات الموضوعية الخاصة، فى حين ان بعضها الآخر لا يعدم القارىء فائدته كاى كتاب مصمم مدروس. وابدأ فى الانتاج القديم بكتاب الامتاع والمؤانسة لابى حيان التوحيدى حتى تصل الى كتاب

الكشكول للبهاء العاملى فانك تجد ان تراثنا الفكرى لا يتم تمثلـه بغير هذا الصنف من الكتب ولا يستغنى عنها فى تقويمه بحال.

واما فى الانتاج العصرى فان مجموعات المقالات الادبية التـى صدرت لاعلام الكتاب من رواد النهضة الحديثة هى من الكثرة بحيث تمثل اهم جانب من ثقافـة هؤلاء الكتاب، وان احـدا لا يستطيع ان يتصور ما بلغه الفكر العربى من النضج والتفتح على الحياة الجديدة والحضارة العصريـة، وخاصة فيما يتعلـق بتطوير اللغـة وجعلها مسايرة للتقدم العلمى، اذا لم يتصفح هذه المجموعات ويطلع على ما تحويه بين طياتها من انتاج ادبى رائع.

وانى لارجو ان تكـون هذه المجموعة مما تمت الى مجموعات اولئك الاعلام ولو بأوهى الاسباب.

قصة الادب المغربى فى سطور

ساير موكب الادب فـى المغرب مواكبـه فى الاقطار العربيـة الاخرى، من لدن الفتح الاسلامى الى الآن، ولئن اغفل كثير من مؤرخى الادب العربى تسجيل هذه الحقيقة، فانهم لم يستطيعوا ان يغمضوا اعينهم عن المشاركة الفعالة التى قام بها افراد عديدون من المغرب فى بناء صرح المدنية العربية، بما لها من مقومات فكرية وتجارب علمية.

وحسبنا ان نذكر ان الجغرافى العربى الوحيد الذى ترك لنـا اثرا علميا فى الجغرافية لم يكتب مثلـه بعد (بطليموس) اليونانى، كان عالما من المغرب وهو الادريسى الشهير، فاذا اضفنا اليه الرحالة العالمى ابن بطوطة كان اهم ما يعتز به التراث العربى فى هذا الصدد، منشأه من المغرب، وفى علوم الطب، والكيميا، والطبيعة والرياضيات، حسبنا ان نذكر اسم ابى الحسن المراكشى الذى نجد اسمه ـ مع الاسف ـ معروفا عند الغربيين اكثر من ابناء جلدته العرب ـ وكذلك ابن البناء العددى الذى له فى الحساب والجبر والفلك مؤلفات لبثت عهودا طويلـة مما يعتمد عليه فى دراسة هـذه العلوم باوربا قبـل المغـرب، والبلاد العربية كافـة ومثلهما ابن الياسميـن والجادرى ويوسف ابن شمعون والجائـى والجزنائى والبعقيلى وابو القاسـم

الوزير والغول الفشتالى فى كثيرين غيرهم من الاطبــاء والنباتيين والمهندسين والفلكيين.

اما فى علوم الفقه والحديث وغيرهما من اصول الثقافة الاسلامية فان احدا من اصحاب المؤلفات فى طبقات علماء الاسلام لم يمكنه ان ينسى جهودا امثال دراس ابن اسماعيل، وابى عمران الفاسى، وأبى محمد الاصيلى، والقاضى عياض، وابن الحاج العبدرى، وابن رشيــد الفهرى، وأبى الحسن الصغير، وابن الشاط، وزروق وابن غــازى وغيرهم كثير، وفى علوم العربية نبغ ابو موسى الجزولى صاحب الكراسة ذات الشهرة الطائرة فى علم النحــو، وابن معطى صاحب أولالفية فى النحو التى نسج ابن مالك ألفيته على منوالها وابن آجروم صاحب المقدمة التى ما لبثت حتى الآن من كتب الدراسة الاولية لعلم النحــو فى العالم العربى والاسلامى والــذى اعطى اسمه للقواعــد النحوية ذاتها. فكثيرا ما قيل الآجرومية وعنى بها النحو.

وفى متن اللغة العربية يكفى ذكر اسم مالك بن المرحل، وابن الطيب اللغوى، الــذى صار اسمه مقرونــا بالفيروزبادى صاحــب القاموس والزبيدى شارحه ونظرائهما مــن اساطين المؤلفين فــى متن اللغــة.

اما فى التاريخ فقد اعطى المغرب اسماء عديدة برزت من بين المؤلفين فى التاريخ العام فضلا عن تاريخ المغرب وناهيك بالمراكشى صاحب المعجب، وابن عذارى صاحب البيان المغرب وابن ابى زرع صاحب القرطاس واكنسوس والزيانى وغيرهم.

وذكرنا لهذه الاسماء اللامعة فى غير الثقافة الادبية خاصة. انما هو اشارة الى تلك المساهمة التى المعنا اليها من ابناء المغرب فى الحياة الفكرية العربية عامة، على ان الادب بمدلوله العام يتناول جميع فروع المعرفة وسائر ضروب التفكير فاذا كان المغرب يتوفر على رجال من هذا الطراز فى العلم العام. فما بالك بمن لم يبلغ مرتبتهم ولم تجاوز شهرتهم حدود بلادهم.

اما فى الكتابة والشعر والفنون الادبية بوجه خاص فقد نبغ من ابناء المغرب فى ذلك، الشاعر ابن حبوس، والكاتب ابو جعفر بن عطية، وابو العباس الجراوى، صاحب كتاب الحماسة المغربية الذى يتحدث عنه ابن خلكان فى وفيات الاعيان، ويقول انه عند المغاربة يقوم مقام حماسة ابى تمام، ونبغ من الشعراء الامراء ابو الربيع سليمان الموحدى له ديوان شعر مخطوط يوجد فى مكتبة الاسكوريال وفى غيرها من المكتبات المغربية(1)، كذلك نبغ من الشعراء ابن عبدون المكناسى وميمون الخطابى ومالك بن المرحل الذى يعد اكبر شعراء المغرب وله مؤلفات ادبية كثيرة، وابو العباس العزفى وابو فارس الملزوزى والجزنائى وابن جابر المكناسى، وعبد العزيز الفشتالى الكاتب الشاعر المؤرخ، وابن زاكور، ومنتخب ديوانه مطبوع، واليوسى، وديوانه مطبوع كذلك، وابن الطيب العلمى صاحب كتاب الانيس المطرب على نسق قلائد العقيان، وابن الونان صاحب قصيدة الشمقمقية فى الادب وهى مطبوعة وغيرهم.

---

1) نشر اخيراً بعناية جماعة من الاساتذة.

هذا نبأ الحركة الادبيــة فى المغرب عبر التاريخ، واذا اريـد استيفاء الخبر عن ذلك فليرجع الى كتاب النبوغ المغربى فى الادب العــربــى .

واما فى الفترة الراهنة وهى ما نعبر عنــه بالعصر الحديث، فان الادب اخذ يتطور شكلا وموضوعا اسوة بما حدث فى الشرق العربى، فلم يعد قاصرا على القصيدة الشعرية والرسالة النثرية او المقامــة والخطبة ومـا الى ذلك، بل استحدثت فيــه اشكال عديدة وابواب جديدة من اهمها فى الشعر المسرحيــة وفى النثر المقالــة والاقصوصة، والقصة، كما ان الموضوعات التى كان يتناولها الشاعر والناثر لم تبق هى موضوعات المدح والغــزل وما الى ذلك فــى الشعر، والوصف والمطارحات الادبية ونحوها فى النثر، وانما اتسع المجال امام الشاعر والكاتب واصبح الاديب صاحب رسالة سامية ومكانة مرموقة فى المجتمع بصفته احد قادة الفكر ورائدا من رواد النهضة فى العالم العربى.

وهكــذا لم يعد الادب فنا مسخرا لخدمة الرؤساء والملوك ولا تزجية للوقت عند من لم ينزل بادبه لمستوى الشعراء المادحيــن والكتاب المتكسبين بل صار دعوة ومذهبا وتعبيرا صادقا عن الحياة والواقع الاجتماعى، ومن الحق القول بان تطور مفهوم الادب عندنا انما حصل بتأثر النهضة الادبية التى قامت فى الشرق العربى فى بداية هذا القرن، اذ انه قبل أن يتصل ابناء المغرب بالثقافة الغربية ويطلعوا عن طريــق المدرسة الفرنسيــة على المذاهب الحديثــة،

كانت الطليعة الاولى من ادباء المغرب تتصل عن طريق الصحافة العربية والمطبوعات الصادرة فى البلاد العربيـة وخاصة منها مصر بالانتاج الادبى الجديد لاعلام النهضة فى العالم العربى، وتتأثر به وتحاول النسج على منواله، وكـان من هؤلاء من له آثـار طيبة فى هذا الميدان كالشاعر المرحوم محمد السليمانى والاديب الكبير احمد بن المواز والكاتب المؤرخ محمد بوجندار وسواهم من طلائع النهضة الادبية المتوفين ومن الاحياء احمد النميشى ومحمد الجزولى ومحمد كنون ومحمد بن اليمنى الناصرى وهو اخصبهم قريحة وأكثرهم انتاجا.

وكما كان الحال فى الشرق العربى اول النهضة الحديثة، فان الشعر السياسى الوطنى هو اول ما ظهـر من الوان التجديد فـى موضوعات الادب وذلك ان طائفة من شباب الجيل الناشىء فى عهد الحماية لما رأوا البلاد ترزح تحت نير الحكم الاجنبى اخذتهم العزة الوطنية والحمية العربية، فصاروا يغنون شعراً كله ثورة على الواقع الاليم ويدعون الى مقاومة التدخل الاجنبى وتذكير الشعب بمجده وتاريخه العظيمين مما ادى الى اذكـاء الوعى القومـى فى نفـوس الجماهير الشعبية وشنها غارة شعواء على الاستعمار واعوانه حتى تخلصت البلاد من براثنه وانتفضت انتفاضتها الخالدة التى اعادت الى المغرب حريتـه واستقلاله، ونذكر فى طليعـة هذه الطائفة من الشعراء الوطنيين علال الفاسى والمختار السوسى والمكى الناصرى والشهيد محمد القرى، ثم تلتها طائفة اخرى قالت الشعر الوطنى والاجتماعى ولم تقصر فى ميادين الشعر الاخرى ولا سيما الشعر

العاطفى وهذه امثال عبد الرحمن حجى وعبد القادر حسن الذى كان اول شاعر مغربى حديث طبع له ديوان، ومحمد مكوار الذى طبع له هو الآخر ديوان شعر وعبد المالك البلغيثى وله ايضا ديوان مطبوع وعبد القادر المقدم وله كذلك ديوان مطبوع وعبد المجيد بن جلون(I) وعبد الكريم بن ثابت(I)، ومحمد الحلوى(I) وعبدالغنىسكيرجوادريس الجاى، وعبد الوهاب بن منصور، وابو بكر اللمتونى، وناصر الكتانى، وحماد العراقى واحمد البقالى وعبد السلام العلوى ، وابراهيم الالغى، وعبد الرحمن الدكالى وعلى الصقلى، وادريس العلمى وغيرهم ممن لا استطيع احصاءهم هنا هنا لضيق المجال. وان كان الامر الذى لاشك فيه ان منتخبات من اشعارهم تؤلف مجموعة ضخمة من الشعر الحديث فى المغرب الجديد.

على ان شأن النثر فى هذا العهد اعظم من الشعر والانتاج فيه اوسع بكثير من الانتاج الشعرى، وقد رافق النثر وتطوره ظهور الصحافة وتطورها، فظهرت فى الاول المقالة الاجتماعية ثم السياسية، وبتأسيس الصحافة الادبية ظهرت البحوث التاريخية واللغوية والاقصوصة والقصة، ثم ظهرت المؤلفات فى الموضوعات المختلفة، ومن المجلات التى كان لها انتشار وتأثير فى توجيه الحياة الفكرية مجلة السلام ورسالة المغرب، والثقافة المغربية والمغرب الجديد، ولسان الدين والارشاد الدينى والانوار والانيس، والمعرفة واخيرا مجلة دعوة الحق ورسالة الاديب، ومن كتاب هذه المجلات

I) ظهر لكل واحد من هؤلاء الشعراء الثلاثة ديوان مطبوع.

السابقين واللاحقين الاساتـذة محمد بن الحسن الوازنـي، ومحمد داود، ومحمد بنونة، ومحمد الطنجي، وعبد الخالق الطريس، والمكى الناصرى، وعلال الفاسى، وعبد العزيز بن ادريس، وسعيد حجى، وادريس الكتانى، وعبد الرحمن الفاسى، وعبد المجيد بن جلون، وعبد الكريم غـلاب، وعبد الله ابراهيـم، ومحمد القبـاج، ومحمد اباحنينى، ومحمد المنونـى، والتهامى الوزانـى، وعبد الوهاب بن منصور، وابراهيم الكتانى، وعبد الهادى التازى، ومحمد التطوانى، ومحمد عزيمان، ومحمد العربى الخطابـى، والمهدى بنونـة، ومحمد الحبابى، وعلال الجامعى، وحسن السائح، ومحمد الصباغ، وادريس بن جلـون، وعبد العزيز بن عبد الله، وعبد الهـادى بوطالب، وعبد القادر زمامة، ومحمد بن الحبيب، وقاسم الزهيـرى، وعبد القـادر الصحراوى، ومحمد بن تاويت، واحمد زياد، وعبد اللطيف الخطيب، وغيرهم وغيرهم ممن لم تحضرنى اسماؤهم الآن وقد امتاز علـى الخصوص بكتابـة المقالة السياسية، عبد الخالق الطريس، ومحمد الوزانى، وعلال الفاسى، والمكى الناصرى، وقاسم الزهيرى، وعبد الهادى بوطالب، وبكتابة الابحاث الادبية والتاريخية محمد بن تاويت ومحمد الفاسى، وعبد العزيز بن عبد الله، وعبد الوهاب بن منصور، ومحمد القباج، ومحمد المنونى، ومحمد التطوانى، وعبد القادر زمامة، وبكتابة المقالة الاجتماعية محمد بنونة، والتهامى الوزانى، وادريس الكتانى، وعبد الكبير الفاسى، وبكتابة القصة، عبد المجيد بن جلون، وعبـد العزيز بن عبـد الله، وعبد الرحمـن الفاسى، وبالكتابـة على الطريقة الرمزية محمد الصباغ، وبالترجمة عن الادب الاسبانى على

الخصوص، عبد اللطيف الخطيب وامتاز من بين هـؤلاء جميعا بكثرة الانتاج والتأليف عبد العزيز بن عبد الله، وعـلال الفاسى، ومحمـد داود، ومحمد المنونى، ومحمد المختار السوسى، والتهامى الوزانى، وعبد المجيد بن جلون، ومحمد الصباغ، وعبد الكريم غلاب.

ولم يظهر لحد الآن اديب ذو نزعة خاصة ولا ادب ينتمى لمذهب من المذاهب الادبية المعروفة.

البيت فى الشعر العربى

قرأت المقال الممتع(I) الذى خطته يراعة الكاتبة مديحة مشرفية فى موضوع البيت، مقارنة بين مدلوله اللغوى والاجتماعى عندنا وعند الغربيين، وبقدر اعجابى ببراعة الكاتبة فى تحليل عناصر الموضوع، فقد توقفت عند بعض الاحكام التى اطلقتها اطلاقا مثل قولها: «وما اكثر الشعر الالمانى الذى يتغنى بالبيت او مرادف الوطن. وهذا المعنى الرفيع مفقود فى لغتنا، وخاصة فى استعمالنا اليوم» فالذى أعرفه ان الوطن كثيرا ما استعمل بمعنى البيت او البلد الخاص، ومن قول العرب فى ذلك: الكريم يحن الى وطنه كما يحن النجيب الى عطنه. والحديث الذى اوردته الكاتبة الفاضلة وهو قول النبى (ص): حب الوطن من الايمان، ذهب به بعض اهل الاشارة الى ان المراد منه المدينة المنورة، قائلين: انها وطن كل مومن. وبكل وجه لم يحمله احد قبل اليوم على الوطن بمعناه الشائع وانما حملوه على البلد الخاص او بيت الانسان لما يحويه من اهلٍ وولدٍ؛ هم أحْرِياءُ بالحب. ومن المحقق ان ابن الرومى انما اراد أحد هذين المعنيين فى ابياته الخالدة التى يقول فيها:

I) فى مجلة «الثقافة» التونسية، العدد الثانى.

ولى وطن، ءاليْتُ ان لا ابيعه وان لا أرى غيرى له الدهر مالكا

عمرت بـه شرخ الشباب منعما بصحبة قوم اصبحوا فى ظلالكا

وحبب اوطـان الرجال اليهـم مآرب قضاهـا الشباب هنالكـا

اذا ذكـروا اوطانهـم ذكرتهـم عهود الصبا فيها فحنـوا لذلك

وقد الفته النفـس حتى كأنـه لها جسدان بـان غودر هالكـا

ومن هذا الواد البيت السائر:

بلاد بها نيطـت علـى تمائمـى واول ارض مس جلـدى ترابها

وينسب لاديب العربية ابـى عثمان الجاحظ رسالـة بعنوان الحنين الى الأوطان، كل ما فيها مما يسبح فى هذا الفلك. وبه يتبين أن ما بين الوطن والبيت او البلد الخاص فى الاستعمال العربى ليس بعيدا عما بينهما فى الاستعمال الغربـى، او الالمانى، خاصة، مـن الارتباط المكين.

وتأسفت السيدة مديحة على خلـو أدبنا القديـم من الاهتمام بالبيت والعائلة والوطن، كما يهتم أدب الغربيين بذلك على حسب ما بينته فى مقالها. والواقع ان ادبنا القديم لم يخل من الاهتمام بهذه المعانى الجميلة والمشاعـر النبيلة. فالشعـر الوطنى كانت له فـى الاندلس دولة ورجال، وذلك لان الاحوال والظروف السيئة التـى عاشها هذا الوطن الحبيب بعد ذهاب عزه وانهيار دولته مكنت لهذا الشعر من الظهور على نحو ما اشرنا اليه فى مقال نشر قديما فى مجلة الرسالة المصرية وضمناه العديد من الامثلة على نمُوّ عاطفة الوطنية عند الاندلسيين وتعبيرهم عنها بما لا يقل عن تعبير الشعراء الوطنيين المحدثيـن.

والشعر الذى يتغنى بالبيت والعائلة بمفهومهما الاجتماعى هو أيضا كثير، عند الشعراء البدو والحضريين على السواء. وقد اشار المقال الى تلخيص معانى البيت فى اللغة واطلاقاته المختلفة فحصرها فى المسكن مبنيا او غير مبنى، وفى الشـرف والمحتد. ولاشـك ان الاطلاق الثانى هو من المعانى الاجتماعية وليس من الدلالات المادية أو الخارجية التى بقيت كلمة بيت واقفة عندها فى لغتنا العربية. فقد سما العربى بتصور مفهوم البيت حتى جعله من المفاهيم الشنعريـة مستغلا هذا الاشتباه اللفظى بين بعض مـواد بيت السكنى وكلمـة شَعر، واشتراك مفردة بيت بين المدلولين فقال:

حسَّنت نظم كلام توصفين به ومنزلا بكِ معمورا من الخفـر
والحسن يظهر فى شيئين رونقه بيت من الشعْر او بيت من الشعـر

وما احسن قوله هنا «ومنزلا بك معمورا من الخفر»! فكم يوحى من معان الجمال والأنس واللطف! ـ ولم يتجـرد البدوى اطلاقا من الشعور الانسانى العميق نحو البيت والاسرة وما يكتنفهما من معان وجدانية رقيقة، فاول بيت من كل قصيدة من قصائد الشعر الجاهلى، يكاد يكون مقصورا على التغنى بمنزل الزوجة اوِ الحبيبة، بمعنى انه لا ينظر الى البيت نظرة ماديـة صرفا، وانما يستشعر ما يمثله من ذكريات وعهود هى قطع من النفس والحياة. فامرؤ القيس حين قال فى مطلع معلقته:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لم يذكر المنزل حتى ذكر الحبيب الذى هـو روحه ومعنـاه. والمجنون عند ما قال بيتيه الرائعين:

امر على الديار ديار ليلى اقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديارا

لم يملك ان صرح بسر التعلق بالسكن وهو حلول الحبيب فيه.

وفى نظرنا ان البدوى حين يقف بالاطلال ويبكى عليها يكون قد بلغ الغاية من الارتباط بالارض والوفاء للمنزل والبيت والحلة والسكن الذى قضى به حقبة من حياته، فهو برغم التنقل الذى تبعث عليه أسباب من عواقب الحرب وطبيعة المناخ لم ينس المكان الذى يشهد ميلاد حبه او اجتماع اسرته وكان مسرحا لطفولته ومرتع شبابه. ونحن نظلمه اشد الظلم حين نقول انه بعد ان يقف قليلا على الاطلال فيبكى او يتباكى «لا يلبث أن يتابع سيره وتنمحى الذكريات من نفسه لتحل مكانها ذكريات جديدة»؟!

يقول المتنبىء فى مطلع احدى قصائده، وهو احق من مثل مأثورات الشعر العربى وتقاليده:

لك يا منازلُ فى الفؤاد منازل أقفرت انت وهن منك اواهل

فعبر عن الشعور الدفين الذى يحتفظ به العربى لمنازل احبته وذويه بعد اقفارها ودثورها بما لا مزيد عليه فى القوة والتأثير.

وهذه ميسون زوج معاوية لم تنسها حياة القصور والبذخ والرفاهية فى ظلال دمشق، بيتها البدوى فى الفضاء الطلق وحياة اهلها البادين ولم تفتأ تحن الى معهد طفولتها ومنبت غرسها ساكبة شعورها الفياض فى ابياتها الشهيرة التى كانت سبب فراقها من معاوية:

لبيت تخفق الارواح فيه	احب الى من اكل الصنوف
واكل كسيرة فى كسر بيتى	احب الى من قصر منيف
واصوات الرياح بكل فج	احب الى من نقر الدفوف
ولبس عباءة وتقر عينى	احب الى من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراق حولى	احب الى من قط الوف
وبكر يتبع الاظعان صعب	احب الى من بغل زفوف
وخرق من بنى عمى ضعيف	احب الى من علج عنيف

فهل نطلب اكثر من هذا الوفاء لحياة البادية وبيتها المتواضع وسائر معانى المجتمع البدوى الذى لم تعدل به الشاعرة كل انواع العيش الرغد فى المدينة العاصمة وقصورها الشامخة؟؟ ونحب ان نلفت النظر الى قولها: وكلب ينبح الطراق حولى، فهو وان كان فى الظاهر خلاف ما درج عليه العرُف العربى من التمدح بوداعة الكلاب وعدم تعرضها للاضياف، فان الامر هنا يتعلق بشرف البيت وخفارة الفتاة التى يقف الكلب حارسا امينا لها من الواغلين والمتطفلين. وهكذا تكون ميسون قد وصفت حياة بيتها اصدق وصف ومن زاوية نظر نسائية تخالف نظر الرجال فى بعض الامور.

وينبغى ان الم هنا ولو المامة خفيفة بمعنى من معانى الحياة البيتية المقدسة عند العرب وهى الجوار وما يستتبعه من التساند والتضامن والبر والحرمة، وهو امر شهير لا خفاء به، ولكن اكثر مظاهره اقترابا من اصول الاخلاق ولصوقا بالبيئة الاجتماعية هو ما يتمثل فى الامتناع من أذى الجار واهل بيته وفى الاهتمام به

وايصال النفع اليه، فنجد عنترة يقول معبرا عن حفظه لحرمة الجار:

واغض طرفــي ان بــدت لى جارتــي
حتــي يوارى جارتــي مأواهــا

ويقول شاعر آخر فى قوم يصفهم بحسن الجوار:

لعمــرى ما المجاور فــى كليب بمقصى فــى المحل ولا مضــاع
ويحــرم سرُّ جارتهــم عليهــم ويأكل جارُهــم أنفَ القصــاع

على ان من الشعراء من تعلق قلبه بجارته فبثها حبه او تناجى بعاطفته من غير ريبة ولا اخفار لذمة الجوار، ومنهم الذى يقول:

أجــارة بَيْتَيْنا ابوكِ غيــور وميسور ما يُرجى لديك عسير

وعلقمة الذى يقول فى وصف امرأة من عقائل النساء، وهــو من احسن ما قيل فى معناه:

تمشى الى بيتها من بيت جارتها مشى السحابة لا ريث ولا عجل

واللطائف من هذا القبيل كثيرة يطول تتبعها، وأنا لم أثبت الا ما استحضرتــه منها ساعة قراءة مقــال السيدة مديحة مع عــدم الاستيعاب. ولكن المهم الذى لا يجوز اغفاله هو المعنى الاكثر ارتباطا عند العربى بحياة البيت سواء فى البادية او الحاضرة، واعنى بــه إكرام الضيف وانزاله والاحتفاء به، فهذا الامر مما تميزت به البيوت العربية ولا يستطيع الغرب ولا ادبه ان يجــارى فيه الادب العربى او يقاربه لا فى القديم ولا فى الحديث: ومعلوم ان لكل ادب سمته ولكل تراث طابعه، فاذا اعتبرنا هذا الامر من اخص المعانى التــى امتازت بها بيوتنا وطبعت حياتنا الاجتماعية بطابــع لا يمحــى من

الكرم والجود وحسن المعاملة للضيف ولطف المعاشرة للنزيل مع مشاركتنا فى المعانى الاخرى التى المعنا اليها فقد رجحت كفتنا فى اضفاء حلة من المعانى الاجتماعية والمشاعر الانسانية على البيت لا توجد فى البيت الغربى قطعا. يقول ابن هرمة مفتخرا باقامة بيته على قارعة الطريق وقيامه بحق ذلك:

أغشى الطريق بقبتى ورواقها ... واحل فى نشز الربا فاقيم

ان امرأ جعل الطريق لبيته ... طنبا ، وانكر حقه للئيم

ويقول غيره:

وما انا بالساعى الى أُم عاصم ... لأضربها انى اذن لجهول

لك البيت! الا فينة تحسنينها ... اذا حان من ضيف على نزول

ويقول آخر:

يا ربة البيت قومى غير صاغرة ... ضمى اليك رحال القوم والقربا

فى ليلة من جمادى ذات اندية ... لا يبصر الكلب فى ظلمائها الطنبا

أما حاتم الطائى فيقول مخاطبا ماوية زوجه:

ايا ابنة عبد الله وابنة مالك

ويا ابنة ذى البردين والفرس والنهد

اذا ما صَنَعْتِ الزاد فالتمسى له

أكيلا، فانى لستُ ءاكله وحدى

اخاً طارقا او جار بيت فاننى

أخاف مذمّات الاحاديث من بعدى

وانى لعبد الضيف ما دام ثاويا

وما فى الاّ تلك من شيَم العبد

واظن ان هذا الحوار الجميل بين الشاعر وزوجته لمما يصور الحياة البيتية عند العربى باجمل صورة ويظهرنا على ما كانت ــ ولا تزال ــ تتصف به من سمو ونبل وشرف فضلا عن بنائها على التعاون والمحبة والتقدير(I). وقد خلص هذا الوصف للعرب جيلا بعد جيل وتوارثه الابناء عن الاباء، فكان مما يميز بيت العربى عن سواه فى مشرق او مغرب، وغبر السراة العرب فى العواصم والمدن الكبرى على الاعلان عنه فى واجهات بيوتهم بنقش هذين البيتين اللذين صارا على كل لسان:

الا يا دار لا يدخلك حزن ولا يغدر بصاحبك الزمان

فنعم الدار انت لكل ضيف اذا ما ضاق بالضيف المكان

هذه بعض المعانى التى اكتنفت مفهوم البيت فى الادب العربى القديم وهى معان سامية لها ارتباط بالنواحى الاجتماعية والانسانية والخلقية، ولم ندرج فيها ما يتعلق بالشرف والمحتد، وهو باب واسع وشىء لا ينحصر، لان الكاتبة الفاضلة لم تغفل ذكره بل جعلته هو المعنى الثانى الذى ترجع اليه اطلاقات البيت فى العربية بعد المسكن والمنزل، وعلى كل حال فهو مدلول معنوى لا مادى كما قلنا آنفا، والسيدة مديحة تقول بذلك وان لم تستفصل فيه، فيكفينا الاتفاق عليه عن المداولة بشأنه. وتحياتي لها وللقراء الكرام.

I) يلاحظ كيف يخاطب حاتم زوجه ويعدد مناقب آبائها وأجدادها .

انـور الجندي مؤرخ الادب العربي المعـاصر

مهما قيل فى توجيه النظريـة الاقليمية فى الادب والتنويـه بالمذاهب المتفرعة عنها فان الذى نراه هو ان الادب العربى يتلاقى على صعيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحد. وان انصار الاقليميـة ينهزمون كل يوم، فى ميـدان الادب، وفى ميدان السياسـة على السواء، لان امر العـرب الى وحـدة وكلمتهم الى جمع، وان جـد المستعمرون واذنابهم فى تفرقتهم والتضريب بينهم.

ولقد كنا وما زلنا نعتقد ان الادب العربـى وحدة لا تتجـزأ، وان ما يجد فيه من مذاهب واتجاهات هى وليدة تفاعل افكار الادباء العرب والتيارات الفكرية الحديثة التى طرأت على الادب العربـى بواسطة الترجمة عن الآداب العالمية والاطلاع على الثقافات الاجنبية المختلفة، وليس شىء منها متولـدا عن طبيعـة الاقليم والسكـان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلـو لبعضهم ان يعلـل ذلك ولا نستدل الا بأن أى مذهب او اتجاه ظهر فى بلد من بلاد العـرب، لا يلبث ان يتردد صداه فى بقية هذه البلاد وينمو ويزدهر على يـد

ابناء العرب كافة، كما كان الامر فيما مضى حين كانت طريقة المتنبى التى ظهرت فى المشرق تجد من ابى القاسم بن هانىء راعيا لها فى الاندلس حتى سمى بمتنبى المغرب، وكان البحترى يتمثل فى ابن زيدون. والمعرى وابن شهيد، هذا فى رسالة التوابع والزوابع وذاك فى رسالة الغفران، يكادان يردان من نبع واحد. ولما ظهر التوشيح فى بلاد المغرب وراجت سوقه بين ادبائها لم يعتم ابناء المشرق ان اصطنعوه واستكثروا منه حتى ألفوا فيه كتبا مخصوصة.

كذلك كان الامر فى الوقت الحاضر، فما ان ظهر بعد الحرب العالمية الاولى ما يسمى بالادب المهجرى من انتاج الادباء اللبنانيين والسوريين المستوطنين فى الامريكتين حتى انتشر فى العالم العربى وقلده الادباء هنا وهناك وفى فجر ظهوره وانتشار آثاره الاولى لجبران ونعيمة وامين مشرق وغيرهم كان عندنا فى طنجة محمد الحداد يكتب بذلك الاسلوب ويضرب على تلك النغمة حتى تحسبه احد رواد ذلك المذهب والآن نرى انتشار ما يسمى بالشعر الحر فى العالم العربى وتجاوب دعاته وتحمسهم لبدعتهم بحيث لا يخلو قطر من الاقطار العربية من حامل لراية هذا المذهب، فكيف يكون ذلك الا اذا كان الادب العربى مظهرا لوحدة العرب ومادة عضوية فى تكوين هذه الوحدة .

ان الذين يفهمون هذه الحقيقة كثيرون، ولكن نشاط دعاة الاقليمية كان يطغى عليهم ثم وقع الجزر فى مد هذه الطائفة فاختفت او كادت تختفى امام الشعور الفياض الذى يغمر الشعوب العربية

بوحدة تراثهم نتيجة لوحدة جنسهم ولغتهم وآمالهم وآلامهم وأمامي الآن عمل من اضخم الاعمال التى تشهد لهذه الفكـرة وتدعم هـذا الاتجاه، وهو ثلاثة مجلدات ضخام من تأليف الاديب المصرى المعروف الاستاذ أنور الجندى، كل مجلد منها يؤرخ لناحية من نواحى النشاط الادبى الذى قام فى بلاد العرب منذ فجر النهضة الحديثة الى الآن فأولها يتناول موضوع (المحافظة والتجديد فى النثر العربى المعاصر). وثانيها يهتم بدراسة (المعارك الادبية) فى الشعر والنثر والثقافـة واللغة والقومية والحضارة فى العالم العربى الحديث وثالثها يختص بمبحث (الادب العربى الحديث) فـى معركة المقاومـة والتجمع من المحيط الى الخليج. وهذه العناوين ليست دعاية فارغة بل هى واقع وحقيقة يتلمسها القارىء فى كل صفحة من صفحات هذه الكتب التى لا تقل فى اصغرها عن خمسمائة صفحة.

ومن عرف نشاط الاستاذ أنـور الجنـدى وما له من عشرات المؤلفات فى مسائل الادب والتاريخ والفكر بعامة، يدرك مبلغ الاحاطة التى لكتبه هذه بالشاذة والفاذة من المسائل التى تناولها فيها.

فالمجهود جبار لا يتأتى الا لجماعة من المختصين المنقطعين لهذا النوع من التأليـف لو كانـوا هناك، ولكن واحـداً من ذوى الهمـم العالية والصبر المنقطع النظير والفهـم العميق للاوضاع الفكريـة القائمـة فى مختلـف بلاد العرب والتى تتداعـى فيها الاتجاهـات والانظار، هو أنور الجندى استطاع ان يقوم بهذه المهمة الشاقـة وان يؤديها بمفرده على اتم وجه.

انها فى الحقيقة موسوعة ادبية تضاهى فى قيمتها التاريخية بالنسبة للادب العربى الحديث تاريخ الادب العربى لبروكلمان الشهير، على أنها حسب برنامج الاستاذ المؤلف ما يزال لها ذيول طويلة تخرج بها فى عشرة مجلدات تتناول معركة التغريب فى الفكر العربى والصحافة السياسية فى الادب العربى المعاصر، والشعر العربى المعاصر والقصة العربية المعاصرة، ومعالم الادب العربى المعاصر بين الحربين الاولى والثانية ومعالمه بعد الحرب الثانية، وحقائق السياسة والفكر والاجتماع فى الامة العربية. وهو برنامج حافل نرجو للاستاذ أنور الجندى ان تتاح له وسائل تحقيقه مع متمنياتنا له بدوام الصحة والعافية وانه لمحققه بحول الله.

بطاقة الزيارة

ليست بطاقة الزيارة من بدع هذا العصر، بل هى قديمة جدا. شعر الانسان منذ تحضره بالحاجة اليها فاستعملها على اشكال وانواع، واتخذ لها نماذج واوضاعا من شعر ونثر، ورسم ورمز وغير ذلك مما توحى به الظروف والملابسات المختلفة والمتغيرة بتغير الزمان والمكان، وان الادب العربى ليحدثنا احاديث شائقة عما كان يتخذه الشعراء والمحبون والاسرى والمقاتلون من وسائل ورسائل فى هذا الصدد يتعرفون بها الى اصدقائهم ويتواعدون مع احبائهم ويسترفدون ويستنجدون، ومن هذه الرسائل ما يكون شطر بيت، وكلمة مفردة، واسما مُصَحّفا، وعلامة من العلامات فتؤدى المعنى المراد ويتعرف الصديق على صديقه ويوافى المحب حبيبه فى الموعد المضروب وتستنقذ القبيلة اسيرها ويتوافد المحاربون الى ساحة القتال حسب الطلب الذى ادته البطاقة الصغيرة ذات المعنى الكبير.

ولعل اجمل هذه (البطائق) هو ما كان يستعمله المحبون فى البادية العربية لايذان الحبيبة بوجودهم فى الحى وضرب موعدٍ للقاء، وكثيرا ما يكون غناء وترنما بابيات رقيقة من الشعر العاطفى، وانشادا ونِشْدانا، وفى احاديث مجنون ليلى الشىء الكثير من ذلك.

كما ان المولدين من الشعراء، وخصوصا فى العصر العباسى، كانوا يستعملون نماذج ظريفة من هذه البطائق فى زيارة احبائهم واستزارتهم والتودد اليهم. وكان من ابرزهم فى الميدان ابو نواس والعباس بن الاحنف واسحاق بن ابراهيم الموصلى، ومما كان يشجعهم على ذلك انه كان يقع من نفوس هؤلاء الاحبة الموقع الحسن ولا سيما ظريفات القيان اللائى كن يساهمن بنصيب فى الادب الرفيع. ففى زيارة إحداهُن لاسحاق استأذنت عليه بقولها :

ايدخل محبوب على الباب واقف ؟

فكان من شدة فرحه بها وطربه لرؤيتها ان نظم فى ذلك شعرا وغناها به.

وليس مرادنا الآن ان نتبسط فى هذا الموضوع لان المقصود هو ذكر نموذج من هذه البطائق، كان مستعملا فى المغرب وهو يدل على ادب رفيع وذوق مهذب، وقد كان مطويا فى زوايا التاريخ ولولا الرحّالة ابن رُشَيْد السبتى حدثنا عنه فى رحلته العامرة لما عرفنا عنه شيئا، على انه انما ذكره عرضا فى ترجمة ابى بكر ابن حَبِيش الاديب التونسى الكبير، وكان انشده لنفسه هذا البيت:

كتبت له بالباب خاء خديمه   فصحفها بالفضل حاء حبيب

قال: (وكان سبب قوله لهذا البيت ما جرت به عادة الافريقيين(1) من ان الزائر اذا جاء منزل المزور فلم يجده به حاضرا، خط على الباب حرفا مفردا من اسمه يعرف به، وهذا عندهم امر

---

1) يراد بالافريقيين هنا أهل المغرب الاوسط.

متعارف، فخط ابو بكر على باب بعض اصحابه، وذكر لى انه القاضى ابو عبد الله بن يعقوب حاء مفردة ح هكذا من حبيش، فجاء صاحب المنزل فعرفها فبادر اليه فقال ابو بكر انما كتبت خاء خديم فصفتحها انت حاء حبيب على حكم المداعبة.)

فهذا الكلام يدل على ان بطاقة الزيارة كانت معروفة مستعملة عند اذباء المغرب فى القرن السابع ثم انهم تفننوا فيها وابدعوا هذا النوع من اختصار الاسماء حتى يَدعُوا للمزور مجالا واسعا للتذكر والافتراض اى اصدقائه يكون هو الزائر الذى لم يجده، فيستعرضون كل من فى اسمه ذلك الحرف المكتوب حتى يهتدوا الى المطلوب .

وقد تنشأ عن ذلك محاورات لطيفة ومخاطبات ادبية كما وقع فى حكايـة ابن حبيش هذه التى ذكرها ابن رشيد وكما وقع لابن رشيد نفسه مع استاذه ابن حبيش هذا، وهو ما يحدثنا عنـه بازاء كلامـه السابق.

قال: (ولقد جرى لى معـه فى هـذا ما يستغرب، وهو انـى خرجت يوما عن موضع سكناى ثم رجعت اليه، فألفيـت فى البـاب مخطوطا اربع حاءات على نسق فافكرت فيها وتأملتها فوقع فى نفسى انها من فعـل شيخنا ابى بكـر، ولم اكن اعرف عادتـه فى ذلـك، فتسلطت عليها بفكرى وتتبعت ما فى اسمه واسم ابيه وجده (مـن حاء) فظفرت بذلك، واذا هو قـد اودعها محمد بن حسن بن حبيش وبقيت على الرابعة فامعنت النظر وانعمتـه فاذا هى محبكم فنظمـت فى الحال ابياتا تتضمن هذا المعنى، واسرعت المشى اليه وحملـت اليه الابيات فلهج بها كثيرا . . الخ . .)

وهذه هى الأبيات على ما فيها من مسامحة:

ظفرت من الحاءات غفلا باربـع — رقمن موالاة فرقن بمربـع
فساءلتها فاستعجمت ثم افصحت — وقالت ابوبكر ابى فاستمع وعى
حبيب محمد الى حسن نُمـى — سليل حبيش بيت عـز مُمَنّع
فاقرئت من اعدادها عد فضلها — فكان قراها من فؤادى واضلعى
ونزهت فى تلك المحاسن ناظرى — واهديت من طيب الحديث لمسمعى
وما خط ايديكم باولى يـد ولا — خطـا تلكم الاقـدام اول مهيـع
عرفت الخطا من طيب عرف معرف — فقبلتهـا رعيـا لكعـب مرفـع
برأسى افديها وقل لحقهـا — فقد رقيتْ فى المجد ارفع موضع
طبعت ابا بكر على الفضل خلقة — وخلقا وليس الطبع مثل التطبع

ولم يختف هذا النوع من الآدب وهذا التظرف فى الكتابة على الابواب حتى قريب من وقتنا هذا والى الجيل الذى ادركناه من حملة الاقلام، فقد حدثنا العلامة المرحوم سيدى عبد الرحمن الزودى انـه وجماعـة من الطلبة فيهـم العلامة الاديب مـولاى احمد بن المامـون البلغيثـى والفقيه سيدى محمد بنانـى قاضى الدار البيضاء سابقا كانوا يدرسون على الفقيه كنون الكبير. وكانوا بعد القيام من المجلس يذهبون لتناول طعام الفطور جميعا كل يوم عند واحد منهم. وجاءت نَوْبة القاضى بنانى فقال انى ذاهب قبلكـم لأهيىء لكم ما يلـزم، فتلبثوا قليلا ثم لحقوا به فلم يجدوه وانتظروه مـدة فلم يحضـر، فعزموا على الانصراف فاستمهلهم مولاى احمد بن المامون حتى كتب على الباب هذا البيـت، وكانوا قـد درسوا فـى ذلك اليوم حكـم

إحيـاء المـوات:

علمنا بُخْلَـه طبعا ولكن تفاءَلْنـا باحيـاء المـوات

فانصرفوا وقد سجلوا تخلف زميلهم بهذه النكتة البديعة التى لا تنسـى، وهكـذا كان أجتماعهم على علـم وافتراقهم علـى ادب رحمـهـم الله.

لِما بِهِ والفاظ اخرى

اقتضانى تعبير لما به هذا مدة طويلة من البحث، وكنت وقفت عليه اول مرة فى كتاب المعجب فى تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى، وذلك اثناء ترجمته للوزير ابى جعفر بن عطية حين يقول فى بيان سبب نكبته: «كان سبب قتله فيما بلغنى انه كانت عنده بنت ابى بكر بن يوسف ابن تاشفين التى تعرف ببنت الصحراوية، واخوها يحيى فـارس المرابطين المشهور عندهم يعرف بيحيى ابن الصحراوية فحظى يحيى هذا عند الموحدين وقوّدوه على من وحد من لمتونة ولم يزل وجيها عندهم مكرما لديهم، وكان خليقا بذلك، الى أن نقلت عنه الى عبد المومن اشياء كان يفعلها واقوال كان يقولها أحنقته عليه فتحدث عبد المؤمـن ببعض ذلك فى مجلسه وربما هم بالقبض علـى يحيى هذا، فرأى الوزيـر ابو جعفـر ان يجمع بين المصلحتين من نصح أميره، وتحذير صهره، فقال لامرأته اخت يحيى المذكور قولى لاخيك يتحفظ واذا دعوناه غدا فليعتل ويظهر المرض، وان قدر على الهروب واللحاق بجزيرة ميورقة فليفعل فأخبرته أخته بذلك فتمارض واظهر انه (لما بـه) فزاره وجوه اصحابه وسألوا عنه فأسر الى بعضهم ممن كان يثق به ما بلغـه عن الوزير فخـرج

ذلك الرجل الذى أسر اليه فنقل ذلك كله بجملته الى رجل من ولد عبد المؤمن فكان هذا هو السبب الاكبر فى قتل ابى جعفر المذكور».

وكان وقوفى على هذا النص اولا فى طبعة القاهرة للكتاب المذكور وهى طبعة عادية لم تحظ بتحقيق ولا تعليق من احد، فلم يكتب على ذلك التعبير شىء وبما انى استشكلته فقد كتبت عليه حين نقلت هذه الفذلكة فى ترجمة ابى جعفر بن عطية من ذكريات مشاهير رجال المغرب لفظة «كذا» دليلا على التوقف فى صحته.

ولما نشر المعجب فى المغرب بتحقيق الاستاذ محمد الفاسى كتب هو ايضا على ذلك التعبير لفظة «كذا» وزاد قائلا «وفى طبعة ليدن كماء بالتحريك، وفى اللغة كمئت يده من البرد او العمل تشققت فصارت كالكمأة» قال «وفى العبارة ضعف» وفائدة هذا التعليق هى ان طبعة ليدن لا يمكن الاعتماد عليها فى تصحيح ذلك التعبير بل انها حورته الى ما لا معنى له فى التركيب الذى اشتمل عليه.

ثم طبع المعجب بعد ذلك طبعة جديدة فى القاهرة بتصحيح الاستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى، فجاء ذلك التعبير فيها مصححا هكذا «فتمارض واظهر أن ألما به» وهو التصحيح الذى لم نجرؤ عليه انا ولا الاستاذ الفاسى، وان كان هو مدلول التعبير والمتبادر منه على كل حال.

وأعترف أننى بقيت مدة لم اظفر بهذا التعبير فيما عدا نص المعجب برغم استقصائى فى البحث واستذكارى لمحفوظاتى من

من الاشعار القديمة، وطالت المدة وانا أمنى النفس بالعثور عليه فى يوم ما، فقد كنت لا اشك فى ان لـه اصلا عَمى نبـأه على وعلى الاساتذة الذين اختلفوا فيه.

وذات مرة كنت أنشد هذه الابيات تنسب لسيدنا على كرم الله وجهه وهى مما قيل فى الفرج بعد الشدة .

اذا اشتملت على اليأس القلوب	وضاق (لما به) الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واطمأنـت	وأرست فـى اماكنها الخطـوب
أتـاك على قنـوط منك غـوث	يجىء به اللطيف المستجيب

فأثار انتباهى شىء فى عجز البيت الاول، وعدت الى انشاده فاذا هو التعبير المطلوب بعينه، الا انه واقـع غير موقعه فى كـلام صاحب المعجب اذ هو هنـاك يقع بعد جملة غير تامة، وهنا يقع اثناء جملة كاملة علة لها لا تتميما... ومع ذلك فقد تفاءلت بأبيات الفرج هذه، ولم ايأس من العثور علـى طلبتى فيما يستقبل من الزمـان، ولبثت مدة أخرى وانا كلما تذكرت المسألة انشدت الابيات ممنيا نفسى بحل هذه العقدة ولو بعد حين، الى ان تفرغت لقـراءة كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ثانى مرة فى طبعته المحققة والمشروحة بعناية العلامة المرحوم الشيخ احمد محمد شاكر، وبلغت فيـه الى ترجمة يزيد بن مفرغ الحميرى فاذا به يقول وهو يقص حكاية حبس عبيد الله بن زياد له وتعذيبه اياه، وكان قد امر فسقى مسهلا وطيف به على بعير فى ازقة البصـرة مقرونا الى خنزيـرة، فمشى بطنه

وجعل يسيل على الخنزيرة، فتصىء... قال «فلما ألح عليه ما يخرج منه قيل لابن زياد انه (لما بـه)، فأمر بـه فأنزل فاغتسل فلمـا خرج من الماء قال:

يغسل المـاء ما فعلت وقولـي راسخ منك فى العظام البوالى...»

الشاهد كما هو واضح فى قول ابن قتيبة، فلما ألح عليه مـا يخرج منه قيل لابن زياد انه لما به، ولا شك انها هى عبارة صاحبنا المراكشى فى المعجب، وان ما تفيده هنا هو ما تفيده هنـاك اى ان الشخص الذى قيلت فيه مريض مثقل يجود بنفسه ربما كان هامة اليوم أو غد، على أنها هنا اكثر تجردا منها فى نص المعجب والابيات الشعرية اذ لم يسبقها فعل ولا وقعت وسط جملة فعلية وذلك ممـا يؤكد استقلالها بالمفهومية ودلالتها على ما تورد له من معنى.

ولا اخفى ان وقوع هذه العبـارة فى كلام المراكشى هـو مما جعلنى أتثبت فى شأنها لانه اديب ماهر وكاتب بليغ فيبعد ان يقع فى كلامه ما ليس صحيحا ولا جاريا على الاصول. لكنى حينما كنت اطبق عليها قواعد العربية كانت تتقلقل ولا تقبل التوجيه الا على احتمال ضعيف، وحينئذ لا اجد مناصا من فرض أنها عبارة مأثورة استعملت فى هذا المعنى قديما وخلصت الى مؤرخنا المراكشى من خلال محفوظاته العربية النموذجية، وها هـو فرضى يتحقـق فأجد العبارة بنفسها عند ابن قتيبة وناهيك به علما باللغة والادب وكلام العرب، فهو الحجة التى لا ترد، لا سيما وقد صحح العبارة الشيخ احمد شاكر بضبطه لها بكسر اللام وفتح الميم مع التخفيف، وهو

ايضا فى عصرنا حجة كبيرة.

ثم بعد هذا وجدتها فى شعر لابى الحسن بن زنباع من رجال القلائد يخاطب به الفتح بن خاقان ونصه:

اليـك ابا نصـر بديهة خاطـر   توالى عليـه الشغل وهو مقسم
أهبت به للقول وهو (لما بـه)   فلبى ولم يسعده نطق ولا فـم

وهى فيـه ايضا مجردة عن الجمـل الفعلية مثلها فى كـلام ابن قتيبـة(1).

هذا، ويخيل لى فى تخريج هذه العبارة انها من قبيل قولهم فى المبالغة ان زيدا مما أن يكتب، فى الاخبار عنه بالاكثار من فعل الكتابة اى أنه من أمر كتابة، كأنه مخلوق منها على حد قوله تعالى خلق الانسان من عجل، جعل لكثرة عجلته كأنه خلق منها قاله ابن هشام فى المغنى، وكذا مثالنا جعل فيه المخبر عنه بحالة من المرض والعياء بالغة الخطورة، اما المرض والعياء فيفهمان من السياق واما الخطورة فتؤخذ من ما لان الابهام يأتى للمبالغة والتهويل كما فى الآية الكريمة فغشيهم من اليم ما غشيهم اى شىء عظيم لا طاقة لهم به.

بـواسطـة كـذا

تلقيت رسالة من معهد الدراسات العاليـة التابع للجامعـة العربية ثبت فى عنوانها الى فلان بواسطة السفارة المغربية بالقاهرة. وتقرأ فى كثير من المجلات العلمية العربية فضلا عن الصحف مثل

(1) بعد القاء هذا البحث فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة لفت نظرى الاستاذ عبد الستار فراج من محررى المجمع ومصحح كتاب الاغانى فى

هذا الاعلان سافروا إلى البلاد الفلانية بواسطة طائرات الكرافيل مثـلا، وتتحدث الى احد أصدقائك او يتحدث اليك أحد اصدقائك فى قضية ما فيقول لك ذلك الصديق او تقول له انت هذا الامر لابد فيه من واسطة، أى شخصية ذات نفوذ ليتم على الوجه الاكمل.

طبعته الجديدة الى هذين البيتين من شعر ابـى الغمر الطهوى فى الحسن بن زيد يرثيه رواهما فى الاغانى:

قلت الندى لا شك بات (لما به)	وسألت عنه فقيل بات (لما به)
ببقائـه أو هابه فبدا بـه	وكأنما ضن الزمان على الـورى

وهما اوضح فى المعنى المراد بتلك العبـارة من كل ما سبـق. فللاستاذ فراج شكرى.

...وبعد رجوعى من القاهرة كتب الى الزميل الاستاذ الفاضل ابن عاشور انه ظفر عفوا بشاهدين يؤيدان البيان. الذى ألقيته فى المجمع بشأن هذا التركيب (لما به): الاول من كلام أمير المؤمنين على ابن ابى طالب كرم الله وجهه. ورد فى نهج البلاغة ج 1 ص 244 ط بيروت 1307، وهو قوله يصف حال المريض الميؤوس منه:

«حتى فتر معلله، وذهل ممرضه، وتعايـا اهله بصفة دائـه، وخرسوا عن جـواب السائلين عنه، وتنازعـوا دونه شجـى خبـر يكتمونه، فقائل (هو لما بـه) ومُمنّ لهم على اياب عافيته، ومصبر لهم على فقده يذكرهم أسى الماضين قبله».

والثانـى من كلام ابى نـواس يجيب احمـد بن روح حيـن هجاه فيقـول:

وهكذا يكثر استعمال الواسطة فى كلامنا بمعنى الوسيلة على اختلاف انواعها فى حين ان المعاجم اللغويـة لا تعرف هـذا المعنى للواسطة، وانما الواسطة عندها هذه الجوهـرة النفيسة التى تقـع وسط العقد وأشياء أخرى لا صلـة لها بهذا المعنى بتاتـا، اما اللفظ اللغوى الصحيح الذى تجعلـه المعاجم دليـلا على هذا المعنى فهو الوساطة وجمعها بحسب القاعـدة وسائط ولذلك كـان الواجب ان يقال فى مثل تلك العبـارات بوساطة السفارة المغربيـة، وبوساطة طائرات الكرافيل وهذا الامر لابـد فيه من وساطـة وهى وسائط متنوعة ولكن اللفظ يتحملها كلها.

لا رعى الله ابـن روح	وسـخ اسمـى بلعابـه
اسقم اسمـى ريح فيه	فاظن اسمى (لما به)
فابتغوا لى اسما سواه	واجـدوا فـى طـلابـه

من الديـوان ج I ص 45 ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة. وانى اشكر للزميل الكريم عنايتـه واهتمامه بالموضوع. كما انى وقفت على شاهد آخر فى كتاب علل الحديث لابن أبى حاتم وهو حديث عن ابن عمر ان النبى (ص) عاد امرأة من خثعم؛ فقال لها كيف تجدينك؟ قالت ما أرانى الا (لما بى) الخ. وهـو مما جاء هـذا التعبير فيه بصيغة التكلم. ومثله قول ابن زيدون :

متى ابثـك ما بـى	يا راحتـى وعذابـى
متى ينوب لسانـى	فى شرحه عن كتابى
الله يعلـم أنـى	اصبحت فيك (لما بى).

وهنا لابد ان يقبل بعضنا على بعض متسائلين هل العبارة التى يستعملها رجل الشارع كما يقولون والمجلات العلمية ومعاهد الدراسات العربية العالية لا تكون صحيحة ولا تعتبر عربية وان جرت على لسان كل عربى واقلام المثقفين العرب عامة وخاصة؟

ان ألفاظا عربية كثيرة لا تذكرها المعاجم اللغوية ولكن عدم ذكرها لها لا ينفى عربيتها وأصالتها، نرى انفسنا مضطرين لان نقول فيها مثل ما قاله بعض المحدثين فى احاديث يرويها احد الائمة الاثبات من غير ان يرفع سندها لعلها كانت معروفة عند اهل الصدر الاول بأسانيدها المرفوعة، ثم وقع التفريط فى هذه الاسانيد فضاعت ولم يهتد اليها العلماء بعد ذلك، فهل يكون لفظ الواسطة الذى نحن بصدده فى دلالته على معنى الوساطة من هذا القبيل.

هذا، وليس اعتمادى فيما ذكر على رواج الكلمة فى العصر الحاضر على لسان من ذكر بل على وقوعها فى كلام العلماء والمؤلفين فى الزمن الماضى ايضا، ومن اقدم من وردت فى كلامه فيما اذكر الشيخ عبد السلام بن مشيش وهو من كبار الصوفية عاش فى القرن السادس واوائل السابع، وقد جاءت فى صلاته البليغة المشهورة بالمشيشية فى الفقرة التى يقول فيها ولا شىء الا وهو به منوط، اذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط ويعنى بالواسطة هنا النبى (ص) اذ هو الواسطة العظمى فى كل ما وصل لامته من خير وبركة وما ادركته من عز وسؤدد ولولاه لما كان لها هذا الذكر الخالد وهذا المجد الطارف والتالد. واذا كان محل الاستشهاد من فقرة ابن مشيش

هذه هو كلمة الواسطة فان كلمة الموسوط فيها هو مما يلفت النظر، وهو مما يؤكد ما قدمناه من احتمال أصالة الكلمة وضياع فعلها الدال على معناها هذا، والذى تقتضى صياغة اسم المفعول منه ان يكون متعديا، الا ان نقول أن للموسوط هنا متعلقا محذوفا للسجع وهوله.

وعلى كل حال فان جميع العلماء الذين كتبوا على المشيشية وشرحوها بين مطيل ومختصر قد سلموا عبارة الشيخ وتلقوها بالقبول ولم نر من بحث منهم فى صحة اشتقاق كلمة الموسوط فأحرى كلمة الواسطة، ولكنا يجب الا ننسى ان هؤلاء الصوفية لهم جرأة فى وضع المصطلحات الخاصة بهم وتطويع اللغة لاغراضهم مما ينبغى ان يكون مثالا لنا نحتذيه ونستفيد منه خاصة فيما يتعلق بالمصطلحات الفلسفية.

وبعد ابن مشيش نجد الخطيب القزوينى فى القرن الثامن يعبر بالواسطة ويستعملها استعمال الوساطة فى كتابه المعروف «تلخيص المفتاح فى علوم البلاغة» وذلك عند كلامه على الكناية فيقول: « فان لم يكن الانتقال بواسطة فقريبة وان كان بواسطة فبعيدة ، ولابد هنا من ملاحظة ان اصل كتاب التلخيص الذى هو مفتاح العلوم للعلامة السكاكى انما يعبر فى هذا المقام بالوساطة، ولا يقول الواسطة ومع ذلك فان شراح التلخيص وعلى رأسهم المحقق سعد الدين التفتازانى كلهم قد تابعوا الخطيب القزوينى فى التعبير بالواسطة، وكذا المؤلفون فى علم البلاغة بعده كالسيوطى فى شرحه

لنظمه عقود الجمان(I) والاخضرى فى شرحه لنظمه الجوهر المكنون وشراحه الآخرين بحيث يصح القول ان كلمة الوساطة قد اختفت عند هؤلاء المؤلفين وحلت كلمة الواسطة محلها مع جمعها على وسائط.

ثم بعد القزوينى والعلماء المؤلفين فى البلاغة من بعده نرى الشيخ محمد البكرى وهو من اهل القرن العاشر يقول فى قصيدة له يمدح بها النبى (ص) وهى مما شاع بين طوائف الصوفية.

ما ارسل الرحمن او يرسل	من رحمة تصعد او تنزل
فى ملكوت الله او مكله	من كل ما يختص او يشمل
الا وطه المصطفى عبده	نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها واصل لها	يعلم هذا كل من يعقل

فيستعمل الواسطة استعمال ابن مشيش لها فى القرن السادس.

ولا نحتاج ان ننبه على كثرة ورود هذه اللفظة فى كلام العلماء والمؤلفين الذين اتوا بعد ذلك مما نجده مكتوبا بخطوطهم او نقف عليه فى مؤلفاتهم كقولهم نقلته من خط فلان بواسطة، او ان فلانا اخذ

I) اما فى النظم فقد استعمل الوساطة وكأنه اضطره اليها النظم، ولمزيد الاستعياب اقول ان ابن عربى الحاتمى كثيرا ما يستعمل لفظ الواسطة فى فتوحاته وهو من عصر ابن مشيش، ونبهنى الزميل الاستاذ الشيخ على النجار الى قول ابن مالك فى الالفية:

التابع المقصود بالحكم بلا واسطة هو المسمى بدلا

وابن مالك من هذا العصر ايضا.

عن فلان بواسطة ونحو ذلك فان من مارس الكتب المخطوطة والكتب الدراسية المستعملة فى المعاهد الدينة على الخصوص يعرف ذلك جيدا.

فهل بعد هذا التواطؤ من علماء سبعة القرون الماضية واهل قرننا الحالى على استعمال الواسطة فى المعانى التى ذكرنا تبقى كلمة منبوذة لا تفتح ابواب المعاجم اللغوية فى وجهها؟.

على ان الحس اللغوى فيما يظهر يعطى ان تختص كلمة الوساطة بالمعنى المصدرى فى حين ان كلمة الواسطة تختص بالدلالة على اسماء الاعيان والاشخاص الى جانب كلمة الوسيط التى قد تتعين فى الشخص الذى يقوم بالوساطة احيانا(1).

الحرمة بكسر الحاء

سأل سائل وهو طالب بكلية الحقوق سبق له ان درس فى معاهد القرويين، هل صحيح انه لا يقال الحرمة بكسر الحاء فيما حكمه المنع شرعا وانما يقال الحرمة بالضم؟ والطالب بحكم دراسته فى القرويين لم يسمع قط أن الممنوع حكمه الحرمة بالضم، وانما سمع من اساتذته وقرأ فى الكتب المقررة عليه ان هذا الشىء الممنوع منه او المنهى عنه نهيا جازما حكمه الحرمة بكسر الحاء وهو المحظور والحرام؟ اما الحرمة بالضم فيما يعرف فهى الشىء الذى يجب احترامه وعدم الاستهانة به سواء كان مأمورا به فعلا وهو الواجب والمندوب او تركا وهو الحرام والمكروه.

---

1) اقر مجمع اللغة العربية تعبير لما به بالمعنى الذى جاء فى هذا البحث وكذا استعمال الواسطة بالوجه المذكور فيه ايضا.

ويستشهد على ذلك الآية الكريمة، والقرآن كما يقولون قاموس المسكين الذى لا يستطيع ان يقتنى كتاب القاموس، وهو قوله تعالى: «ذلك، ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه» قال المفسرون المراد بالحرمات مناسك الحج لورودها فيه، ويصح حملها على العموم، وقال ابن العربى فى احكامه الحرمات امتثال ما امر الله به واجتناب ما نهَى عنه فان لهذا حرمة المبادرة الى الامتثال ولذلك حرمة الانكفاف والانزجار، فمعناها اذا عام شامل حتى على تخصيصها بما وردت فيه، لان من المعلوم ان مناسك الحج فيها المأمور به فعلا وتركا، فليس المراد بها المحرمات اى الممنوعات فقط، كما لا يخفى وما يقصد بالحرمة المكسورة الفاء غير هذا.

ونرجع الى القاموس فنجده يقول «والحرمة بالضم وبضمتين وكهمزة ما لا يحل انتهاكه، والذمة والمهابة والنصيب، ومن يعظم حرمات الله اى ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه» فيتوافق وما قاله المفسرون فى الآية، الا اننا اذا رجعنا الى أصل المادة وهى المصدر نجده يذكر لفعل حرم بالضم ككرم عدة مصادر أشهرها الحرام وليست الحرمة بالضم منها وانما يستدركها عليه صاحب التاج لان غيره ذكرها، فهل هو يعتبرها اسما لا مصدرا؟ اما الحرمة بالكسر فتأتى عنده مصدرا لحرمه الشىء كضربه بمعنى منعه اياه كالحرمان وغيره من مصادر أخر، ومثل القاموس فى ذلك بقية المعاجم اللغوية.

فنحن اذا بازاء مصدرين مختلفى الضبط لفعلين مختلفى الدلالة، احدهما الحرمة بالضم وهو مصدر حرم الذى يقتضى ان

الشىء حرام لذاته، والثانى الحرمة بالكسر وهو مصدر لحرمه الـذى يقتضى ان الشىء حرام لامر خارج عن ذاتـه، ومن هنا نعترف ان ملحظ فقهائنا فى استعمالهم الحرمة بالكسر وايثارها على الحرمـة بالضم ملحظ صحيح لان المحرمات منها ما هو ذاتى التحريم لمضرته التى لا يشك فيها احد كالزنى ومنها ما ليس كذلك وانما حرم بعد ورود الشرع وتوقيفه المومنين على ما به من اضرار خفية كالربا فهم لدقة الاستعمال المتوخاة فى الالفاظ الاصطلاحية ومزيد التحرى فى تمييز أقسام الحكم الشرعى بعضها من بعض عبروا بالحرمة المكسورة الفاء التى تشمل ما هو حرام لذاته وما هو حرام بحكم الشرع أى ما منع الناس منه بمقتضى الدين وان لم يكـن قبل ممنوعا عليهم. والتحريم فى هذا طارىء، وفيما قبلـه متجدد وهـو المنع الذى تدل عليه الحرمة بالكسر فى كل حال.

وبهذا يتضح ان قول الفقهاء فى الشىء الممنوع والمحظور حكمه الحرمة بالكسر صحيح بل اصح من أن يقال فيه الحرمة بالضم لدقته وتعبيره عن المراد مـن ان التحريم فيـه بحكم حاكم وهـو الشرع، ومعلوم ان كلامنا فـى اصطلاح ففهى فلابد فيه من مراعـاة اصول الفقه، والامر هنا على ما قال ابن السبكى فى جمع الجوامع «ولا حكم قبل الشرع بل الامر موقوف الى وروده».

ولا يرد علينا ما جاء فى خطبة الوداع من قوله (ص) «ان دماءكم واموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا» مع العلم بأن الرواية فيه بالضم لا غير لانا نقول انه ذكرهم بشىء كانت حرمته

مقررة عندهم وثابتة لديهم فلم يعدل عنها الى غيرها تأكيدا للمطلوب وهو تحريم الدماء والاموال، ألا ترى كيف عبر عن هذا بالحرام، وفى رواية أخرى للحديث «ان الله حرم عليكم دماءكم واموالكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا» على ان لفظ الحرمة فى هذا الحديث وفى غيره كحديث مكة «فهو بلد حرام بحرمة الله» وكحديث الحديبية «لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله الا أعطيتهم اياها» هو اقرب ما يكون من معناها فى الآية المتقدمة ولذلك فان القرآن كالحديث لم يعبر به فى مسائل التحريم الخالص، وانما عبر بالحرام والتحريم كقوله تعالى «واحل الله البيع وحرم الربا» ثم جاء اصطلاح الفقهاء من بعد ذلك فخص الحرمة بالكسر بما حكمه المنع شرعا اى بالحرام والمحرم فى الشرع.

السَّحاءة والكَلاَّء

هاتان كلمتان عربيتان ليس عليهما غبار، ولا فى معناهما لبس، ولم نوردهما لتصحيح لفظ او تحديد دلالة، ولكن لاقتراح اطلاقهما على مدلولى لفظين اعجميين أحدهما لا اسم له عندنا فيما اعرف، والثانى يعرف باسمه الاعجمى معربا فى بعض الاقطار العربية، على حين انه لا اسم له فى بعضها الآخر.

فأما السحاءة فهى مأخوذة من سحا الكتاب شده بسحاءة كسحاه واسحاه وهذا لفظ القاموس، وفيه ايضا وسحاية القرطاس وسحاؤه ما سحى منه اى اخذ وزاد فى شرحه وقد سحا من القرطاس اذا اخذ منه شيئا قليلا، واستدرك عليه السحاة كحصاة لغة فى

السحاءة. وهذا الذى فى القاموس هو ما فى الصحاح واللسان تقريبا ولا يظهر به المعنى الحقيقى للسحاءة، ولكنا نجده مبينا احسن التبيين فى صبح الاعشى وصاحبه كما هو معلوم من اهل الكتابة او على الاصطلاح الجارى من الفنيين الذين يرجع اليهم فى هذا الامر.

فهو يتحدث عن ختم الكتاب ويقول ان له ثلاث صور، الصورة الثالثة وهى محل الحاجة «ان يلف على الكتاب بعد طيه قصاصة من الورق كالسير فى عرض رأس الخنصر وتلف على الكتاب ثم يلصق رأسها، ويكون ذلك فى الرقاع الصغيرة المترددة بين الاخوان وتسمى القصاصة التى يلصق بها سحاءة بفتح السين وبالمد، وتقال بكسر السين ايضا وربما قيل سحاية، ويقال فيه سحوت الكتاب اسحوه سحوا وسحيته بالتشديد اسحيه تسحية فهو مسحو ومسحى ومسحى والامر من سحوت الكتاب اسح ومن سحيته سح واصله من السحو وهو القشر يقال سحوت اللحم عن العظم اذا قشرته.»

انتهى كلام صاحب صبح الاعشى وفيه بيان تام للاجمال الواقع فى كلام القاموس وغيره من المعاجم، ومعلوم اننا لم نعد نطلق هذه الكلمة على الكتاب المختوم ولا نستعملها ومشتقاتها فى ختم الكتب فلذلك اقترح اطلاقها على هذا النوع من الرسائل البريدية الذى يطوى على نفسه ولا يحتاج الى ظرف يدرج فيه ويسمى بالفرنسية Carte Lettre وبالانجليزية aer Gram او air Letter .

أما الكلاء (1) فهو مشتق من الكلاءة بمعنى الحراسة والحفظ،

---

1) هو بفتح الكاف وتشديد اللام على وزن شداد.

ويطلق على ساحل النهر ومرفأ السفن ومما يروى فيه من قول سمرة بن جندب «من عرض عرضنا له ومن مشى على الكلأ قذفناه في النهر» اى من لم يصرح بالقذف عرضنا له بضرب خفيف ومن صرح حددناه، استعار المشى على مرفأ السفينة للتصريح والتغريق للحد.

وبما ان هذه الكلمة ترد بمعنى المرفأ والساحل وهى غير مستعملة فى ذلك اذ ان كلا من المرفأ والساحل اشهر منها واكثر ورودا على الالسنة فانى اقترح اطلاقها على ما يسمى فى بعض البلاد العربية بالكرنيش وهو الممشى والرصيف الذى يشاد على حافة النهر او البحر ويعد للفسحة والنزهة(1) لا سيما وهو يحوط بما يكلأ المارين عليه من درابزين ونحوه فمعناه اقرب الى المراد من كلمة الكرنيش التى هى فى الاصل فرنسية ولا تدل على اكثر مما تدل عليه كلمة (Cornisa) الاسبانية اى الافريز والاطار.. فاذا كان التوسع فى معناها هو الذى سوغ اطلاقها فى بعض البلاد العربية على ما ذكرنا فان التوسع فى لفظ عربى قريب المعنى من المراد هو اولى واحق، والنظر للزملاء الكرام كلأهم الله.

---

1) وقد وردت فى كلام الجاحظ بهذا المعنى اكثر من مرة فى كتاب البخلاء.

المعجم العربي

نشأته وتطوره

تأليف الدكتور حسين نصار
مدرس بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

حظيت بقراءة هذا الكتاب القيم منذ امد قريب وان كان قد صدر قبل سنوات، وهو فى جزأين كبيرين، ويتناول موضوعا بكرا لم يسبق ان ألف فيه احد قبل الدكتور نصار بهذا الاستيعاب الذى لم يترك شاذة ولا فاذة فى المقام الا ألمّ بها. والحقيقة انى دهشت من سعة اطلاع الرجل وكثرة صبره على الاستقراء والتعليل والمقارنة بين مواد بحثه التى يخرج منها دائما بالنتائج المطلوبة الموافقة للمقدمات والآراء والتصميم العام المأخوذ به فى بناء هيكل الكتاب، وكنت أرى هذا التوسع فى المادة والاستقصاء فى البحث فيما اقرأه للدكتور المؤلف من مقالات فى مجلة المجمع(I) وغيرها، ولكنى فى هذا الكتاب رأيت الامر الذى يقال فى مثله، جرى الوادى فطم على القرى.

I) مجلة المجمع العلمى العربى وبها نشر هذا المقال.

ان الموضوع كما قلت بكر لم يتناوله احد بهذه الطريقة التى عالجه بها مؤلفنا الفاضل. قد نجد فى الفهرسة لابن النديم، وكشف الظنون لحاجى خليفة وما وضع فى الفترة التى بين هذين المؤلفين من كتب فى تاريخ اللغويين، وتراجم اصحاب المعاجم، وخاصة كتب السيوطى كالمزهر وبغية الوعاة، تفاريق من الاخبار عن حياة المعجم العربى ونشأته وتطوره، لكن الكتاب الذى بايدينا يصح اعتبـاره موسوعة بالمعنى الكامل فى هذا الموضوع، وموسوعة لا يقصد منها إلى التثقيف العام فقط، بل الى الدراسة العميقة التى تحيط بالموضوع من جميع جوانبه، فهو قد اتى على كل ما تضمنته الكتب السالفة الذكر من معلومات فى هذا الصدد، وتتبع الدراسات الحديثة والبحوث التى كتبها علماء الاستشراق فى مختلـف المسائل المتعلقـة باصل الموضوع، واختط لنفسه منهجا يقوم على وصف المعاجم العربية منذ نشأتها بتبيين طرق تأليفها والاهداف التى ترمى اليها مع تقسيمها الى مدارس يحرص كل الحرص على تتبـع آثار السابقة منها فـى اللاحقة مستخلصا من ذلك النتائج التى توضح التطور الطارىء على المعجم العربى فى مراحل تكوينه واكتماله.

وهكذا درس فى الكتاب الاول ـ وهو قد قسم كتابه الى كتب فابواب ففصول ـ الرسائل اللغوية المؤلفة على الموضوعات مثل كتب الغريبين والعامـى والمعرب والحيـوان والنوادر والبلـدان وألابنيـة والصفات وما الى ذلك، ودرس فى الكتاب الثانى المعاجم ومدارسها المختلفة وهى اربع: المدرسة الاولى ، اساسها الترتيب على حروف

المعجم بحسب مخارجها وتتضمن كتاب العين للخليل ابن احمد، وكتاب البارع للقالى، وكتاب التهذيب للازهرى وكتاب المحيط للصاحب ابن عباد، وكتاب المحكم لابن سيده، والمدرسة الثانية، اساسها الترتيب على الحروف والابنية معا، وتتناول كتاب الجمهرة لابن دريد، وكتاب المقاييس لابن فارس، وكتاب المجمل له أيضا.

والمدرسة الثالثة، اساسها الترتيب على المادة اللغوية بحسب الحرف الاخير، وتحتوى على كتاب الصحاح للجوهرى، وكتاب العباب للصغانى، ولسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروز آبادى، وتاج العروس للزبيدى، وكتاب المعيار لميرزا محمد على الشيرازى والمدرسة الرابعة، اساسها الترتيب على ألف باء بحسب الحرف الاول فالثانى فالثالث من المادة اللغوية الاصلية، وتشتمل على اساس البلاغة للزمخشرى، ومعاجم اليسوعيين، ومشروعات المجمع اللغوى. ودرس فى الكتاب الثالث المعاجم التى نحتاج اليها فبين عيوب المعاجم القديمة والخصائص التى ينبغى ان تتوفر فى المعاجم الجديدة لسد الفراغ الذى يشعر به جمهور المثقفين العرب فى هذا الباب.

ويطول بى الكلام اذا اردت ان اتعرض لما بسطه المؤلف فى الابواب والفصول التى تندرج تحت هذه الكتب من انظار صائبة، وما طرقه من ابحاث موفقة، يتأتى لها احسن التأتى ويمحصها بروح علمية مجردة من كل غاية الا غاية معرفة الحق وحصول اليقين، ولكننى اقول على سبيل العموم ان الاعمال المبتكرة التى من هذا

القبيل قلما تستوفى اغراضها، وتصيب اهدافها بمثل ما وقع لمؤلف المعجم العربى، حيث خرج بكتاب كامل فى موضوع جديد يستحق عليه كل ثناء، ويستوجب به اعظم التقدير.

فإذا كان لى ما آخذه عليه ليكون تقريظى له خالصا لوجه العلم، فهو هفوات طفيفة لا تتعلق بصلب الموضوع وانما هى استدراكات او تصحيحات اود لو يحققها المؤلف، فاذا تأكد من فائدتها وصوابها عاد اليها عند مراجعة الطبعة الثانية من كتابه النفيس وبذلك يكون قد اوفى على غاية الغاية فى التحقيق والكمال.

ففى صفحة (42) لما تكلم على المؤلفين فى غريب القرآن من أهل القرن الرابع ذكر محمد بن عزيز السجتانى باسمه ولقبه ونسبه، ثم عاد فذكره بنسبه اى السجستانى فقط وهو مشهور بلقبه ابن عزيز، فكان الاولى ذكره بعد ذلك بهذا اللقب. ثم فى الصفحة التى تليها ذكر ان الباحثين اعجبوا بغريب ابن عزيز هذا وان ابا العباس التدميرى ألف كتابا فى شرح شواهده.

واعرف ان مالك بن المرحل الشاعر المغربى المشهور نظمه، فحبذا لو ان المؤلف ذكر ذلك، واشير هنا اى فى مبحث كتب غريب القرآن الى ان المفسر ابن جزى ، وتفسيره مطبوع ، كتب فى صدر تفسيره مقدمة تشبه معجما صغيرا خاصة بالالفاظ الغريبة الواردة فى القرآن وفسرها تفسيرا حسنا، وقد افرد هذه المقدمة السيد حسن القادرى ونشرها فى رسالة مستقلة كما ان العلامة محمد المجاصى له نظم فى غريب القرآن يوجد عندنا مخطوطا فهو مما

يستدرك فى هذا الباب.

وفى ص (56) اثناء الكلام على كتاب الخشنى فى غريب الحديث نقل المؤلف وصفا له عن ابن خير صاحب الفهرسة المشهورة ومضمنه انــه شرح حديث النبى (ص) فى (II جزءا) وحديث الصحابة فى (6 اجزاء) والتابعين فى (5 اجزاء) فعلق عليه بقوله: يتضح من هذا الوصف انه سار فيه على المسانيد. واظن ان هذا ليس بلازم للوصف، والمؤلف يعبر هنا وفى غير موضع بالمسانيد، والصواب المساند بغير ياء.

وفى ص (62) انهى المؤلف الكلام على نهاية ابن الاثير واختصار السيوطى لها المعــروف بالدر النثير فقــال: واختصر النهاية أيضا على بن حسام الدين الهندى الشهير بالمتقى، ولم يقل شيئا عن هذا الاختصار كأنه لم يقف عليه، وأنا أيضا لا اعرفه الا أنه ذكرنى بكتاب تلميذه الشيخ طاهــر المسمى بمجمع البحــار فى غرائب التنزيــل ولطائف الاخبار، وهو كتــاب ضخم فى مجلدين كبيرين مطبوع فى الهند، ويعد من كتب الغريبين ، على ان المؤلف اغفل كتاب مشارق الانوار للقاضى عياض الذى يمكن اعتباره اصلا لكل من النهاية ومجمع البحار هذا ، فى خصوص غريب الحديث ، وهو من الشهرة بالمكان الذى لا يجهل، وقد قيل فيه:

مشارق انــوار تبــدت بسبتــة   ومن عجب كون المشارق بالغرب

فاجيب هذا القائل:

وما شرف الاقطــار الا رجالهــا   والا فلا فضل لترب على ترب

وهو مطبوع. كما بقى على المؤلف من افراد التصانيف فى غريب

الحديث كتاب غريب الشهاب اعنى شهاب القضاعى المعروف فى الحديث وهو لابن منصور السجلماسى ويوجد عندنا مخطوطا .

وفى ص (114) تعرض المؤلف الى قدم التأليف فى لحن العامة، وسرد أسماء بعض الكتب التى وضعت فى العراق والاندلس وغيرهما خاصة بعامية اهلها. ولم يذكر كتاب ابن هانىء السبتى المسمى بانشاد الضوال وارشاد السؤال وهو يثبت مساهمة علماء المغرب فى هذا الموضوع وانهى المؤلف الكلام على التأليف فى لحن العامة وألفصيح واصلاح المنطق، وتعرض فى صفحات عديدة لفصيح ثعلب وذيله وشروحه، وكنت اود لو اشار الى نظمه من طرف مالك ابن المرحل فان نظمه هذا له شهرة كبيرة، ويكثر الاستشهاد به بين العلماء المغاربة، لانه من النظم السهل الخفيف ولانه لم يقتصر فيه على مجرد النظم بل اضاف اليه شرح ألفاظه وبيان معانيه، وربما ضمن نظمه بعض الشواهد، ومما قاله فى خطبته:

وبعد هذا فجرى فى خاطرى ... من غير رأى نادب أو آمر
ان انظم الفصيح فى سلوك ... من رجز مهذب مسبوك
وبعض ما لابد من تفسيره ... وشرحه والقول فى تقديره
من غير آن اعدو ذاك المعنى ... واللفظ الا لاضطرار عنا

ومن امثلته:

وقد غبطت المرء فى احواله ... اغبطه بالكسر فى استقباله
اعنى تمنيت لنفسى مثلما ... له ولا يسلب تلك النعما

ومن قوله فى الاستشهاد:

وقد كفأت يا فتى اناثى قلبته وكان ذا استواء
ونحوه أكفأت فى القوافى يشبهه الاقواء فى الخلاف
مثاله ما قاله اعرابى ولم يكن فى النظم ذا صواب
(بُنَىَّ ان البر شىء هيِّن المنطق الليِّن والطُعيِّم)
وهو مطبوع.

وفى ص (I29) فما بعدها تكلم المؤلف على كتب خلق الانسان، واستوعب فى ذلك على عادته الا انه بقى عليه رجزية أبن المناصف المعروفة بالمذهبة، وهى مشهورة وقد اخذت عنه بالمغرب والاندلس ومن قوله فيها:

وطرف المارن فهو الارنبه وروثة كلتاهما مستغربة

والغريب ان هذا الموضوع هو مما ادخله المؤلف فى الباب الرابع من الكتاب الاول وعنوانه كتب الحيوان، وقد توقعت ان يذكر فيه كتاب الحيوان للجاحظ وهو العلم المفرد فى هذا الباب وكتاب حياة الحيوان للدميرى، ولكنه لم يفعل.

وفى ص (I4I) اشار المؤلف وهو يتحدث عن كتب النوادر الى من ألف فى هذا المطلب من اهل القرن الرابع فذكر منهم ابا محمد عبد الله بن ابى زيد القيروانى، وهذا غلط فان نوادر ابن أبى زيد القيروانى كتاب موضوعه الفقه ومسائله على مذهب الامام مالك ، ولا صلة له بالمباحث اللغوية وهو فى مجلدات مخطوط.

وفى ص(I5I) فما بعدها تكلم المؤلف على كتب الافراد والتثنية

والجمع وهو الباب السابع من الكتاب الاول فختمه فى ص (154) ولم يذكر كتاب المثنيين للمحبى المعروف بجنى الجنتين وهو مطبوع.

وفى ص (167 س 9) وقع ذكر ابن القوطية بدلا من ابن القطاع وهو سبق قلم.

وفى ص (357 س 13) تصحف اسم ابن سيده بابن دريد ولعله تطبيع .

وفى ص (577) رد المؤلف تصحيح صاحب الوشاح لقول الجوهري في طهفة النهدي انه زهرى نسبة الى والده زهير فقال: ولو سلمنا لصاحب الوشاح لقلنا أنه كان الاولى بالجوهرى تجنب هذه النسبة خوفا من الخلط بينها وبين الزهرى المحدث (المؤرخ) المشهور، ومحمد بن شهاب الزهرى ليس بمؤرخ فيما نعرف وهو كذلك لا يلتبس بصحابى اسمه طهفة خصوصا مع الاختلاف فى ضبط نسبتيهما، فالظاهر ان تصحيح التادلى صاحب الوشاح لقول الجوهرى لا غبار عليه.

وفى ص (539) ذكر المؤلف احمد بن عبد العزيز الفيلالى وبما انه هو احمد ابن عبد العزيز الهلالى السجلماسى المذكور فى ص (566)، احببت ان انبه على اتحاد الاسمين والمسمى لئلا يتوهم انهما اثنان، وفعلا فقد ذكرا فى فهرس الاعلام عند المؤلف كل واحد منهما على حدة.

وفى ص (670) يقول المؤلف وهو يتكلم على كتاب اساس البلاغة للزمخشري وترجع كثرة الاحاديث في الاساس الى ان

مؤلفه من المحدثين ومن المؤلفيـــن فى غريـــب الحديث، اما كونـــه من المؤلفين فى غريب الحديث فنعم، واما كونه من المحديثن فلا.

واكتفى بهذه المراجعات التى قد يكون لها بعض الاهمية عما بقى من الاغلاط التى لا شك فى انها مما ند عن قلم التصحيح عند الطبع، وان كنت ارى ضرورة الاشارة الى انه كان الاولى بالمؤلف وهو يكتب بحثا جليلا عن المعاجم اللغوية ان يتجنب التعبير الشائع وهو الاكتشاف بمعنى الكشف، فما ذكر له فى المعاجم من معنى لا يتوافق وهذا الاطلاق، كما اشير الى انه فى ص (264) جمع الخليل على اخلة ونعت هذا الجمع بثلاث وهو يعلم ان حقه الجمع على اخلاء، وان ينعت بثلاثة وسبحان من لا يسهو ولا يغفل.

المغرب في مجمع اللغة العربية[1]

سيدى الرئيس، سادتى.

ان الدعوة التى توجهت من مجمعكم الموقر الى ممثل المغرب الماثل بين يديكم للمشاركة فى العمل العظيم الذى تقومون به من اجل المحافظة على اللغة العربية والسير بها الى الامام كانت نداء عاليا رددت صداه جبال الاطلس الشامخة ، وحلل الصحراء الكبرى ، ومعاهد العلم فى ذلك الركن القصى من بلاد العروبة العزيزة. وطبعا ليس هذا التجاوب مع تلك الدعوة من اجل شخص الممثل وانما هو من اجل التمثيل نفسه، فان مما يعنى كل مغربى، او كل مواطن عربى فى المغرب، ان يكون هذا القطر ممثلا فى مجمع اللغة العربية، الذى هو المصنع الرئيسى لهذه المادة العضوية التى تؤلف بين الشعوب الناطقة بالضاد فى المشرق والمغرب .

ولعلى لا ابالغ اذا قلت ان ذلك مما يعنى المجمع ذاته، فان هذه المجهودات التى تبذل، وهذه الطاقات التى تصرف يجب ان تستفيد منها جميع الاقطار العربية، وان يروج لها بين ابناء العروبة فى كل

---

1) خطاب تقدم به الكاتب الى مجمع اللغة العربية عند تعيينه عضوا عاملا ممثلا للمغرب بالمجمع.

مكان، لتحصل النتيجة المرغوبة من اعتزاز العرب بلغتهم، وايمانهم بمسايرتها لركب الحضارة والعلم والاختراع، شأنها فى ذلك شأن سائر اللغات الحية التى يخدمها ابناؤهـا، ويمهدون لها سبيل البقاء والنمو والازدهار وبالضرورة فان ممثلى هذه الاقطار فى المجمع، هم الذين يقومون او عليهم ان يقوموا بنشر مقرراته بين مواطنيهم وهم الذين يعملون او عليهم ان يعملوا لتعريف من يمثلونهم بكل ما جد فى الحقل اللغوى من اوضاع ومصطلحات، والا بقيت تلك المقررات مخزونة فى اذهان المجمعيين الذين لا يؤدون مهمتهم هذه فى البلاد التي لها مجمعيون فكيف بغيرها ؟

اذا كان هذا الدمع يجرى صبابة
على غير ليلى فهو دمع مضيع

وانى لاعـزو هذه الضجة التى تثار آنا بعد آن، على المجامع اللغوية زعما بانها لم تعمل شيئا فى سد مفاقر اللغة العربية بالنسبة الى متطلبات العصر الحديث، وهذا التندر الغث على المجمعيين الـذى اصبح حجة كل ثرثار متفيهق بعبـارة الشاطر والمشطـور وبينهما كامخ، بل اصل الاتهام للغة العربية الذى كثيرا ما يردده الجاهلون بغزارة مادتها وقابليتها العظمى للتطور، فيصفونها بالجمود والموت، ويدعون الى نبذها واستعمال غيرها من اللغات الاجنبية، سواء فـى البيت او المعمل او المدرسة، وانهـم ليستعملونها فعـلا فى حالـة التخاطب بينهم وبين ابنائهم ومن كان على دينهم من الخوارج على الامة العربيـة .

انى لاعزو ذلك كله الى عدم العلم بالاعمال الطائلة، والفتوح الكبرى التى تمت فى سبيل ترقية هذه اللغة الخالدة منذ اوائل هذا القرن على يد ابنائها البررة من ادبــاء وصحفيين وعلماء، ولا سيما المجمعيون منهم، حتى صارت أداة طيعة للتعبير عن كل مـا يختلج بالنفس البشرية من ادق المشاعر واعمق الاحاسيس، وتصوير كل ما تقـع عليه عين انسان من مختلف المرئيـات، ومتنوع المشاهــد، واصبحت تتوفر على عشرات الالآف من المصطلحات العلمية والفنية والحضارية، التى وضعت حديثا ولم يكن لها وجود قبل جيل واحد فقط من عصرنا هذا، ثم هى بعد ما تزال تكافح فى الميدان، وتطوى مراحل التخلف بعزيمة لا تكل وستربح المعركة لا محالة وتحل مــن بيں اللغات الحية والعالمية المحل اللائق بعظمتها وخلودها فلو علــم العققة من ابنائها بعض هذا العلم، لخجلوا من انفسهم، ولـرأوا أن ما بينهم وبين اخوانهم المؤمنين بعربيتهم المتجندين لخدمتها، لهو ما بين المتناصرين الثابتين فى الصف. والمتخاذلين الفارين من الزحف.

وكيف يعلمون، وهذه المساعى البارة يكاد امرها يخفى حتى على المهتمين بهذا الشأن ولا يسمع لها صدى عند غالب الادباء والمعلمين والمثقفين بعامــة، فأحرى باقى طبقات الشعب فالمصطلحات، العلمية والفنية لا تجد طريقها الى الكليات والمعاهد بله المدارس والمصطلحات الحضارية قلما يتردد منها شىء على الالسنة او تسيل به الاقلام. والا فمن اين تأتــى فوضى الوضع وتعــدد المصطلحات ان لم تكن مــن التقصير فى تبليغ عمل المجمع الى كل من يهمه امر اللغة العربية.

ويحرص على تقدمها بتقدم المعرفة فى هذا العصر. ومن أين يأتى تمرد هذا الفرد العربى او ذاك على لغتـه الاصلية ونكران صلاحيتها للحياة العصرية، وهى بالحالة التى وصفناها من الانبعاث والنهوض.

ليس هذا تشنيعا فى ضمن التنويه بما يقوم به المجمعيون الكرام من عمل عظيم فى سبيل المحافظة على لغة الضاد وتجديدها ولكنه تدليل على ما يلزم لهذا العمل من اعلان واشهار فى كل الاوساط الثقافية ليأخذ كل طرف بما يعنيه منه ولتعم فائدته جميع البلاد العربيـة. ولعل قرار رئاسة الجمهورية العربية المتحدة بتوسيع المجمع وتمثيل الاقطار العربية التى لم تكن ممثلة فيـه من قبل، انما اتخذ لذلك، وانها لخطوة مباركة يرجى ان تتبعها خطوات يصبح بها هذا المجمع الى جانب الجامعة العربية ثانى مظهر من مظاهر توحيد الامة العربية توحيدا كامـلا، فتكون الجامعة العربيـة على الصعيد الدولـى منار الساسة العرب الذى به يهتدون ، ومجمع اللغة العربية فى المجال القومى كعبة أهل العلم والادب التى اليها يحجون.

سيدى الرئيس، سادتى.

اذا كان هذا من أثر توسيع التمثيل فى المجمع على العموم، فان من أثر تمثيل المغرب فيه على الخصوص انه ضم اليه بلدا من اعظم بلاد العرب تاريخا واعرقها حضارة، فان مما لا يخفى على احد ان المغرب هو الذى فتح الاندلس وركز راية العروبة فى ارضها وحماها وذاد عنها مدى القرون الثمانية التى خفق ظلها فيها، وانتشر سلطانها عليها، وأسس أكبر دولة عربية عرفها شمال افريقية، اذ كانت تمتد

ما بين حدود مصر الغربيــة الى جنوب اوربا، وامتازت حضارته بما تحتفظ به من عناصر عربية أصيلــة، فانها وان كانت بحكم نشأتها على الصعيد الافريقى وحول البحر الابيض المتوسط، لا تخلو مــن بذور تكوين اوليــة ترجع الى هذه البيئــة الخاصة، الا ان تأثرها بحضارة دمشق ايــام حكم الولاة كان اقــوى، وزادها التفاعل مــع حضارة قرطبة ايام حكم المروانيين قوة، فاصطبغت بالصبغة العربية التى لم تزايلها بعد. ولئــن بقيت الى عهد المرابطين آخذة ومعطيــة، فانها فى عهدى الموحدين والمرينيين كانت صاحبة اليد العليا حتى فى الاندلس التى تنطق آثارها المختلفة عن هذين العهدين بانها وليــدة العظمة الموحدية والعبقرية المرينية .

وعلى ذلك فانه حين كانت موجات دول المماليك التركية تتدفق على مشرق البــلاد العربية، كــان مغربها يتمخض عن دول عربيــة حسنة الرعاية للتراث العربى، والحفاظ عليه.

وقامت خلافة الاتراك العثمانيين فطم الوادى على القرى، اذ ان سيطرتها لم تقتصر على بلاد المشرق، بل امتدت الى نهاية المغرب الاوسط، وانتظمت فى حكمها بلاد طرابلس الغرب التى هى مملكة ليبيا الآن، وبلاد تونس والجزائر ولم يبــق من المغرب العربى غير خاضع لها الا المغرب الاقصى الذى كان يعرف ببلاد مراكش وبذلك احرز كيانه، وأحرز فى الحقيقة كيان الحضارة العربية التى بقيت فيه محتفظة بمظاهرها وخصائصها لم يمسسها سوء من هجنة ولا تزييف. حتى لقد قال العلامة التونسى محمد بيرم الخامس المتوفــى

اواخر القرن الماضى فى كتابه صفوة الاعتبار «لعمرى ان صناعة الانشاء فى الدول العربية كادت تكون الآن قاصرة على دولة مراكش»، وهو قول من تقرى البلاد العربية واطلع على احوالها فوصفها وصف العارف فى كتابه المذكور الذى قال فيه المستعرب ادوارد فنديك : انه اوفى كتاب باللغة العربية فى الجغرافية العمومية .

وما لنا والاحتجاج بالاقوال، وباستطاعتكم ايها الزملاء الكرام ان تذهبوا معى الى بلادكم المغرب. فتشاهدوا بأم العين معالم هذه الحضارة ماثلة امامكم فى أسلوب البناء، وفن المعمار وما يزينه من زخارف ونقوش وتوريق وتذهيب وتطعيم وتنزيل، وهذه (المقربصات) الجميلة التى تخرم السقوف خشبية او جصية بتجويفها البديع، وتلك (البخاريات) البارعة التى تملأ الاركان وتتوج (الباحات) ببروزها العجيب، وما يتقاطر ويتقاطع خلال ذلك من اعمدة رشيقة واقواس لطيفة وشبابيك مشغولة احسن الشغل و (شماسيات) مرصعة بقطع الزجاج الملون اجمل الترصيع، الى البلاطات المفروشة بافخر انواع الرخام المجزع والجدران المكسوة بأزر (الزليج) الدقيق الصنع الناصع التلوين، كأنه خمائل الزهر. تستند اليها هنا وهناك (السقايات) الرائعة التى تنوق فى وضعها وتجميلها أعظم التنوق، متدفقة الانابيب بالمياه ذات الخرير المطرب، على حين تنتصب (الخصات) المرمرية الانيقة فى وسط الصحن تقذف الجو بخيوط الماء الفضية المتوثبة، كأنما تحاول الرجوع الى المكان الارفع الذى هبطت منه . فلا تكاد تبلل غصون البان المترنحة بعليل النسيم، او تطالع

(شراجب) القبب الخضر حيث تجلس الحـور العين. حتى تعـود متناثرة الى الارض فى شكل قطرات كما يتناثر العقد اذا انفرط.

ربما يقول قائل اننا نصف حمراء غرناطة، والامر ان كان كذلك فانه يتعلق بحمراوات عديدة فى فاس ومراكش والرباط والبيضاء وتطوان وغيرها من مدن المغرب. واذا كانت الحمراء وهى خاوية على عروشها تستهوى افئدة الزائرين من كل حدب وصوب، فان نظيراتها هذه تجلى للناظرين وهى مفروشة احسـن الفرش منجدة اجمـل التنجيـد ، بكللهـا وأروقتها وبسطها ولحفها وزرابيها المبثوثـة ، و (اسطرمياتهـا) المنعوتة و (الحائطيـات) خوخاتها من الديبـاج وشرفاتها مـن الاطلس، والوسائد مطـروزة بابدع الطرز، ومغشـاة بنسيج الدمقس، الى كل ما ينسجم مع هذه الاشيـاء من أرائـك ونضائد، وصينيات وموائد وأثاث رفيـع وماعون بديع، تقدم فيـه أفخر انواع الاطعمة، ويسقى منه بآنية اجمل آنيـة. فان الحضارة ايها السادة أعظم ما تظهر فى المطعـوم والمشروب، ولذا قـال بعض الحكماء «ارنى مطبخ اية امة، أحدثك عن حضارتها».

وماذا اقول عن هذه الاطعمة وقد خصها احد المؤلفين فى عصر الموحدين بكتاب احصى فيه أكثر من خمسمائة لون من ألوان الطعام والشـراب والحلوى والمربـى وما الى ذلك، مما كـان يعمل للخلفاء الموحدين والامراء منهم، ورجال دولتهم على العموم، ومنها ما يحمل اسم بعضهم لكونه كان يعجبه كثيرا، او لكونه من اقتراحه، ومنها ما يعرف باسمـه العلم، ومنها ما يعـرف بصفته، وكثير من هـذه

الاسماء لا يزال مستعملا عندنا الى الآن، والمهم ان من هذه الاطعمة ما ينسبه بعض الناس الى الاتراك،و يعتقدون انه مما اخذ عنهم اثناء حكمهم لجارتنا الجزائر فظهر بعد الوقوف على هذا الكتاب انه كان موجودا قبل ظهور امر الاتراك ووصولهم الى المغرب بكثير.

ولا يتم هذا الوصف بدون احضار جوق الطرب الاندلسى والاستماع الى نغمات هذه الموسيقى العربية الخالدة، التى وضع اصولها زرياب وسجل اغانيها الحائك، فهى لانسجامها زمانا ومكانا مع المظاهر الحضارية الموصوفة تعد عنصرا نفسيا من عناصر الحضارة المغربية. اما زمانا فلان قطعها الغنائية مقسمة بحسب ساعات الليل والنهار، فمنها ما يختص بالعشية، ومنها ما يختص بالصباح، وقل مثل ذلك فى بقية الاوقات، واما مكانا فلان من هذه القطع ما لو شئتم ان تتمثلوا انفسكم فى دار الخلد تصغون الى ألحانها العلوية، لامكنكم ذلك بالاستماع الى (نوبة) الاصبهان التى يقال انها من نغمات الجنة.

ما جنة الخلد الا فى دياركم
ولو تخيرت هذى كنت اختار

لا استرسل فى وصف هذه المباهج وهى انما تمثل الجانب المادى من حضارة بلغت القمة فى اصطناع العلم، واعتماد المعرفة حتى فى مجال الحكم والعمل السياسى، بحيث تحقق فى ظلها القول المأثور: «اذا حكم الفلاسفة وتفلسف الحكام سعدت الدنيا»، ألم يرعها يوسف بن عبد المومن وهو الخليفة الفيلسوف و يستوزر امثال ابن

طفيل وابن زهر وابن رشد وهم الفلاسفة الذين ملأوا سمع الدنيا وبصرها ؟ .

ولكن هذا مجال رحب، وللكلام فيه ذيل سحب، فلنكتف بالاشارة الى ما نحن بصدده من مباحث اللغة والنحو وتيسير الكتابة، وهى مجال عملنا فى هذا المجمع، لننظر كيف أسهم المغرب قديما فى خدمة العربية كما تخدمونها اليوم بموضوعية واختصاص ومنطق، اى بالطرق العلمية والاساليب المنهجية مستهدفا ما تستهدفونه من اصلاح الفاسد، وتقويم المعوج، مع اثراء اللغة وتسهيل مداركها للعموم.

فالابحاث التى حررها الامام السهيلى دفين مراكش فى تطور دلالة كثير من المفردات العربية خلال الزمن، واودعها كتابه القيم «الروض الانف» الذى طبعه ملك المغرب الاسبق مولاى عبد الحفيظ، هى مما لا يقل شأنا عن الابحاث التى يقوم بها المختصون فى هذا الشأن من علماء العصر. ومثلها ابحاث العلامة ابى القاسم الشريف فى شرحه لمقصورة حازم، الذى طبع بعناية احد الولاة المغاربة، وأما الكتاب الذى ألفه ابن هشام اللخمى فى الرد على الزبيدى وابن المكى فيما زعما انه من لحن العامة، فقد كان دراسة تحليلية للالفاظ واشتقاقاتها ونقضا لمآخذ هذين العالمين بالحجة والبرهان، وهو لا يزال مخطوطا ينتظر النشر العلمى الجدير به، ومثله كتاب العلامة إبن هانىء السبتى المسمى «انشاد الضوال وإرشاد السؤال فى لحن العامة» وامتازت تحقيقات ابن الطيب الشرقى بالعمق والاصالة

في كل ما كتبه من موضوعات لغوية شتى، ولا سيما حاشيته على القاموس المحيط التى استقى منها السيد امرتضى الزبيدى فى تاج العروس، وعول عليها وعلى مؤلفها اذ كان استاذه المعتمد فى علم اللغة تعويلا كاملا، وهى لا تزال مخطوطة ايضا.

ولون آخر من البحث اللغوى قريب من المعاجم العلمية التى التى تهتمون بوضعها الآن. وهو يتمثل فيما ألفه جماعة من أهل الاختصاص فى الطب على الخصوص من كتب لتعريف المفردات الطبية، وذكر مرادفاتها فى اليونانية والرومية، يعنون اللاتينية، وفى العامية المغربية والبربرية، وذلك كما فعل ابن الحشا فى كتابه «مفيد العلوم ومبيد الهموم» الذى فسر فيه الالفاظ الطبية الواقعة فى الكتاب المنصورى للرازى وهو مطبوع فى الرباط، وكما فعل ابو القاسم الوزير فى كتابه «حديقة الازهار» المعروف بمفردات الوزير وهو ما يزال مخطوطا، وكما فعل اخيرا السيد عبد السلام العلمى وهو ممن درس الطب بمصر فى اواخر القرن الماضى، فكتب رسالة «ضياء النبراس فى حل مفردات الانطاكى بعامية اهل فاس» وهو يعنى بالانطاكى الشيخ داوود صاحب التذكرة المعروفة فى الطب القديم... على انه ذكر اصطلاحات طبية حديثة، ومسائل اخرى مما يتعلق بعلم الكيمياء والتشريح وقعت فى كتاب «كنوز الصحة» من مؤلفات أوائل عصر النهضة.

وشرع فى كتاب آخر قال عنه فى طالعة هذه الرسالة «لما توجهت بالاذن الشريف لمصر القاهرة بقصد المزيد مما يخصنى من

علم الطب الجديد، ووجدته مطلسما باصطلاحات غامضة، واسماء غريبة، شرعت فى مؤلف خاص ببيان تلك الاصطلاحات كاشف لرموز تلك العبارات، وهو مؤلفنا المسمى «بالاسرار المحكمة، فى حل رموز الكتب الطبية المترجمة»، فلما رأى ذلك بعض المحبين ممن لا تمكننى مخالفته وعلم ان لابد لاتمام ذلك الكتاب من زمن طويل، طلب منى ان اقدم عليه كتابا مختصرا مفيدا، لمن كان للطب القديم مستفيدا» الخ. ورسالة ضياء النبراس هذه مطبوعة بفاس.

هذا فى ميدان العمل اللغوى البحت وفى النحو كانت محاولة الاستاذ ابى موسى الجزولى لتقنين هذا العلم فريدة من نوعها، وبقيت كراسته المسماة بالقانون وبالاعتماد ايضا، موضع الدراسات والتعاليق والشروح من نحاة القرن السادس الهجرى الى ما بعد. حتى قال فيها بعض ائمة العربية المشار اليه فى وقته كما حكاه عنه ابن خلكان «انا ما اعرف هذه المقدمة وما يلزم من كونى ما اعرفها ان لا اعرف النحو» وكان ابو موسى الجزولى من كبار النحاة فى عصره، ويحكى ان ابا على الشلوبين قصد مراكش وهو يدل بما يحويه من بضاعة نحوية عظيمة فدخل اليها من باب دكالة، ومر بمسجد هناك سمع فيه لغطا فدخله فاذا ابو موسى فى مجلسه، والطلبة ملتفون حوله، فدنا منه وانصت اليه، فعجب من تبحره وسعة اطلاعه وغوصه على الفوائد، وقال فى نفسه اذا كان هذا حال رجل منهم منعزل فى ناحية نائية، ومسجد صغير من البلد، فكيف يكون حال غيره ممن هو اكبر منه قدرا واعلى شأنا؟ ورجع من حيث اتى الى بلده وكان

بعد ذلك ممن شرح الكراسة الجزولية بشر حيـن كبير وصغير.
وما تزال الكراسة وشروحها لم تعرف طريق المطبعة.

ولقد شهد القرن السادس فى المغرب نشاطا كبيرا فى مجال الدراسات النحوية ولكنا لا نشير الا الى الاعمال الطريفة الرامية الى الاحياء والتجديد، ومن ذلك مشروع العلامة ابن مضاء لاصلاح النحو المضمن فى كتابه الرد على النحاة فانه يشتمل على اقتراحات عملية لتيسير قواعد الاعراب والتخفف من التعليلات المنطقية التى عقدت هذا العلم، وكان ابن مضاء يتولى منصب قاضى الجماعة فى مدينـة مراكش، وله صلة بالخليفة الموحدى يعقوب المنصور، فلاشك ان آراءه هذه كانت وليدة الحركة العلمية الشاملة، التى قامت فى ذلك العصر.

وتأدت فكرة اصلاح النحو وتيسير قواعد الاعراب الى العصر المرينى فظهر اول نحوى طبقها بالفعل فى كتاب تعليمى صغير طار صيته فى المشرق والمغرب وصار هو الكتاب المفضل فى الدراسة الاولية لعلم النحو عند العرب كافة، ذلك النحوى هو ابن آجروم، وكتابه هو مقدمة الآجرومية المعروفة، ان هذا الكتاب الصغير الحجم كان تجربة ناجحة لتبسيط النحـو العربى وجعلـه بمتناول الجميع لان صاحبه الذى كان نحويا متمكنا من مادته ومعلما مخلصاً لمهنته اختار له من المذاهب النحوية اوفقها، ونبذ المسائل النظرية مقتصرا على ما له نتيجة فى تركيب الجمل او نطقها، وفضلا عن انه لم يكن يتقيد بمدرسة البصرة، ولا بمدرسة الكوفـة، فانه كان يجتهد فـى بعض الاحيان، ويستقل بالرأى فمثلا الاعراب عنده امر معنوى كما

قال الكوفيون ولكنه قسمه الى اربعة اقسام فذكر الجزم كما عند البصريين، ولم يذكر فى التوابع عطف البيان اكتفاء عنه بالبدل وهى طريقة الكوفيين ، وطرد باب النواصب فجعلها كلها ناصبة بنفسها واستغنى عن تقدير ان المضمرة وجوبا او جوازا بعد هذه الاداة أو تلك كما هو مذهب الكوفيين فى بعضها، وهكذا لم يكن ابن أجروم متحجرا ولا جبانا ففكر فى الاصلاح واقدم عليه، وان يكن فى دائرة صغيرة. ولو ان المصنفين فى النحو بعده درجوا على مثلى طريقه لسهل النحو ودنت قطوفه للطالبين.

وانتقل ايها السادة الى الكلام على تيسير الكتابة العربية فلا ادعى انه كانت هناك محاولات من هذا القبيل، وانما احب ان اوجه نظركم الى دراسة الخط المغربى واشكاله المختلفة، من مسند ومجوهر ومبسوط، والاصل الكوفى الذى تفرع عنه، وهذا له هندسة خاصة يخالف بها الكوفى المشرقى الذى هو الاصل الاصيل، وابادر فأقول ليس المراد من هذه الدراسة الا الاستعانة بها على تيسير الكتابة العربية بما يمكن ان يقتبس من هذا الخط من بعض الخصائص كنقطة القاف الواحدة من فوق، بدل نقطتين فى مقابل نقطة الفاء الواحدة من تحت، واحيانا يستغنى عن نقطها بالمرة وكعطفة الياء بعد الكسرة فى مثل على، والعربى، والذى، منعا لالتباسها بياء الالف فى مثل على والمصطفى وبلى. وبعض الحركات المختصرة كالشدة المضمومة التى تمثل بصورة الرقم (٨) الهندى فوق الحرف المشدد المضموم، والشدة المفتوحة التى تمثل بصورة الرقم (٧) الهندى فوق الحرف

المشدد المفتوح والشدة المكسورة التى تمثل بصورة الرقم (٨) الهندى نحت الحرف المشدد المكسور، وغير ذلك من التسهيلات التى توخاها الخطاط المغربى ويمكن ان يستفاد منها فى تيسير كتابتنا العربية، بل وان يقرب بها ما بين الخطين المشرقى والمغربى .

وما دمت قد ذكرت الخط المغربى والارقام الهندية، فانى أشير الى الارقام المستعملة عندنا والمعروفة فى بلاد الغرب عموما بالارقام العربية. ان هذه الارقام تسمى عندنا فى كتب الحساب القديمة بالحرف الغبارى او حرف الغبار ويقال ان البابا سلفيسطرى الثانى هو الذى ادخلها الى اوربا واشاعها هناك حتى حلت محل الارقام الرومانية لسهولتها وضبطها، وكنا دائما نرى ان العرب اولى باستعمالها لانها منهم واليهم، ولان الارقام الاخرى المستعملة عندهم تنسب الى الهند، فالصواب ان يرجعوا الى ارقامهم التى اهدوها الى العالم المتمدن معتزين بها ومتوحدين فى الوقت مع شعوب هذا العالم على اننا لم نكن نحقق اصلها ومصدرها ولم نزل نتتبع تاريخها واقدم كتاب ذكرت فيه حتى وقفنا فى العام الماضى على كتاب تلقيح الافكار فى العمل بحروف الغبار للرياضى المغربى ابن الياسمين، وهو مخطوط محفوظ فى المكتبة العامة بالرباط فوجدناه يذكر ان حروف الغبار هذه لها شكلان احدهما هو هذا المستعمل فى المغرب (والمعروف عند الاوربيين بالارقام العربية) والثانى هو هذا المعروف بالارقام الهندية المستعمل فى بلاد المشرق، ورسم اشكالها على المعهود فيها، فتبين لنا ان كلا الرقمين عربى، وان المشرق اخذ شكلا

والمغرب اخذ شكلا، وهى حقيقة مدهشة لم نملك ان اطلعنا عليها جميع المهتمين بهذاا لبحث واحلناهم على الكتاب المذكور. وبما ان هذا المؤلف هو من اهل القرن السادس الهجرى، وانه يشير فى كتابه الى شدة تطلبه لهذه الارقام وضياعها منه اولا، ثم عثوره عليها ثانيا عند بعض اصدقائه، فان تاريخ ظهورها يكون هو هذا القرن بالذات .

سيدى الرئيس سادتى.

بعد هذا العرض الوجيز اسمحوا لى ان ارجع عودى على بدئى لاقول ان المغرب الذى هذا وزنه فى خدمة العلم واللغة العربية قديما والذى يحتوى على كنوز رائعة من حضارة عربية اصيلة سبق وصفها، اذا كان قد اصبح ممثلا فى مجمعكم الموقر فلن يكون حاضره أقل شأنا من ماضيه فى خدمة العربية والبر بها والغيرة عليها والتعاون معكم على مواصلة العمل الذى بدأتموه فى غيابه لاعلاء رايتها واعزاز جانبها والبلوغ بها الى اوج الرقى والكمال. علما منه بان حياة امتنا العربية وانبعاث حضارتها من جديد رهن بحياة لغتها ومجاراتها للنهضة العلمية الحديثة، ولانه وهو شعب مؤمن بعروبته اشد الايمان ومؤمن بالتطور كذلك، فان رجاله الغيارى وشبابه الابرار لن يهدأ لهم بال، ولن يقر لهم قرار، حتى يروا الكلمة العربية والحرف العربى وقد رد لهما اعتبارهما يغزوان كل مكان من الوطن العربى ويحلان فى المدرسة والمعمل والبيت محلها الذى لا ينازعهما فيه غيرهما، وهذا من عمل المجمع الذى يجب ان تتظافر عليه جهود

جميع الشعوب العربية حتى يتحقق الجلاء الاكبر جلاء الرطانة الاعجمية عن لساننا ، والفكرة الاجنبية عن ثقافتنا ، فنتحرر التحرر الكامل وتصبح القومية العربية حقيقة ثابتة يلتف حولها العرب اجمعون فى مشرق البلاد ومغربها. من الخليج الى المحيط، حيث يرابط اخوانكم المغاربة ابناء طارق بن زياد وادريس بن عبد الله ويوسف بن تاشفين، وعبد المؤمن بن على، وابى الحسن المرينى والمنصور الذهبى ومحمد الخامس .

هل يفقد الاثر الادبي قيمته باعادة نشــره ؟

قال لى هل قرأت قصيدة فـلان التى عارض بها نونية ابــن زيدون، والمنشورة فى العدد الاخير من المجلة؟ وكان يعنى مجلــة يشرف على تحريرها. فقلت له لقــد قرأتها منذ عشر سنوات فــى مجلته التى كان ينشرها بتطوان. فاجابنى كيف يرسل الينا شيئا سبق له نشره، فيورطنا مع القراء؟ فضحكت، وقلت له انت ايضا من اصحاب هذا الرأى الفائل؟ قال واى رأى؟ قلت هذا الذى عبرت عنه باستنكار وجعلته مما يوقع المجلة فى ورطة. فقال الا ترى انه مما لا يليق بمجلــة محترمة ان تعيــد نشر ما سبق ان نشر فــى مجلة أخرى؟

قلت ان ما لا يليق بمجلة محترمة هو ان تنشر التافه والغث من الانتاج الادبى او العلمى ان كان فى الانتاج التافه والغث ما يصح ان يوصف بانه ادبى او علمى. وان ما لا يليق بمجلة محترمة هو ان تنشر المقالات والابحاث التى ليس لاصحابها منها الا الهيكل العظمى المخيف، واما كل ما يزينها من افكار وآراء فانه مما سطوا عليه وتبنوه بغير خجل ولا حياء. وان ما لايليق بمجلــة محترمة هو ان تكــون صاحبة دعوة ورائدة فكرة، فتنشر ما لا يتفق ودعوتها، وما يروج

لغير فكرتها بدافع ملء الصفحات الفارغة، ولا تبالى ان تبدو امام الناس متناقضة مع نفسها، متهافتة ازاء مبادئها وغاياتها.

اما اعادة نشر الاثر الذى سبق نشره فى مجلة اخرى، فليست ابدا مما لا يليق بمجلة محترمة، ولا سيما اذا كان مقدما من طرف صاحبه الذى انشأه وله الحق فى اعادة نشره متى شاء واينما شاء.

ان المجلة التى تحرص على ان تكون محترمة، اول ما يجب عليها هو ان تحترم قراءها، وذلك بان يكون ما تقدمه اليهم من المواد طبقة عالية من الانتاج الذى ينمى ثقافتهم، ويربى ذوقهم، ويفتح اعينهم على آفاق من المعرفة والادب والفن لربما كانت محجوبة عنهم مجهولة لديهم. والاثر الذى خضع مرتين لامتحان الناشر والناشرين وجاز هذا الامتحان بنجاح لابد ان يكون فى الذروة من هذه الطبقة، فماذا على المجلة التى نشرته ثانيا، ولا سيما بعد مرور مدة كافية لجعل الذين قرأوه اولا يستفيدون من اعادة قراءته، بله الذين لم يقرأوه اطلاقا ؟

وقلت لصاحبى وها أنت فى سعة اطلاعك وعلى علاقتك الشخصية بصاحب القصيدة، قد فاتك ان تعرف قصيدته هذه حتى ارسلها اليك فقرأتها ورأيتها جديرة بالنشر، ومثلك كثير ممن لم يطلع عليها ولم يكن ليعرفها لو لم يكتب لها ان تنشر من جديد.

ان كثيرا من الصحف والمجلات تعيد نشر مقالات وابحاث وآثار أدبية عن زميلات لها لما ترى فيها من الفائدة والمتعة لقرائها، ويكون من الواجب الادبى عليها ان تنوه بالصحيفة او المجلة التى نقلت عنها،

فما هو الفرق بين ذلك وبين الاثـر الذى تعيد نشره معـززة باذن صاحبه ورغبته فى نشرها له حين يرسله اليها مباشرة وبدون واسطة؟

وتوجهت بهذا السؤال لصاحبى قائلا: من اين عرفنا انا وانت وكثير غيرنا هذه الآثار الادبية الكبرى للادباء المعاصرين، مثل قصيدة المعلم لشوقى وتائية اللغة العربية لحافظ وهى الحقيقة للزهاوى وما سواها لهم ولغيرهم من ادباء جيل النهضة العربية الحديثة؟ أليس من تداول نشرها وتناقل الصحف والمجلات لها فـى الشرق والغرب منـذ ان قالوها الى الآن، فضلا عن ظهورها فى دواوينهم والمنتخبات التى ألفت من اشعارهم والدراسات التى كتبت حولها؟

بل ما الذى حفظ لنا آثار الادباء السابقين من عصر الجاهلية الى عصرنا الحالى، سوى هذه المجموعات التى ألفها العلماء والرواة ولم يستنكف احد منهم ان يثبت من ذلك ما اثبته غيره، ولا ان يضـمن تأليفه القصيدة التى سبق ان تضمنها تأليف آخر، لما ان الآثر القيم يفرض نفسه على الجميع، ويرى الناس خلـو الكتاب منه نقصا فـى ذلك الكتـاب ؟

واذن فاعادة نشر الاثر قديما وحديثا هى وسيلة الاحتفاظ به وصونـه من الضياع، فضلا عـن كونها هى الكفيلـة باذاعته اولا وسيرورته بين الناس، فالمجلة التى تقوم بهذا العمل انما تسهم فـى نشر المعرفة وكفالة الانتاج الادبى، وهى بذلك اجدر بالاحترام وان ينظر اليها بالعين التى كـان ينظر بها الى اولئك الاعـلام من رواة الادب ومؤلفيه .

وننظر الى كاتب الاثر الادبى، فنجده قد تكبد مشقة التفكير فيه اولا، ثم مشقة اخراجه الى حيز الوجـود، وربما كان عليـه ان يراجع ويقارن ويحقق، خصوصا اذا كان الاثر بحثا علميا او دراسة ادبية، وياتى بعد ذلك تعب نقلـه او نسخه على الآلة الكاتبـة، وقد يدفع اجرة ذلك اذا كان لا يحسنه.. فاذا بعث به الى احدى الصحف او المجلات ونشر فى حدود دائرة الصحيفة او المجلة، اصبح حقه فيه منتهيا ونحبه مقضيا، على رأى أصحاب النشرة «المحترمة» التى ربما لم تدفع له شيئا بدل اتعابه او دفعت له النزر اليسير الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع.. فاذا رأى ان الاثر لم يكن له الصدى المطلـوب لضيق دائرة النشر، او انه نشر مشوها بسبب تصرف هيئة تحرير المجلة او الصحيفة التى نشر فيها او عدم تصحيحه، وبدا له ان يعيد فيه النظر ويحور منه بالزيادة او النقصان وتغيير العنوان الذى قد يكون مفتاتا عليه فيه، ثم بعثه الى صحيفة او مجلة أخرى فرضيتـه ونشرته، قامت قيامة بعض الفضوليين وكتبوا ناعين عليه عمله هذا ومعتبرين انه ارتكب احدى الفظائع.

ولماذا؟ أليس هو انتاجه الخاص، ومن حقـه ان ينشره وحتـى ان يستفيد منه كلما وجد لذلك سبيلا؟ وما رأى هؤلاء السادة فيما لو اخرج الكاتب اثره هذا فى كتاب او دفتر، وما الفرق بين ذلك وبين اخراجه ثانيا فى نشرة عمومية؟

وهؤلاء الفنانون من ممثلين وموسيقيين ومغنين لماذا كان لهـم الحق فى عرض اعمالهم الفنية علينا مكررة معادة فى كل وقت وحين

من غير ان ينكر عليهم احد ويستهجن عملهم انسان، مع العلم بانهم يستفيدون اضعاف ما يستفيده الاديب، وان حقوقهم محفوظة لهم كلما عرضت اعمالهم واذيع انتاجهم باى وسيلة وفى اى زمان ومكان؟

ولقد يكون من هذا الانتاج ما يغثى، وما يعمى ويصم، ومع ذلك فانه مفروض عليك ان تسمعه او ان تسمعه وتراه كلما ادرت مفتاح مذياعك او تلفازك، تريد ان تتسلى وتنعم بسويعة هنيئة فى جو فنى ساحر، فاذا بالانغام الناشزة والحركات البهلوانية تثيرك وتزعجك، وليس لك بد من ان تنتظر انكشاف الغمة وانجلاء الغاشية لما يحتمل ان ياتى به البرنامج من حسنات يذهبن تلك السيئات.. وهذا فى حين ان الكاتب لا يفرض عليك نفسه، لانك حر فى قراءته او عدمها، وسهل عليك جدا ان تتخطاه الى غيره، وتتصفح المجلة فتقرأ ما شئت وما يروق لك من مقال او بحث او قصة او شعر، وتترك الاثر المعاد نشره لمن لم يقرأه من قبل، على انك هنا لم تعب الاديب لادبه وانما تعيبه لاعادة نشر هذا الادب، ونحن نعيب الفنان المزعوم، ذلك الذى يفرض نفسه علينا بمعاداته ومكرراته الممجوجة، بتفاهة عمله وضحالته، بتسوره على حرم الفن وتشبعه بما لم يعط، فبين النظرين فرق واضح.

وبعد فانا طبعا لا اقول بان المجلة او الصحيفة لا يكون لها رصيد الا من هذه الآثار التى سبق نشرها فى غيرها، فالمجلة او الصحيفة من هذا القبيل لا اعتبار لها عند احد وما هى الا كناش «كوبيا» مما يستعمله التجار واصحاب الشركات لحفظ نسخ من مراسلاتهم

واوراق حساباتهم. والذى اعنيه هو ان الاثر الادبى الذى يعاد نشره ولو اكثر من مرة لا يفقد قيمته بذلك. وان المجلة «المحترمة» ما نشرته حتى قدرت قيمته، ولا غضاضة عليها بذلك ولا يحق لها ان تتذمر من الاديب الذى بعث لها به ما دام له قيمة، ولو دفعت له بدلا، فكيف ان لم تدفع شيئا. وكفى بعدم علمها هى ومحرروها بسبق نشره شهادة على جدته وفائدته .

لسان الدين ابن الخطيب :
الكاتب الساخر

تكلم الناس عن لسان الدين ابن الخطيب وزير غرناطة ، واديب الاندلس الكبير بما لا مزيد عليه، فمنهم من خص ناحية من نواحي شخصيته المتعددة، ومنهم من عم كالحافظ المقرى صاحب نفح الطيب الذى هو من اكبر الكتب المعروفة التى وضعت فى ترجمة شخص معين، وعلى كثرة ما تناول الباحثون هذه الشخصية الفذة وادبها الخصب بالدرس والتحليل، فان عنصرا اصيلا فى ادب لسان الدين لم يلفت نظر احد من الباحثين وكان حريا ان يحظى باهتمامهم هو عنصر السخرية فى كتابته.

والادب العربى ان كان يحفل بصور ونماذج بديعة جدا من السخرية فى هذا الشعر الذى نسميه شعر الهجاء من لدن العصر الجاهلى الى العصر الحديث. فانه فى النثر يقل ان يتخذ اسلوب الفكاهة وسيلة للتعبير وهو ادنى مراتب الادب الساخر ولذلك بقيت رسالة التربيع والتدوير للجاحظ والرسالة الهزلية لابن زيدون علمين فى هذا الباب فى الادب العربى كله.

وقد ظهر فى العصر الحديث كتاب نزعوا فى اعمالهم الادبية الى الطريقة الهزليـة كالمويلحي والبشرى والمازنى ولكـن الانصاف يقتضينا ان نحكم بان الجاحظ ما يزال امام هذه الطريقة، وبذلك نعلم ان ادبنا العربى فقير فى هذا الفن وان سمته الغالبة عليه هى الجدية التى تبلغ احيانا الى حد التزمت ولا ادل على ذلك من ان آثار لسان الدين ابن الخطيب التى تكتسى صبغة الهزل لم تكـن من الآثار التى عنى بها المترجمون له والتى ظفرت بتنويههم، مجـاراة للتيار العـام الذى ابتعد بالاعمال الادبية عن معانى اللهو والتسلية.

ان الحياة ذات وجهين، وجه متجهم عابس باسر، ووجه طلق ضاحك مستبشر. ولتصويرها وحكايتها على الاقل يجب ان يكـون الادب معبرا عن الحالتين ومتلمحا لكلا الوجهين، كيف وان ما تطالعنا به يوميا من مآس، وما تغرقنا فيه من احـزان، يدعونا الى ان نقـاوم جدها بالهزل وان نغمر افراحها واتراحها باسباب المرح والحبور؟ ولقد ادرك اليونان ثم الرومان هذه الحقيقة فمثلوا الحياة بمآسيها ومهازلها فى ادب حى لم يفتأ الغربيون فى نهضتهم الحديثـة ان نسجوا علـى منواله فبلغوا به قمة الابداع الفنى ولم يغفلوا قط عن ان يراوحوا فيه بين الجد والهزل والمأساة والملهاة ويعادلـوا بين الكفتيـن ان لم يرجحوا الثانية على الاولى. وذلك ما يشعر بـه تقسيمهم الروايـة التمثيلية الى الدرام والميلودرام والكوميدى.

ونحن امام ما يتطلبه منا ادبنا الحديث، من ملافاة هذا النقص، نشعر بمزيد من الغبطة والسرور حينما نعثر على اثر ادبى من هـذا

القبيل لا سيما ان كان من صنع علم من اعلام الادب كصاحبنا لسان الدين، فان ذلك مما يجعله فى نهاية الجودة ويضمن له الخلود.

ولسان الدين، الذى يلقب بذى الوزارتين، هو كما نعلم رجل الحكم والسياسة والادارة فى دولة الاندلس المتداعية. كان بمثابة الوزير الاول او رئيس الحكومة فى الدول العصرية بل كان اكثر من ذلك، الشخص الوحيد الذى يشرف على تصريف شؤون الدولة المدنية والعسكرية فى مملكة غرناطة فى القرن الثامن الهجرى «الرابع عشر الميلادى» اى فى الوقت الذى كانت دولة العرب فى الاندلس تترنح للسقوط. فكيف تأتى له امام مشاغله العديدة والمشاكل المعقدة التى تواجهه كل يوم، ان يفرغ للادب، وللادب الساخر بالخصوص؟

والجواب ان لسان الدين هو احدى معجزات الدهر، فان اعماله الادبية بلغت من الكثرة والجودة ما لو قسم على ايام حياته لزاد عليها، والسر فى ذلك انه كان مبتلى بالارق، فبعد ان يطوى صفحة النهار فى تدبير امور الدولة ينشر صفحة الليل للانتاج الادبى، ومن ثم لقب بذى العمرين ايضا. ولكن هذا ان فسر سبب اقباله على الادب ووفرة تصانيفه، فانه لا يفسر علة نزوعه الى السخرية واخذه بها نفسه فى بعض كتاباته الادبية، بل هو حرى ان يكون صارفا له عن كل ما هو من عبث الحياة ولهوها بسبيل. فان الارق داء ولاتسلية مع الداء. غير ان من عرف طبيعة الحياة اللاهية فى الاندلس، وما لاهلها من قدرة على اغراق احزانهم فى بحر من المرح والسرور، لا يستغرب ان يقابل لسان الدين حياة البلاط الجادة بوجه متهلل بشوش وان

يمزح والبساط ابعد ما يكون عن المزاح. ويضحك في حين انه احق بالبكاء. انها في الحقيقة فلسفة من اكتنه باطن الحياة واستكشف سرها فاستوى عنده البؤس والنعيم والوجد والفقد والاقبال والادبار، فلم يحزن؟ وعلام ييأس؟ أليس خيرا له ان يهزل ويسخر؟

واذن فان لسان الدين كان يستمد عنصر السخرية في كتابته من طبيعته الاندلسية المغراة بالنكتة والفكاهة والتي لا تحتمل الحياة على انها جد كلها فتسوغها بالبسط والانشراح، ولكن الذي ينبغي ان نرده الى هذه الطبيعة من آثاره الادبية هو ما تتجلى فيه روح الدعابة والنكتة البريئة البعيدة من الاذى والايلام، فانه الذي يمثل مرح الاندلسيين ولطف شمائلهم، وهو جانب من ادب لسان الدين الساخر. يملك على القارئ لبه بما فيه من متعة النفس والقلب والتسرية عنهما. وهناك جانب آخر من هذا الادب غلبت عليه صفة الهزء والهمز واللمز، فتجسمت فيه السخرية بمعناها الكامل، ولم يقف عند حد من التنقيص والتحقير، فبادئ تأمل. يحكم الناقد انه صادر عن روح التشفي والانتقام وحالة الغضب التي سيطرت على الكاتب فلم يملك معها زمام نفسه حتى قال ما قال.

وهذا اللون من ادبه الساخر كل السخرية، هو اكثر من اللون الآخر الذي انما يميل الى الدعابة والنكتة البريئة. ذلك ان الدوافع اليه كانت كثيرة، فالرجل في منصبه وجاهه وفضائله، مني بحسد الحاسدين ودس الدساسين، وحينما كان في اقبال من دولته، كان الناس يتهافتون على القرب منه والتودد اليه، فلما تنكر له الدهر

اعرضوا عنه وائتمروا به، وكان اشدهم سعيا في ذلك من يعدون من صنائعه وغرس نعمته، ثم رمت به الاقدار الى حيث جهل قدره وعومل معاملة سيئة. فكان ذلك مما آثار ثائرتــه واشعل نار غيظه فجــرى قلمه بما ذب به عن عرضه وانتقم لنفسه من خصوم لم يكونوا شرفاء.

وهكذا نجد له فى هذا الصدد تآليف قائمة بذاتها مثل كتاب خلع الرسن فى التعريف باحوال ابن الحسن وكتاب مثلى الطريقة فى ذم الوثيقة ورسالة المفاضلة بين مقالة وسلا، فضلا عن ترجمة القاضى ابن الحسن فى الكتيبة الكامنة وترجمة ابن زمرك فيها ايضا وغيــر ذلك، فى حين اننا لا نجد له الا موضوعات قليلة نحى فيها منحى اللهو البرىء والمزاح الخفيف، على ان من تآليفه ما يجمع بين الخطتين كمعيار الاختيار بين المعاهد والديار، فانه فيه يجرح ويأسو، ويلين ويقسو بحسب المقامات وما تمليه عليه نزعاته النفسية.

وابن الحسن الذى ألف فيه كتاب خلع الرسن هو القاضى ابو الحسن بن عبد الله النباهى المالقى، قاضى غرناطة الذى ابدأ واعاد فى التحريض على لسان الدين واقامــة الحجج والبينات على كفــره وزندقته توصلا لاستحلال دمه وازهاق روحه لما خانته دولته ولجأ الى المغرب فارا بنفسه من غضب السلطان وانتقامه، وذلك بعد ما كان من خاصة اودائه وخلاصة اصدقائـه، ولقد هم بالقدوم الــى المغرب لاقامة دعوى الالحاد عليه لولا ان الدولة فى المغرب حمــت نزيلها وردت كيد اعدائه فى نحورهم قائلة لماذا لم تقوموا بهذه الحملة عليه لما كان بين ظهرانيكم فخسئوا وذلوا. وكان من النتائج الطبيعية

لهذا الموقف المخزى من القاضى ابن الحسن ان يؤلف لسان الدين كتابه خلع الرسن فى بيان مساوى هـذا القاضى ويرفعه للسلطان ابى فارس المرينى ملك المغرب الذى حماه ودفع عنه.

ويقول ابن الخطيب فى كتابه هذا: «انه لا شىء فوقه فى الظرف والاستطراف يسلى الثكالى ونستغفر الله تعالى» .

اما كتاب مثلى الطريقة فكان الذى دعاه لوضعه هو سوء تفاهم وقع له مع بعض الافاضل المتعاطين لصناعة التوثيق، وكان هو بحالة من الغربة وادبار الدولة جعلته يتوجس من كل قول وعمل يواجه به، اهانة له واستخفافا بقدره، فكتب هذه الرسالة فى ذم الوثيقة والموثقين والتشهير بهم والتشنيع عليهم، وما كان ذنب صاحبه الا انه لم يجب دعوة له مع الاعتذار عن ذلك.

ومن هذا الباب ايضا مقامته فى المفاضلة بين مدينتى مالقـة وسلا. ان سلا كانت مهوى فؤاد لسان الدين فى هجرته الى المغرب ومحل اقامته فى تلك المدة معززا مكرما من اهلها ومن السلطان، فما حدا به الى الزرايـة عليها بذلك الشكل الـذى ضمنه تلك المقامـة الاهاجس من هواجس الحالة النفسية القلقة التى كـان عليها كاتبنا اذ ذاك .

والقول فى ابن زمرك وما ترجم له به فى الكتيبة الكامنة هو مثل القول فى القاضى ابن الحسن. فقد كان هذا الاديب من تلامذة لسان الدين وممن درج بين يديه فى مناصب الدولة، وهو يعتبر فى الحقيقة ربيب نعمته، لكنه لم يحفظ له عهدا ولا ودا ولا راعى فيه

الا ولا ذمة. وكان هو العامل الاساسى فى نكبته وقدم بنفسه الـى فاس لما خلا الجو لخصوم ابن الخطيب فلم يقصر فى انتقاصه وامتحانه ولم يرجع الى الاندلس حتى قتل رحمه الله. فلسان الدين انما كان ينفس عن موجدته بما كتب فى حق خلفه على وزارة غرناطة الذى لم يقنع بان يرثه فى مجده ومنصبه بل سعى فى اتلاف نفسه ومضايقته فى منفاه البعيد .

ونحن فى هذا البحث القصير لا نستطيع ان نستوعب كل ما كتبه لسان الدين على هذا النحو من ادب ساخر، ولا حتى ان نلم به إلماما خفيفـا، ولذلك فاننا سنقتصر عـلى ايراد نموذجيـن منه فقط احدهما مما سلك فيه مسلك الدعابة والاحماض، والثانى مما ضرب فيه على وتر السخرية اللاذعـة والتعريض الفاضح، وهما نموذجان كافيان فى نظرنا لابراز هذا العنصر الفنى من كتابـة ابن الخطيب ولفت انظار الباحثين اليه، ولا سيما مؤرخى الادب منهم.

فالنموذج الاول رسالة كتبها الى الشيخ أبى عبد الله محمد بن على العبدرى المالقى المعروف باليتيم من اهـل مالقة، وكان من اهـل العلم والفضل والدين والادب. احتـرف التوثيق والتكتيب، وكـان يَقرىء الحَديث والتفسير وكتب الرقائق للعامة بابدع نغمة، دام على ذلك اكثر من ثلاثين سنة. وجاء فى رسالة ابن الخطيب اليه مما يتعلق بحرفة التكتيب قوله، نقلا عن الجزء الثامن من كتـاب الاحاطة لـه، مخطوط الاسكوريال :

«وتعرفت ما كان من مراجعة سيدى لحرفة التكتيب والتعليم.

والحنين الى العهد القديم، فسررت باستقامة حاله، وفضل مآله، وان لاحظ الملاحظ ما قال الجاحظ ، فاعتراض لا يرد ، وقياس لا يطرد حبذا والله عيش أهل التأديب، فلا بالضنك ولا بالجديب، معاهدة الاحسان، ومشاهدة الصور الحسان، يمينا ان المعلمين، لسادة المسلمين، وانى لانظر منهم كلما خطرت على المكاتب، امراء فوق المراتب، من كل مسبطر الدرة، متقطب الاسرة، متنمر للوإرد تنمر الهرة، يغدو الى مكتبه، كالامير فى موكبه، حتى اذا استقل فى فرشه، واستولى على عرشه، وترنم بتلاوة قالونه وورشه(I) اظهر للخلق احتقارا، وازرى بالجبال وقارا، ورفعت اليه الخصوم، ووقف بين يديه الظالم والمظلوم، فتقول كسرى فى ايوانه، والرشيد فى زمانه، والحجاج بين اعوانه، فاذا استولى على البدر السرار، وتبين للشهر الفرار، تحرك الى الخرج، تحرك القرد الى الفرج(2).

استغفر الله مما يشق على سيدى سماعه، وتشمئز من ذكره طباعه، شيم اللسان، خلط الاساءة بالاحسان، والغفلة من صفات الانسان، فاى عيش كهذا العيش، وكيف حال امير هذا الجيش، طاعة معروفة، ووجوه اليه مصروفة، فان اشار بالانصات، لتحقيق القصات، فكانما طمس الافواه، ولاءم بين الشفاه، وان امر بالافصاح، وتلاوة

I) قالون وورش. هما راويا نافع المدنى احد القراء السبعة الذى يأخذ اهل المغرب بقراءته.

2) هو من قولهم فى المثل: ازنى من قرد ويراد به رجل يسمى قرد بن معاوية.

الالواح، علا الضجيج والعجيج، وحف به كما حف بالبيت الحجيج، وكم بين ذلك من رشوة تدس، وغمزة لا تحسن، ووعد يستنجز، وحاجة تعجل وتحفز.

هنأ الله سيدى ما خوله، وانساه بطيب آخره اوله، وقد بعثت بدعابتى هذه مع اجلال قدره، والثقة بسعة صدره، فليتلقها بيمينه، ويفسح لها فى المرتبة بينه وبين خدينه، ويفرغ لمراجعتها وقتا من اوقاته بمقتضى دينه، وفضل يقينه، والسلام.»

ان فى هذا النموذج الطريف من مداعبة لسان الدين الحلوة، ومباسطته لصديقه المكتب، لفنونا من البلاغة وضروبا من البيان تجعله من ارقى النماذج الكتابية على الطريقة الهزلية. وهو مما تبدو فيه نفس الكاتب على سجيتها، فلا حقد ولا موجدة، الا الاحماض ومفاكهة المخاطب، وقضية التندر بالمعلمين شهيرة، وما للجاحظ فيهم من مقال وما يحكيه عنهم من مغربات الاخبار، هو مما لم يفت صاحبنا لسان الدين، الا انه استثنى صديقه من ذلك وجعل الاعتراض عليه بامرهم غير وارد، والقياس بالنسبة اليه غير مطرد، وفى ذلك من المجاملة لهذا الصديق ما لا يخفى ثم اتى بفقرات فى منتهى الحسن يقرظ بها المعلمين ويطرى احوالهم: «حبذا والله عيش اهل التأديب، فلا بالضنك ولا بالجديب، معاهدة الاحسان ومشاهدة الصور الحسان، يمينا ان المعلمين، لسادة المسلمين». وهذه العبارة الاخيرة اشبه ما تكون بقول شوقى فى التنويه بشأن رجال التعليم:

قف للمعلم وَفِّهِ التبجيلا   كاد المعلم ان يكون رسولا

ان ابن الخطيب سبق شوقي الى الاعتراف بجميل هذه الطائفة من الناس بعدة قرون وفي الوقت الذى كان جل أهل الادب يزرون عليهم ويجعلون رأى الجاحظ فيهم هو الحكم الفاصل. لكن هذا المدح البالغ لم يمنع الكاتب من ان يعقب عليه بوصف بارع لحياة الكتاب والمكتب والاطفال، فيه جد، وفيه هزل، وجده اعجب من هزله، فهو تارة حقيقة ابدع من الخيال، وتارة مشاهد ولقطات اضيف اليها من سحر الكلمة وسر الحرف ما ابرز جمالها وحيويتها بشكل آسر واخاذ. وأعد ان شئت قراءة قوله: واني لانظر منهم كلما خطرت على المكاتب الخ. وقوله: وكيف حال امير هذا الجيش الخ. ولعل من الانصاف القول بان السجع هنا قد زاد الوصف رونقا وجمالا، لانسجامه وعدم تكلفه. والسجعة الوحيدة التي دعا اليها الاحماض وبدت كأنها نابية عن الذوق، قد اعتذر عنها الكاتب بعدة سجعات.

وقد اخترنا هذا النموذج من بين نظائر له، كهذه الرسالة التي يخاطب بها احد اصدقائه حين ولي الحسبة قائلا فيها: «اهنيك، ببلوغ تمنيك، واحذرك من طمع نفس بالغرور تمنيك». الخ. وهذا الوصف الذى عرف به احد الولاة، «رجل غليظ الحاشية، معدود في جنس السائمة والماشية، تليت على العمال به سورة الغاشية» الخ. لانه تميز دونها بلطف المأخذ وسلامة القصد فلم يقع فيه تجريح ولا تهزيء وسلم بذلك لغرض المباسطة والفكاهة.

واما النموذج الثاني وهو مما ذهب طرفا في السخرية ولم يقف عند حد من التهكم فقد رأينا ان يكون هذه الترجمة التي كتبها ابن

الخطيب فى الكتيبة الكامنة للقاضى النباهى وهى منقولة من مخطوطة خاصة لهذا الكتاب :

«القاضى على بن عبد الله بن الحسن النباهى البنى المدعو بجعسوس(I)..اطروفة الزمن، التى تجل غرائبها عن الثمن، وقرد شارف من قرود اليمن، ذنبا واحداقا، وفروة واشداقا، واشارة واصطلاحا، وخبثا وسلاحا، لا فرق بينهما فى الشكل، وقرب الغائط من الاكل، تشغل به الصبيان اذا بكت، وتتملح بذكره الزهاد بعد ما نسكت، وعن كل شيء امسكت، الا ان خلقه بالنسبة الى هذا الخلق، والوجه الطلق، حسنة جميلة، واوصاف لومه، بالنسبة الى معارفه وعلومه، اوصاف ابن قاضى ميلة(I) عند ذكر الآداب المستميلة، ومثله ولا مثل له، لمن نفض الوجود وتخلله، لا يجلب لادب يرسم، ولا حظ من حسن الذكر يقسم ولا لظرف يتنسم، ولا لبركة تتوسم، انما جنب حماره فى القياد، لحمل اوزار هذه الجياد، واطرف بزرافته الخارقة حجاب الاعتياد، فى مثل هذه المواسم الادبية والاعياد(2) ومما يعاب به الزين، كيلا تصيبه العين، ويعلو على البيوت تميمة، وان كانت الاوضاع ذميمة، من حوته، ورصاصة منحوته، ومرارة ثور،

I) الجعسوس فى اللغة: القميء الدميم.

I) ابو عبد الله بن قاضى ميلة من ادباء الجزائر، معروف برقة الشعر.

2) كانت العادة فى المغرب استعراض الحيوانات الغريبة كالزرافة فى الاعياد، ولهذا يشير ابن الخطيب.

وطرف ذنــب سنور(3)، واحماضا فى المرعــى الخصيب ، وايثــارا للفكاهة بنصيب، وكان لابيه ببلده درجة الامير، من مولدى الحمير، ينظف بيده ارحامها، بعد ان يحكم بالدهن اقحامها، ويستنطق بوحى بنانه الصابئة الجاحدة، وينزى العير الحصور فيحبل الاتان بواحدة، وكانت امه ام جعسوس قابلة ذلك الوضع، ومقدرة الفطام والرضع، تولول عند الخلاص، وتعوذ المولود بسورة الاخلاص، وتقطع ســرة اليعفور(4) بالاظفور، وتلعق عينه باللسان، وتبارك بعد طهوزه بِدُهْن البلسان(5) ولما ترعرع ترعرع غصن السدر، من تحت القدر، وتخلت محاسن نفسه النفيسة من خــلال ذلك الخدر ، تحرف ببيــع الحروز(6) وحلق(7) فى محافل البروز، وتحــدى باخراج الكنــوز،

---

3) عدد ابن الخطيب الاشياء التى يستظهر بها لدفع العين، ولعل ذلك مما كان شائعا بين العامة فى الاندلس. اما فى المغرب فاكثر هذه الاشياء لا تستعمل فى هذا الغرض.

4) اليعفور: الغزال وربما اطلق على الحمار، فقد كان للنبى (ص) حمار يسمى اليعفور .

5) دهن عطر الرائحــة يستخرج مــن زهر شجر يحمــل هذا الاسم .

6) جمع حرز وهو ما يعلق على الصبيان والمرضى للحفظ والاشتشفــاء .

7) يعنى عقد حلقة فى الاسواق للعموم وهو ما يفعله اهل التهريج والشعوذة.

بذبائح العنوز(8) وادعى انه يعقد اللسان، ويكيف الانسان، وغرم الاوتاه التى يغرمها بنو ساسان(9) ثم تعرف الى السلطان فى حكاية، وقدمه قاضيا فى سبيل يمين شاردة ونكاية(I)، وجعله للفقهاء ببلده عقابا، وارذالا اخضع به رقابا، وكشف عن وجه الانتقام نقابا، لما آسفوه بحب طلعه، وافتوا من بعد قلعه، بوجوب خلعه، ثم اعاده الله الى ملكة رقابهم، وحكمه فى مجازاة احتقابهم والدنيا قد ارملت، وما حملت من الضيم حملت، فجاءت سيره فى الاحكام، سمر الندام، ونقل اولى المدام، وشاهد خسة الدنيا على مملك الاقدام والموجد بعد الاعدام.

حدث من يوثق به من العدول قال جرى بين يديه الحديث الشهير الجارى بمجلس القضاء «البيعان بالخيار ما لم يفترقا» فقال لى سبحان الله يا فقيه. كانوا فى القديم مثلنا فى البادية يتبايعون بالخيار والفواكه كما نتبايع بالحبوب من القمح والشعير. فضحكت وقلت لا ينكر ان يتصارف الناس بما يغلب عندهم اتخاذه ويكثر وجوده، وقال آخر منهم نظر الينا وقد نزلنا من المأذنة عن ارتقاب

---

8) من عادة السحرة والمشعوذين الذبح على الاماكن المخوفة ومظان استخراج الكنوز ويشترطون فى الذبيحة ان تكون عنزا.

9) بنو ساسان كناية عن الشحاذين ويظهر انهم كانوا يؤدون غرامة للدولة وهذا من ابن الخطيب اغراق فى التشهير بصاحبه.

I) يعنى ان السلطان ولاه القضاء ليمين فرطت منه فى تولية اخس الناس نكاية بالعلماء والقضاة الذين سبق ان حكموا بعزله وافتوا بخلعه.

بعض الاهلة ونحن اولو عدد وشارة، فاعجبناه، فقال يا اصحاب! عذرت الليلة فيكم عمر (ض) فى قوله: لا يسر احد فى الاسلام بغير العدول. فقلنا بارك الله فى سيدنا القاضى! تسر بنا ونسر بك ان شاء الله. قال المخبر: نعنى مجرورا برجلك عن مجلس القضاء الى مصب الرحضاء. ثم قال بعضنا لبعض: يا ترى ما الذى اراد هذا المحروم؟ فقال فاضل منهم: صحف قول عمر بن الخطاب (ض) لا يؤسر احد فى الاسلام بغير العدول، يريد الاسر بالشهادة. وقال بعض فضلائهم: سمعته يقول: تنكرون على ما يكثر ترده فى كلامي من لفظ جعسوس كأنه ليس من كلام العرب، بل ولا من لفظ القرآن فقلنا له اما فى كلام العرب فربما واما فى القرآن فلا نعرفه! فضحك وقال: سبحان الله! اعيدوا النظر. فقلنا والله ما نعرفه! فقال: ألم يقل الله فى القرآن: ولا تجعسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا. فقلنا والله ما قال الله ذلك قط، انما قال تجسسوا. قال فاسترجع، وقال يا فقيه حفظ الصغر، وقد ألف من مثل هذا جزء وسمى بتنبيه الساهي على طرف لنباهي. وهذا الشيخ ممن زين له سوء قوله وحبب اليه شم خرءه واستعذاب بوله، فيكتب ويشعر، ويكلب ويسعر، وهو لا يفطن بالهزء به ولا يشعر، فمما ينسب اليه مما كان يهذر به على الحروز اذا عقدها، واتبع النفث عقدها، يرفع بها الصوت ويجهر، ويؤتب من يتشاغل عنه بالحديث ويبهر، وكان به مخيلا وعلى الجنس من النوارية(I) بخيلا، الى ان شورك فيه بحكم الانجرار، وحفظ لكثرة

I) يريد بهذا الجنس من النور الموجودين بكثرة فى الاندلس الى اليوم.

التكرار. قوله ،وهو اشف من معتاده واعلى من عتاده، فالله اعلم بصحة اسناده، وجهة استناده:

اعوذ مــن امسى عليــه معلقـا حجابى بطه او بياسين والخمس
من الجن والعمار(I) اوام ملـدم وتلكهى الحمىووسوسةالنفس»

الــخ .

لعلنا فى غير حاجــة الى الاشارة لما فى هــذا النموذج مــن سخريــة جارحة وتهزيىء فاضح، ومـا ارتكب ابن الخطيــب فيه من اساليب القول للنيل من هذا الرجل، فمن تشويه لخلقته اشبه ما يكون بهذا الفن الذى يدعى «الكاريكاتور» الى ذم لاخلاقه والتشكيك فى كفاءته العلمية، الى نبش عن الماضى بما فيه من اصل وفصل، الى ذكر علاقات الرجل بمن الى نظره من شهود العدل وكيف ولــى منصبه الخطير وما كان فــى ذلك من ازراء على اهــل العلم والفضل ببلده، الى غير ذلك من ضروب الاهانة والتحقير مما يلوح جليا لكل ذى عينين، ولولا اننا نعلم الباعث على ذلك من الخصومة الحادة التــى كانت بين الرجلين، ونعلم كذلك ما كتب ابن الخطيب عن خصمه فى كتاب الاحاطة قبل ان يفسد ما بينهما من ترجمة حافلة بذكر فضله ونبله، لداخلنا ريب فى هوية الرجل وتفاهة شخصيته، ولكنا بصدد ابراز هذا اللون من كتابة صاحبنا وتفننه فيه، فلا يهمنا من تقوله على خصمه وطعنه فيه الا طريقة ذلك التقول واسلـوب الاداء الذى

I) العمار يراد بهم الحيات وما اليها من الحشرات المؤذية التى تسكن البيوت وتختفى فى مخابئها واما ام ملدم فقد فسرها بعد.

تمثل فيه قول ابن الرومى اصدق تمثيل :

فى زخرف القول تزيين لباطله	والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول هذ مجاج النحل تمدحه	وان ذممت فقل خرء الزنابير
مدح وذم وذات الشىء واحدة	ان البيان يرى الظلماء كالنور

حقا انه البيان والاقتدار والتصرف فى وجوه الكلام وملكة التعبير التى اوتى منها لسان الدين حظا كبيرا، هى التى فتقت لسانه واطلقت قلمه بهذه الحمم النارية والكلم الجهنمية، ومكنته من الباسها ثوب الهزء والسخرية، بحيث يظنها الظان هزلا وهى جد الجد، ويحملها القارىء والسامع على ارادة المزح. فتأبى الا ان تعبر عن سوء القصد، ومن ذلك يعلم ان هذا الفن من القول لا يحسنه الا ائمة البيان واعلام البلغاء، ناهيك اننا لا نعد منهم الا قلة من كتابنا الكبار كالجاحظ وابن زيدون وصاحبنا لسان الدين.

ويلوح لنا فى الفرق بين الجاحظ ولسان الدين ان الاول اوسع افقا وابعد مرمى لانه يتناول معانيه من تراث العربية العام فى حين ان الثانى يغلب عليه الطابع الاقليمى فيتناول معانيه من الصعيد المحلى، وان كان لا يغفل الرصيد الادبى المشاع بين العرب كلهم، ولعل هذا هو السبب فى شهرة الجاحظ وذيوع آثاره فى هذا الفن، مع تقدمه ورسوخ قدمه فى كل فن من فنون العلم، والادب العربى، وترسله فى كتابته مما يوافق ذوق العصر واساليب الكتاب المحدثين.

بحث في علم الجنس

من طرائف اللغة العربية التى تفردت بها عن غيرها من اللغات هذا النوع من الاسماء الذى يسمى علم الجنس، وهو معرفة لفظا ومعنى لانه ضرب من العلم لا ريب فيه، وأخطأ من عده من قبيل النكرة وجعله كاسم الجنس فى المعنى وان كانت تجرى عليه احكام المعرفة وقد استأثر هذا النوع من الاسماء بانتباه النحاة، فتحدث عنه سيبويه فى الكتاب بقوله «هذا باب من المعرفة يكون فيه الاسم الخاص شائعا فى الامة ليس واحد منها أولى به من الآخر، ولا يتوهم به واحد دون آخر له اسم غيره، نحو قولك للأسد أبو الحارث وأسامة وللثعلب ثعالة وأبو الحصين وسمسم الخ.

وأشار له أبو القاسم الزجاجى فى الجمل بهذه العبارة: «ومن المعارف ما يكون تعريفه بالجنس نحو قولك سام أبرص وابن قترة لضرب من الحيات وابن آوى وما أشبه ذلك. فأما ابن لبون فنكرة، واذا أردت تعريفه أدخلت عليه الألف واللام فقلت ابن اللبون، قال جرير :

وابن اللبون اذا ما لزفى قرن
لم يستطع صولة البزل القناعيس

وتطرق اليه الزمخشرى فى المفصل بعد أن تكلم علـى أسماء الاعلام التى أطلقت على ما يتخذ ويولف من الخيل والابل والغنم والكلاب وغير ذلك فقال: «فصل وما لا يتخذ ولا يولف فيحتاج الى تمييز بين أفراده كالطير والوحوش وأحناش الارض وغير ذلك، فان العلم فيه للجنس بأسره، ليس بعضه أولى به من بعض. فاذا قلت أبو براقش وابن داية وأسامة وثعالة وابن قترة وبنت طبق، فكأنك قلت الضرب الذى من شأنه كيت وكيت».

اصـل الوضـع

هذه التفرقة التى ألمع اليها الزمخشرى بين ما يتخذ ويولف من الحيوان فيطلق عليه علم شخصى وما لا يتخذ ولا يولف فيقتصر فيه على علم الجنس هى مما يدخل فى تحديد معناه، وكأنها هى أصل وضعه ثم توسع فيه فأطلق حتى على ما يتخذ ويولف من حيوان وغيره. وأصلها لسيبويه فانه قال فى الباب المذكور: «وانما منع الاسد ومـا أشبه أن يكون له اسم معناه معنى زيد، ان الاسد(I)وما أشبهها ليست بأشياء ثابتة مقيمة مع الناس فيحتاجوا الى أسماء يعرفون بها بعضها من بعض، ولا تحفظ حلاهـا كحفظ ما يثبت مـع الناس ويقتنونـه ويتخذونه. ألا تراهم قد اختصوا الخيل والابل والغنم والكلاب وما ثبت معهم واتخذوه بأسماء كزيد وعمرو؟».

عبـقـريـة

وعلى كل حال فهل تكون هذه محاولة من العرب فى ماضيهم

I) بلفظ الجمع .

السحيق للخروج بلغتهم من نطاق اللغة الساذجة التى لا تعبر الا عن المدلولات الحسية والخارجية الى مجال اللغة العلمية التى تعنى بتحديد المعانى والحقائق الذهنية، اذ كان ذلك هو ملحظهم الاول فى وضع علم الجنس؟ ان هذا اذا صح يكون من أعظم الادلة على عبقرية الفكر العربى حتى فى عصر الجاهلية .

تعريفات وشروح

ومما يلاحظ أنه بعد تخطى عتبة القرن السادس، بدأ النحاة يتعثرون بالتعريفات المنطقية المعقدة التى يضعونها لعلم الجنس، وانتهى أمر تلك الحدود البسيطة التى تعتمد على الاحكام اللفظية والخواص التقريبية. فابن مالك وان قال فى الالفية :

ووضعوا لبعض الاجناس علم كعلم الاشخاص لفظا وهو عم

فلم يخرج فى الظاهر عما قاله النحاة قبله من أنه علم موضوع للجنس وهو كعلم الشخص فى اللفظ تجرى عليه أحكامه وان فارقه معنى فى كون دلالته عامة بموجب وضعه للجنس، الا أنه عاد فوضح مذهبه هذا فى شرح التسهيل بقوله: «ان أسامة ونحوه نكرة معنى ومعرفة لفظا وانه فى الشياع كاسد» وقد وافقه على ذلك الرضى وغيره. وعليه يكون علم الجنس مرادفا لاسم الجنس النكرة فى المعنى، فلا فرق بين اسامة واسد الا فى الاحكام اللفظية، فاطلاق اسم العلم عليه حينئذ تجوز.

ولكن المرادى رد ذلك بأن تفرقة الواضع بين أسامة وأسد فى الاحكام اللفظية، توذن بفرق من جهة المعنى. ومما قيل فى ذلك ان

أسدا وضع ليدل على شخص معين، وذلك لا يمتنع أن يوجد منه اشكال، فوضع على الشياع فى جملتها. ووضع أسامة لا بالنظر الى شخص بل الى معنى الاسدية المعقولة التى لا يمكن أن توجد خارج الذهن ولا يمكن أن يوجد منها اثنان أصلا فى الذهن، ثم صار أسامة يقع على الاشخاص لوجودما هو ذلك المعنى الكلى فى الاشخاص.

قال: والتحقيق فى ذلك أن تقول اسم الجنس هو الموضوع للحقيقة الذهنية من حيث هى هى. فأسد موضوع للحقيقة من غير اعتبار قيد معها أصلا، وعلم الجنس كأسامة موضوع للحقيقة باعتبار حضورها الذهنى الذى هو نوع تشخص لها مع قطع النظر عن افرادها ونظيرها المعرف باللام التى للحقيقة. «ثم قال:» وفى كلام سيبويه ايماء الى هذا الفرق، فانه قال فى ترجمة هذا باب من المعرفة يكون الاسم الخاص فيه شائعا فى أمته ليس واحد منها بأولى من الآخر ما نصه: (واذا قلت هذا ابو الحارث فأنت تريد هذا الاسد أى هذا الذى سمعت باسمه أو هذا الذى عرفت اشباهه، ولا تريد أن تشير الى شىء قد عرفه بعينه قبل ذلك كمعرفته زيدا، ولكنه اراد هذا الذى كل واحد من أمته له هذا الاسم) انتهى. فجعله بمنزلة المعرف بالالف واللام التى للحقيقة.

زيادة بيان

وبهذا يعلم أن علم الجنس هو من قبيل اسم الجنس المعرف بلام الحقيقة لا من قبيل الجنس النكرة. فأسامة الموضوع لرد غير معين من أفراد الجنس هو عين الاسد المعرف باللام، ان هذا يشير الى الحقيقة

اى الاسدية كما يشير اليها أسامة، غاية الامر ان هذه الحقيقة تستفاد في علم الجنس من جوهره وفى مصحوب أل منها، فاذا قلنا أسامة اجرأ من ثعالة، فكأننا قلنا الاسد اجرأ من الثعلب. فمن اين يتطرق اليه التنكير .

رجوع الى الاصل

ولا نُمْعِنُ فى هذه الخلافات النظرية، وهى طويلة عريضة. لا سيما وقد أصبحت عناية العرب كلهم موجهة الى تبسيط قواعد النحو وتجريده من مما حكات العلل وأحكام المنطق. وقد قام باستنكار هذه المباحث نحاة سابقون، كانوا لا يرون فيها الا خروجا عن السذاجة الاصلية للنحو العربى، وتنادوا بالرجوع به الى بساطته الاولى. ومن هؤلاء أبو حيان الذى علق على تحقيق المرادى المتقدم بقوله: انه رآى بعض من يميل الى المعقول، ويريد أن يجرى القواعد على الاصول. يروم به أن يوجد لاسامة ونحوه وجها يدخل به فى المعارف، وهو بعيد عما تقصده العرب».

وسأل الاستاذ عبد المهيمن الحضرمى وهو من شيوخ ابن خلدون الامام أبا عبد الله المقرى ما الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس؟ فقال له: زعم الحسر وشاهى أنه ليس فى الديار المصرية من يعرفه غيره، وأنا أقول: ليس فى الدنيا عالم الا وهو يعرفه غيره، لانه حكم لفظى أوجب تقديره المحافظة على ضبط القوانين كعدل عمر عن عامر .فاستحسنه عبد المهيمن .

كتاب في علم الجنس

ونظرا لهذه الاقوال المضطربة فى علم الجنس، فقد ألف فيه أبو جعفر بن خاتمة من علماء الاندلس كتابا نبيلا سماه الحاق العقلى بالحسى فى الفرق بين الكلى والعلم الجنسى وهو يعنى بالكلى اسم الجنس كانسان وأسد وفرس. ولم نقف على هذا الكتاب وانما ذكره ابن غازى فى حاشيته على الالفية، وقال انه أجاد فيه ما شاء ونقل منه نقولا مفيدة ومن جملة ذلك قوله فيه: «يظهر لى أن هذا المعنى استأثر به اللسان العربى دون اللسان اليونانى، لاتساع عباراته ولطائف اشاراته، اذ لو كان فى اللسان اليونانى لوجد فى كتب المنطق المترجمة وتداولته مناطقة الاسلام فى كتبهم كأبى نصر الفارابى وأبى على بن سينا والقاضى أبى الوليد بن رشد الحفيد وغيرهم».

احكام

وقد علم أن علم الجنس يساوى علم الشخص فى أحكامه اللفظية، وهذه الاحكام هى أنه لا يضاف ولا يدخل عليه حرف التعريف ولا ينعت بالنكرة ويبتدأ به وتنصب النكرة بعده على الحال ويمنع من من الصرف مع سبب آخر زائد على العلمية كالتأنيث فى أسامة ووزن الفعل فى بنات أوبر وابن آوى وزيادة الالف والنون فى كيسان علم على الغدر .. ومن أحكامه الخاصة أن ما كان منه مبدوءا بابن كابن عرس وابن آوى وابن أوبر يحمل فى الجمع على لفظ المؤنث فيقال بنات عرس وبنات آوى وبنات أوبر، وكذلك فى العدد فيقال ثلاث او أربع أو خمس بدون تاء . وفى نوادر اليزيدى يقال أبناء آوى وبنات آوى بالوجهين .

ينقسم علم الجنس :

اولا ـ باعتبار وضعه الى قسمين، عربى ومولد كما ذكر ذلك ابن خاتمة فى كتابه المشار اليه على ما نقله عنه ابن غازى. ولم نر من ذكر هذا التقسيم غيره وبمقتضاه يكون علم الجنس غير مقصور على السماع . وهو خلاف ما يفهم من كلامهم ومـا صرح بـه بعض الشراح عند قول الالفية (ووضعوا لبعض الاجناس علم) والامثلة التى مثل بها ابن خاتمة لهذا القسم هى ابو زياد للحمار وأبو دغفل للفيل وأبو المضاء للفرس وأبو خداش للسنور وأبو اليقظان للديك. قال: «وهذا النوع غير منحصر» وهذه العبارة أيضا من كلامه تفيد أنه لا يختص بالسماع.

والملاحظ ان الامثلة التى أتى بها كلها مبدوأة بأب، وانها لما يؤلف من الحيوان على خلاف الاصل فى علم الجنس، فهل المولد منه هو الذى من هذا القبيل؟

ثم اننا نسجل أن أبا المضاء عندهم مما جـاء قليلا لما يؤلف من الاجناس على خلاف الاصل، فهل يكون ذلك هو الداعى الى الحكم بتوليده عند ابن خاتمة، ويكون كل ما ضاهاه كذلك ولو لم يبتدأ بأب كهيان بن بيان للمجهول ؟

ومصداقا لقول ابن خاتمة أن هذا النوع غير منحصر، نجـد فى كتـاب المزهر للسيوطى فى النـوع السادس والثلاثين وهو المخصوص بمعرفة الآباء والامهات والابناء والبنات والاخوة والاخوات

والاذواء والذوات، عددا كثيرا من هذه الاسماء التى تذكر فى علم الجنس مبدوأة بأب وأم او ابن وبنت، ومن بينها أمثلة ابن خاتمة ما عدا أبا اليقظان فانه أورد بدله ابا حماد، وبعضها مما يلوح عليه أثر الاعرابية وبعضها الآخر مما يحمل طابع التوليد، فهل كل هذه الاسماء مما يندرج فى علم الجنس، وما يكون منها لما يؤلف يعد من قبيل المولد . ؟

ان هذه مباحث بحاجة الى التمحيص، ولا احد أجدر بذلك من هذا المجمع، وان أول ما نستفيده منها هو فتح هذا الباب أيضا فى وجه العاملين على نمو اللغة العربية وتوسعها ومسايرتها لروح العصر فى النهضة والتقدم .

ثانيا : وينقسم باعتبار مدلوله الى قسمين أيضا عند ابن خاتمة، قسم خاص بالاعيان، وقسم خاص بالمعانى، وجعله غيره ثلاثة اقسام فاستخرج من قسم الاعيان قسما خاصا بما يؤلف منها وهو القسم الذى استبعده ابن خاتمة وجعله من قبيل المولد .

امثلة من القسم العينى

أم غياث للسماء، وذُكاء ويوح بالمثناة وبوح بالموحدة وبَراح للشمس، وبنات نعش للنجوم الثمانية المعروفة، وبنات بخْر للسحاب، وبنات مخر وبحر لسحائب تجيىء قُبل الصيف منتصبات رقاق، وأم راشد للفارة، وأم الظباء للفلاة، وأم صبّار للحَرَّة وابن النعامة للطريق، ومَخاوص الثعلب ومَلاحس البقر، ووحش إِصْمِت وبلد إِصمِت وعين دِبَار لأبعَد الارض الذى يحار السائر فيه عن القصد،

وبنات أوبَر لضرب من الكمأة رديىء، وهُنَيدة لمائة من الابل، وبنات
رَباط للخيل، وبنات صَعْدة للحُمر الوحشية وأم حِلْس وأم الهثبر
للاتان، وام فروة للنعجة، وابو الحارث وأسامة للاسد وذؤالة وذألان
بفتح الهمزة واسكانها وأبو جعدة وأبو جُعادة للذئب، وثعالة وأبو
الحصين وسَمسَم للثعلب، وجيأل والفاظ كثيرة للضبع، وابن آوى
وابن عرس لنوعين من السباع وابن مِقرَض لدويبة تقتل الحمام،
وسامّ ابرص وأبو بُرَيْص للوزغ، وحمار قبّان لدويبة كثيرة الارجل
تنقبض عند ما تلمس، وبنات وردان لنوع من الحشرات يكون فـي
البيوت، وأبو براقش لطائر فيه ألوان يتلون ريشه في النهار عـدة
ألوان، وابو جِعران لذكر الخنافس، وابو حباحب لدويبة صغيرة تضيىء
ليلا، وام قشعم وشعوب للمنية وبنت المطر لدويبة حمراء تظهر غب
المطر، وشَبَبْوة وام عِرْيط وام العريط باللام للعقرب وام العوّام
للسلحفاة، وام حفصة وام جعفر للدجاجة، وام مهدى للحمامة، وابو
المِرقال وابن داية للغراب، وطامر بن طامر للبرغوث، وابو عذرها
للمخترع للشىء، وابن أحذار للحَذِر، وابن اقوال للمنطيق، وابن
البَرُوك للذى تتزوج أمه وهو كبير، وابو ذبان للابخر، وابن غبراء
للص، وابو دِرّاص وأبو ليلى وابو الدغفاء للاحمق وهيّ بن بيٍّ
وهيَّان بن بيّان للمجهول الذى لا يعرف، وجابر وابن حبة ويقال جابر
ابن حبة للخبز الى غير ذلك .

ولا يخفى ان فـي هذه الامثلة كثيـرا مما هو للمألوفات مـن
الاناسى والحيوانات وقد ذكرها ابن خاتمة فى قسم الاعيان من علم

الجنس العربى ولم يستشعر اى فرق بينها وبين ما حكم عليه بانه مولد وهذا هو موطن الغرابة .

أمثلـة للقسم المعنوى

بَرَّةُ للمبرة، وفَجارِ للفجور، ويَسـارِ لليسر، وسُبْحـانَ للتسبيح على ما فيه من خلاف. وكَيْسانَ للغدر، ومنه سمو الضربة بالرجل على مؤخر الانسان بـأم كيسان وبنات غيْر للكذب وقيـل للباطل، وعاطِ بن باطِ للتخليط والكذب، وابو غمْرة وأبو مالك للجوع، وام مِلْدَم بالدال والذال وأسماء أخرى للحمى وام الربيق كزبير وبنت طبَق وألفاظ أخرى للداهية، وام دفْر وألفاظ أخرى للدنيا، وابنا سمِير وابنا جَمير لليل النهار، وابن ذُكاء للصبح، وابن جَلا لاول النهار، فى قول، وفَيْنةُ بمعنى الحين بعد الحين وغدوة وبكرة وسحر اذا قصدت من يوم بعينه وقيـل مطلقا فى الاوليـن . والاعداد اذا قصدت معانيها مجردة مـن المعدودات نحو ثمانية ضعف اربعة والامثلة التى يوزن بها كقولك فعلان فعلى صفة لا تنصرف.

تعـقـيـب

مما يلاحظ فى هذه الاعلام ان صفة ما لو حطت فيها مع العلمية، كحضاجر للضبع فيه معنى انتفاخ البطن، وابن داية للغراب لوقوعه «على داية البعير ونحو ذلك وقد ألمع الى ذلك سبيويه حين قال : «ومن ذلك ابن قترة وهو ضرب من الحيات فكأنهم اذا قالوا هذا ابن قترة فقد قالوا هذا الحية الذى من أمره كذا وكذا» الخ.

ويلاحظ ايضا ان بعض هـذه المسميات مما له اسم وكنية،

وبعضها ليس له الا احد الامرين، وبعضها وهو غريب ليس له اسم جنس، وانما يعرف بعلمه كحمار قبان وابن مقرض.

ومما يستشكل كون ذكاء وبوح وما اليها علم جنس للشمس، فاذا كان معناه الحقيقة الذهنية فانها هنا واحدة فى الذهن والخارج، ولا افراد لها فيما تراه العين الا ما يقوله الفلكيون من ان هناك شموسا عديدة، ولكن الواضع لم يقصد ذلك قطعا على ان اسم يوح وجدنا انه كان يطلق فى غير العربية من اللغات السامية على الشمس، ولا ندرى أهو فيها معرفة او نكرة؟ وأيا ما كان فان الاستشكال قائم بالنسبة الى صفته فى العربية وهى العلمية الجنسية، الا ان نقول ان الجنسية هنا معتبرة بالنظر الى الزمن وتنقلات الشمس فى ابراجها.

والخلاصة ان علم الجنس موضوع طريف فى اللغة العربية وهو يقتضى تضافر الجهود لتحقيق مباحثه، وقد عرضت عليكم ما كتبته فيه لتمييز صوابه من خطاه، والشكر لكم على جميل الانصات. (I)

I) ألقى هذا البحث فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

مالك بن انس

ترجمة محررة

تأليف العلامة أمين الخولي

فى ثلاثة اجزاء لطيفة
طبع دار احياء الكتب العربية

سمعت عن هذا الكتاب كثيرا من صديقى الاستاذ ابراهيم الكتانى، وكان عندى الا أنى لم افرغ لقراءته وهو قد قرأه منذ صدوره، وكان من حديث صديقى عنه انه لم يقرأ، على كثرة ما قرأ، كتابا يترجم لانسان ويزرى به كهذا الكتاب، وانه من دفته الاولى الى دفته الاخرى عبارة عن الحط من شأن مالك وفقهه والاشادة بابى حنيفة وفقهه، والتنويه بمدرسة اهل العراق وسبقها الى وضع القواعد والاصول الاستدلالية فى حين ان مدرسة اهل الحجاز بقيت متخلفة فى ذلك، همها الرواية والرواية القاصرة على ما عند اهل الحجاز من حديث واخبار، فهى لم تعن بما عند اهل الاقطار الاسلامية الاخرى وخاصة العراق من سنة وآثار انما تكتسب بالرحلة التى لم يكن لفقيه أهل الحجاز، وهو مالك، عناية بها. وهى ان مثلت شيأ فانما تمثل هذه البيئة الحجازية المحافظة المتبدية، ولا سيما بالنسبة الى

مالك الذى كان اشد اهل بلده تاثرا ببيئته، ويفيض الاستاذ الكتانى

فى حديثه هذا بطلاقته المعهودة واستيعابه النادر عارضا آراءه فى

الكتاب وصاحبه على نحو مما ذكر، بل ان ما ذكر انما هو تقريب

لوجهة نظره مع تلطيف فى العبارة التى يؤدى بها مراده، وقد تحدث

الي بهذا الحديث، وتحدث به الى غيرى وانا اسمع وقال لى مرة:

اننى لم اكن حريصا على لقاء الاستاذ الخولى فى مصر الا لارى هذا

الشخص صاحب تلك الحملة المنكرة على مالك، وحقا فاننا فى الزيارة

التى زرنا فيها مصر مجتمعين صيف سنة 1957 انا والاستاذ الكتانى

واصدقاء آخرون اسعدنا الحظ فى احدى الحفلات بلقاء الاستاذ الخولى

وثلة من رجال العلم والسياسة فاستبد الاستاذ الكتانى بالاستاذ

الخولى وتحدث اليه مدة الحفلة على حين ان حظى كان مع احد كبار

الساسة العرب ممن سبق له ان زار المغرب الشمالى وتعرفت به

هناك، فلم يكن لى متسع من الوقت للمشاركة فى حديث الاستاذين

الكبيرين، وقلت للاستاذ الكتانى مرة وهو يحثنى على قراءة كتاب مالك

ابن نس ممازحا له، لو لم يكن من فضل الاستاذ الخولى علينا وعلى

المالكية الا انه جعلك تتعصب لمالك وتغار عليه هذه الغيرة المنقطعة

النظير، وانت «الحزمى» القح الذى نبذ النظر والقياس ولم يبق

للمذاهب فى نفسه اعتبار لكفى: فقال لى: اقرأ الكتاب وستحكم بعد

ذلك حكمى !..

وهكذا تناولت كتاب الاستاذ الخولى وشرعت فى قراءته وانا

اتوقع الاصطدام بآرائه السوء منذ الصفحة الأولى، ومضيت فى

القراءة متمهلا مُتَرَيِّثاً وفى كل فصل اقول: من هنا ستبدأ الحملة،
من هنا ستقع الاغارة ولم اشعر حتى طويت الجزء الاول، واخذت فى
قراءة الجزء الثانى متأنيا متثبتا، فلم يَسُؤْنى منه شئ، وقلت لعل
المعركة ستحتدم فى الجزء الثالث فاذا بى يخشع قلبى وتدمع عينى، لهذه
الكلمة المؤثرة التى رثى بها المؤلف الامام مالك وكانت مسك الختام
لكتابه القيم.. اى اننى فرغت من قراءة الكتاب وانا مأخوذ بسحر
هذا القلم الصناع، وعمل هذ المؤلف المبدع عوض ان أفرغ منه وأنا
ساخط متذمر كحال صديقى الاستاذ ابراهيم الكتانى .

والواقع ان الكتاب هو كما عبر مؤلفه «ترجمة محررة» للامام
مالك، ترجمة ذات منهج علمى واضح جمعت من اخبار الامام ما امكن
لها جمعه ثم عقبت عليها بالنقد والتمحيص فلم تقبل منها ما تطرق له
الشك ما لم يثبت على محك الاختبار، وعالجت فى صبر واناة
التوفيق بين دلالات هذه الاخبار كلما تعارضت وابراز مضامينها،
بشرح ما تحتويه من معان نفسية وخلقية.

تشخص حياة المترجم وتعرضها، فى صورتها الحقيقية المجردة
ومن ثم يمتد نفس الكاتب فى شخصية مالك الجنين فالطفل فالغلام،
فالشاب، فالرجل، فالانسان فالعالم، ولا حاجة الى القول ان طريقة
تناوله لعناصر هذه الشخصية طريقة تحليلية تنفى عنها كل دخيل،
وتميزها من كل تطفيل، وهذا هو معنى التحرير فى هذه الترجمة،
ولعل اهم مناهج هذا التحرير هو ابعاد الروايات (المنقبية) التى تفيض
بها الكتب فى حياة مالك: عن هذه الترجمة وذلك بطريقة رفيقة،

لا هى طريقة الدكتور محمد حسين هيكل فى كتاب حياة محمد التى تتعمد اغفالها وتتبرأ منها، ولا هى طريقة الدكتورة بنت الشاطىء فى كتابها عن ءامنة بنت وهب والـدة الرسول (ص) التى تسانس بها، وتدافع عنها احيانا .. لما ان المجال فى حياة ءامنة اضيق منه فى حياة مالك، ولان كتاب الاستاذ الخولى بحث علمى مستقل غير متأثر بما تأثر به الدكتور هيكل من الكتاب الاجانب الذين كتبوا عـن النبى صلى الله عليه وسلم .

والى هنا نكون قـد رسمنا الخطوط الاولى لهـذه الترجمة ، وهى كما رأينا لا تنم عن تنقص ولا نيل من شخصية مالك وان كانت بالاحرى لا تحيز فيها ولا محاباة ، اما فقه مالك فقد اعترف الرجـل فى مطلع كتابه انه لم يدرسه وانه لم يضع كتابه فية وانة يؤثر ترك الحديث عن انتشار المذهب المالكى لفقيـه ممارس يجد فـى روح المذهب ودقائقه ما قد يعلل رواجه وذيوعه ، وانه ان تسلم لـه ترجمة محررة للامام فذلك حسبه وكفى (ص 4) وبهذا يكون قد تفادى ما يلاحظه الاستاذ الكتانى من نضوب فى مواد الكتـاب التى اعتمد عليها فى دراسة الفقه المالكى اذ يقول وهو محق: كيف يمكن للباحث فى فقه مالك ان يلم بشىء منه ولو المامة سطحيـة اذا كانـت مصادره التـى يعتمد عليها هى طبعـة الموطأ بشرح تنويـر الحوالك للسيوطـى واصول ابن الحاجـب بشرح السعد ولا زائد ؟ فالاستاذ الخولى لم يحـاول ان يدرس الفقه المالكـى باعترافه ، وكفـى الله المومنين القتال.

نعم يبقى مافى الترجمة من بعض الانظار للمؤلف ربما اوهمت شيئا مما يأخذه عليها صديقنا العزيز وها نحن نرجع اليها القول لندلى فيها برأينا الصريح حتى لا يظن اننا نخالفه لمجرد المخالفة او اننا نقرظ المؤلف ونوافقه على جميع ما قال بدون تحفظ مع ان هناك كلمات لا يحسن السكوت عليها، وهى مما لا يخلو من مثلها عمل بشرى ليومن الناس ان الكمال انما هو لله وحده، ففيما يرجع لفقه مالك وفهمه للسنة وطريقته فى الاستدلال بالكتاب العزيز والحديث والفرق بين بيئة الحجاز وبيئة العراق نورد قوله الذى علق به على كلمة لعياض اوردها دليلا على ان ما نسب لمالك من معرفته لمراتب الاخذ بالسنة لا يصح، لان الاصطلاح فى ذلك متأخر عن زمنه، وقد لخص هو قول عياض فى هذه الكلمة: « انه تناول السنة على ترتيب متواترها ومشهورها وآحادها ثم ترتيب نصوصها وظواهرها ومفهومها . . الخ » .

وقال معلقا على ذلك:.. وهو ما تشعر انه اكثر من ان تحتمله طبيعة الحياة اذ ذاك، او تقوى عليه فى سيرها، او توجهها اليه موجهاتها، فى العصر الذى تناول فيه مالك ما تناول منها، متدرجا غير سابق لاوانه، ولا خارج عن سنن الله فى كونه (ص 709) وقد غفل المؤلف عن ان مراد عياض هو مدلول هذه الالفاظ لا هى بعينها، وهذا ما لا شك فى ان مالكا اتبعه فى استدلاله بالسنة، فلو انه اخذ بخبر الاحاد وترك المتواتر لظهر عواره، ولو اخذ بالمفهوم وترك الظاهر لما خفى امره على احد، وكثير من المؤلفين انما توخذ اصطلاحاتهم من تتبع

كلامهم وملاحظة طرق استلالالهم ، وهذا البخارى وشرطه واصطلاحه فى كتابه انما عرفا بالاستقراء والدرس فطبق عليهما ما تقرر بعد زمنه بكثير من اصطلاحات وقواعد ، وغير البخارى فى ذلك كثير.

واورد المؤلف فى هذا الصدد ايضا مسألــة القسم للخيل فى الغزو وما علل به ابو يوسف فى كتابه الخراج حكم الاسهام للفرس بسهمين وللرجل بسهم، على حين ان مالكا لما روى ذلك الحكم فى موطئه عن عمر بن عبد العزيز، لم يعلله ولم يعلق عليه الا بكونه لم يزل يسمع ذلك من اهل العلم، ثم تطرق الى الاستنتاج ان ذلك من اثر اختلاف البيآت (يعنى العراقية والحجازية) فى تناول المسائل وفهمها وسرعة تطور الرأى الفقهى عند اهل العراق بخلاف اهل الحجاز (ص 645-646-647) ونظن ان المنهاج الدقيق الذى اتبعه الاستاذ المؤلف يمنع من ارسال الاحكام التاريخيــة بمجرد الاستنــاد الى جزئية مثل هذه لها فى الجانب الآخر ، فــى غير هذا البــاب نظائر ونظائر من تاصيل النظر وتفريع الاحكام ، عــلــى ان أبا يوسف كان يرد على أبى حنيفة الذاهب الى ان للفرس سهمــا مثل الرجل قائلا : لا افضل بهيمة على رجل مسلم ، فهو مضطر لان يبين العلة فى هذه القسمة من ان تكون عدة الفارس اكثر من عدة الراجل ويرغب الناس فى ارتباط الخيل الــخ . . ثم هو يقول هذا فى كتاب خاص بالمال وهو كتاب الخراج فمن حقه أن يتوسع فيه ويعلل، ولا كذلك مالك الذى ذكر المسألة فى كتاب جامع هو الموطأ ضمن الباب الذى يناسبها .

وعلى ذكر الرأى نرى ان المؤلف ، وقد ساق هذه المسألة
فى بحث الرأى الاصطلاحى (ص 635 ـ وما بعدها) قد تعمق
فى تفسير الرأى بما لا يتناسب والادلة التى اوردها هو نفسه،
ومراده ان يثبت ان الرأى الفقهى لم يكن هو المعنى حينما يطلق فى
بيئة الحجاز الاولى، وتأول لذلك كثيرا، فجعل اسم ربيعة الرأى
الفقيه شيخ الامام مالك من قبيل ما قيل فى المغيرة انه ذو رأى،
وناقش فى تعليق ضاف كلاما للدكتور احمد امين حول هذا الموضوع.
ثم ختم بقول احمد بن حنبل، وقد سئل عمن يريد ان ينظر فى
الرأى؟ رأى من ينظر ؟ فقال رأى مالك، فهل بعد هذا حجة فى ان
المراد بالرأى هنا الرأى الفقهى والطريقة والمذهب الذى سار عليه
مالك فى استنباط المسائل الفقهية من ادلتها الاجمالية ، لا الفهم
والتفسير وكيفية التطبيق فقط؟ وهل يستدل على ذلك باكثر
من قول معاذ (ض) لمَّا ارسله النبى (ص) لليمن فقال له بم تقضى؟
قال بكتاب الله قال فان لم يكن فى كتاب الله؟ قال بسنة رسول الله،
قال فان لم يكن فى سنة رسول الله، قال اجتهد برأيى، فضرب على
صدره وقال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله الحديث فهذا هو الرأى
الاجتهادى الفقهى قد بدئى باستعماله منذ عهد الرسول (ص)، لا
لبس فيه بالرأى اللغوى الذى يريد المؤلف ان يجعله هو المعنى كلما
اطلق فى بيئة الحجاز التى سبقت الى الرأى جميع امصار الاسلام
ولكن بهذا المعنى العام .

وهكذا يذهب المؤلف ايضا فى معنى الفقه مرتئيا ان اطلاقه بازاء العلم بالاحكام الشرعية متاخر عن عهد النبوة وعن قريب من العهد الذى يؤرخه مستدلا فى اطمئنان ناقلٍ لا مستنتج بكلام لابن خلدون فى المقدمة مضمنه ان الصحابة لم يكونوا كلهم اهل فتوى، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وانما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرءان العارفين بناسخه ومنسوخه، وكانوا يسمون لذلك القراء: اى الذين يقرؤون الكتاب، لان العرب كانوا امة امية، فاختص من كان منهم قارئا للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ، وبقى الامر كذلك صدر الملة، ثم عظمت امصار الاسلام، وذهبت الامية من العرب بممارسة الكتاب، وتمكن الاستنباط، وكمل الفقه، واصبح صناعة وعلما، فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء .. (ص 609) .

ويرد هذا الرأى ما جاء فى حديث العسيف الذى اخرجه البخارى وغيره، وفيه: ان اعربيا اتى النبى (ص) فقال ان ابنى كان عسيفا على هذا فزنى بامرأته فقيل لى ان على ابنى الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليدة .. ثم سألت اهل العلم فقالوا انما على ابنك الجلد وتغريب عام. فهؤلاء اهل الفتوى يطلق عليهم اهل العلم فى عهد رسول الله (ص) وقد دعا النبى (ص) لابن عباس فقال: اللهم فقه فى الدين وعلمه التأويل ، وفى حديث عنه (ص) من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين، وفى آخر ، من حفظ على امتى اربعين حديثا من امر دينها بعثه الله يوم القيامة فقيها عالما؟ وفى رواية بعثه الله يوم القيامة فى زمرة الفقهاء والعلماء وهو وان كان ضعيف

الاسناد فدلالته على ما نحن بصدده اقوى من دلالـة كلام ابـن خلدون وفى ثالث رب حامل فقـه ليس بفقيه وفى روايـة رب حامل فقه الى من هو افقه منه ، وفى البخارى اوتر معاويـة بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس فاتى فاخبره فقال له ابن عباس ان معاوية فقيه، ويطول بنا الامر لو اردنا استيعاب النصوص الدالة على اطلاق الفقه فى العصر الاول، عصر النبى (ص) والصحابة فما بعده بازاء المعنى او قل التعريف المصطلح عليه بعد للفقه .

وثم كلمات موجهة اعتضد بها المؤلف فى تأييد ما ذهب اليه ، منها تفسير ابى حنيفة للفقه بمعرفة النفس ما لها وما عليها، وهذا ان صح فانما يراد به التوجيه الخلقى المطلوب من كل واحد وخاصة من الفقهاء، ولذلك سمى كتابـه فى الكلام الفقـه الأكبر ايذانـا بان معرفة الله اكبر من معرفـة الاحكام والمسائل التى هى الفقـه الاصغر على حد قوله (ص) رجعتم من الجهاد الاصغر الى الجهـاد الاكبر، والمؤلف يقلب هذه الكلمات المروية عن ابى حنيفة وغيره على كل وجه الا وجههما الحقيقى ليستدل بها على مراده ويتشكك فى لفظ آخر، عن ابى حنيفة صريح فى اطلاق الفقه على معناه المتعارف، ولا يتشكك فى هذه الكلمات ، ولا نطيل فى هذا الموضوع لاننا لا نرمى الى المناقشة وانما نبين وجهة نظر غير ما ذهب اليه جنابـه.

ونعرض الى اشياء مما وقف فيه المؤلف موقفا حرا من سلوك مالك او احواله فأوهم التنقيص ، وليس كذلك ، ومنه ما علق به على قول الامام وقد عيب عليه إتْيـانُ الامراء وعدم الذهاب الـى

المسجد ، « اما اتيان الامراء بالحمل منى علـــى نفسى فانه ربمـــا استشير من لا ينبغى ان يستشار . . »

قال المؤلف: (فهل الحمل على النفس لاتيان الامراء اوجب مـن ذلك الحمل لاتيان المسجد (ص 497) ولو اراد المؤلف ان يلتمس العذر لقال ان اتيان الامراء للاشارة مصلحة عمومية توجب الحمل على النفس ولا كذلك اتيان المسجد، ولو اراد المؤلف ان يلتمس العذر لقال ان السلس ان كان هو العلة الحقيقية فان الطهارة تتعذر منه ولذلك فهو ياتى الامراء ولا ياتى المسجد لان المسجد يطلب فى حق من يأتيه ان يكون طاهرا ولا كذلك من ياتى الامراء، ومثله ما علق به على ما ذكر من حاله إنه كان افزع الناس من السياط، وهو قوله (وما تكون هذه فى الغالب حال رجل قد تمـرس بالمقاومة القويـة فى صورة مـن صورها..) (ص 301) وهذا لمز للامام بضعف النفس المستلزم لضعف المقاومة للسلطة واستنكار الظلم كما هو شأن الايمة وما اعجب هذا الكلام: فهل لا يكون الرجل قوى النفس الا اذا كان قويا على تحمل السياط؟ وقد ضرب مالك بالسياط فعلا وتحملها افلا يكون هذا الذى ذكر من حاله بخصوص السياط غير صحيح؟ واغرب من هذا وذاك انه لما تعرض لترجمة نافع مولى ابن عمر من شيوخ مالك وذكر بعض الاوصاف التى وصفه بها الذهبى من انه كان صغير النفس، ألكن، الخ .. توكأ على هذه الاوصاف ليقول فى مالك انها لا تعطيه قدوة صالحة، (ص 39) يعنى من حيث انه احد شيوخه المعتمدين ... ولا نعلق على قولـه هذا الا بقولنـا: انها نفس القدوة التـى اعطتها

للمصريين لما بعث اليهم عمر بن عبد العزيز، بنافع هذا فمكث بينهم مدة يعلمهم السنن والدين كما ذكر ذلك المؤلف نفسه، وعمر بن عبد العزيز اعرف بالرجل من الذهبى وغيره فما رشحه لتلك المهمة حتى كان احق الناس بها.

وهناك بعض عبارات فهم منها الاستاذ المؤلف اشياء وبنى عليها احكاما، وربما كانت لا تدل على شىء مما فهمه منها - على الاقل فى نظرنا - ونحب ان نعرض لها ايضا، ومنها انه لما ذكر لباس الامام من الاقمصة الرقيقة وروى عنه انه قال: ما ادركت احدا يلبس هذه الثياب الرقاق، وانما كانوا يلبسون الصفاق الا ربيعة، فانه كان يلبس مثل هذا، ويشير الى قميصه، عارض هذه الرواية باخرى يقول فيها ما ادركت فقهاء بلدنا الا وهم يلبسون الثياب الحسان، ثم سجل ما فى ذلك من الخلاف ولو تأمل حضرته لما رأى فى ذلك خلافا، فانه فى الرواية الاولى وقع التعبير بصيغة عامة ثم استثنى منها ربيعة وهو فقيه اهل المدينة، وفى الثانية وقع التعبير بان فقهاء البلد كانوا يلبسون الثياب الحسان، وهذه ولا شك انما تعنى ربيعة فانه فقيه البلد .

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالالف ان امر عنى

ومنها استشكاله ما روى من انه لم يدخل الحمام حياته كلها، وما عرف من حاله انه اذا اراد التحديث دخل مغتسله فاغتسل وتطيب ... وعلق على ذلك بما لا فائدة فى ايراده (ص 294) ومراد الرواية الاولى نفى دخوله للحمام العمومى الذى ورد النهى عن

دخوله لما فيه من كشف العورة وغير ذلك من المنكرات. وهذا لا خفاء به، فلا محل للاستشكال .

ومثل ذلك توقفه فيما روى من تدبيره لطعامه ، وهذه الوظيفة اليومية من اللحم والخبز والزيت لفطوره (ص 255) وهى مسألة تافهة جدا لا تستحق كل ما وجه اليها المؤلف من عناية حتى ولو لم تختلف الاحوال على الامام من عسر ويسر فطعام الافطار ، هو غير طعام الغداء وما يختلط ذاك على احد ، ومنها ما ذكره فى (ص 300) من اشتباه الخط المغربى عليه فى اسم ولد الامام يحيى، اذ ربما كانت قراءته فى مخطوطة المدارك يجيىء، وهو كلام ما كان ليصدر من حضرته لو تأمل نص الديباج فى هذا المحل، وهو مطبوع بالحرف المصرى لا اشتباه فيه مطلقا، ومنها ما حكاه فى (ص 160) عن كتاب مناقب مالك للزواوى من ان حديثا جرى بينه وبين جعفر ـ قال المؤلف: (وهو الصادق غالبا) ـ وفى ختام هذا الحديث نقول جعفر لمالك «وانت عليم الحجاز» ونظن أن جعفر هذا صوابها ابو جعفر، وهو المنصور، لا جعفر الصادق، ولتنظر ترجمة الامام فى الزرقانى على الموطأ، وفى اثناء حديث المؤلف عن تاليف الامام للموطأ تعرض لقول ابى جعفر المنصور لمالك، : عزمت ان آمر بكتبك هذه التى وضعتها ـــ يعنى الموطأ، فتنسخ نسخا ، ثم ابعث الى كل مصر منها نسخة، وتوكأ على عبارة (يعنى الموطأ) قائلا انها لا تصح ان تكون من كلام المنصور (ص 527) وهذا من البديهيات، فان احدا لم يفهم ان ذلك من قول المنصور وانما هو من كلام الراوى، ومثله كثير فى كلامهم .

وفى (ص 186) يروى المؤلف خبرا عـن الحسن البصرى مفاده انه قال لرجل طلق امرأته ثلاثا : انـك عصيت ربك وبانت منك امرأتك، فقال الرجل: قضى الله ذلك على، فقال الحسن: ما قضى الله اى ما امر الله عز وجل وقرأ هذه الآية (وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه) فيأخذ منه ان الحسن كان يقول بالقدر وانه هو الذى لقنه لمعبد الجهنى وقد سأله عن جور الملوك وادعائهم ان ذلك من قدر الله فاجابه الحسن: كذب اعداء الله، ولو تأمل الاستاذ الجليل ما جاء فى الخبر الاول من تفسير قوله (ما قضى الله) بما امر الله لكفاه ذلك فى دفع القول بالقدر عن الحسن الذى ما رماه به احد قط: والحسن بجوابه لمطلق امرأته ولمعبد انما اراد نفى الاحتجاج بالقدر وتحميل مسؤولية العمل لصاحبه لا نسبة ايجاد العمل واختراعه اليه.. وهذا من مذهب اهل السنة معروف .

وتكلم الاستاذ المؤلف على رسالة الامام الى هارون الرشيد ، وهى مشهورة ، فنقل كلام الناس فيها وقال ، (وعلى كل حال فانها ليست مما وصلت اليد اليه ، لننقدها متنا على نحو ما فعلـوا (ص 331) ولا ندرى كيف لم تصل اليها يده وهى قد طبعت فى مصر طبعات عديدة ، فيا ليته بحث عنها واتحفنا بما توحيـه اليه نظراته النافذة فيها وفى (ص 274) اورد الاستاذ المؤلف حكاية عن حكم الامام فى قضية قتل عفا فيها مولى المقتول عـن القاتل وتمسك الامام بوجوب اقامـة الحد فاخذ الوالى برأى الامام الذى قال: انما قتلته بالحرابة ولم اقتله قودا، (يعنى فلذلك لم يفده

عفو الولى، وقد كتب الاستاذ على كلمة الحرابة: لفظ كذا بين هلالين. وهو يشعر بالتوقف فلم ندر هل هو توقف فى معنى الحرابة، وهذا لا يخفى على حضرته قطعا، أو هو توقف فى حيثية الحكم فكان يجب ان يعلق عليه بغير لفظ كذا .

ولا ننسى ان ننبه على ان قلم الاستاذ فى قوة بيانه ونصاعة ألفاظه تتفلت منه بعض الكلمات التى ليست مما يغتفر لمثله كالنضوج والنوايا ورغم كذا. وكذلك لا ننسى ان ننبه على اننا لم نستحسن ما يرتكبه الاستاذ من شبه التضمين الذى تكلم عنه العروضيون فى الشعر حين ينهى فصلا من فصول الكتاب بالتوطئة الى فصل آخر وجعل آخر كلمة الفصل الذى انتهى منه ترتبط باول كلمة من الفصل التالى، او بعنوانه ، وربما كانت الكلمة الاولى فعلا والثانية فاعلا كما فى هذه العبارة التى هى آخر فصل مالك ، الطفل ، : (وعند هذا يظهر لنا) وقد جاءت فى اول صفحة (43) يليها بياض ، فصفحة (44) وهى كلها بيضاء ، ثم جاء الفاعل وهو عنوان الفصل التالى: (مالك الغلام) فى الصفحة (45) ولا اشك ان الدقة التى اخذ الاستاذ بها نفسه والتحرير الذى التزمه فى هذه الترجمة هما اللذان اركباه هذا المركب الوعر وان يكن ذلك عنده وعند غيرى ربما كان من المستحسنات .

وبعد ، فهذا عرض لكتاب (مالك بن انس ترجمة محررة) الذى نفض به الاستاذ الخولى غبار الخمول والتقليد عن تراجم الايمة، وضرب به مثالا لمن اراد أن يحرر فكره وقلمه من قيود الخضوع

والتقديس، وقدمه لبنة اساسية فى البحث النقدى النزيه الى المكتبة العربية التى ما زالت مفتقرة جدا الى مواد وانقاض تبنى بها هيكلها الجديد الذى يتلائم وعصر التقدم العلمى العتيد، واشهد ان الاستاذ الخولى قد وفق فى عمله هذا الى ابعد حدود التوفيق واشهد انه قد اتى بعمل جليل يقل له النظير والكفاء، واعتذر فى النهاية الى حضرته ان كان فرط منى ما قد يكون فيه سوء ادب مع مقامه، الذى اوكد له انه جليل فى نفسى ومحترم جدا احترام العلماء الاكفاء، وعلى كل حال فان لى فيه قدوة بما تناول من حياة الامام مالك، وهو من هو، بالنقد الحر: وان يكن هو قد ظفر بالتصويب فيما تناول من ذلك، فمن لى بان اكون على صواب فيما كتبته من هذا العرض .

رسالة الكاتب ابن ابي الخصال

التي نال فيها من كرامة المرابطين

عرف المرابطون بالحلم والتسامح والاغضاء حتى انهم لم يريقوا محجم دم فى غير ساحة القتال، وموقف يوسف بن تاشفين من المعتمد بن عباد معروف، بل ومن غيره من ملوك الطوائف ورؤساء الاندلس الذين سلموا فسلموا، بعد ان كان منهم من الشغب والخلاف على اثر واقعة الزلاقة الشهيرة، ما كاد يودى بحياة الشعب العربى فى الاندلس مرة أخرى لولا مسارعة يوسف بتلبية رغبة الشعب فى النجدة والانقاذ.

وقد أدت تصفية ملك الطوائف على النحو المعروف فى التاريخ الى اثارة حملة شعواء على المغاربة عموما والمرابطين خصوصا من طرف العناصر الموتورة والفئات التى كانت تستغل الوضع الفاسد الذى كان قائما فى الاندلس لمصلحتها الخاصة، ومن هؤلاء جماعة من الادباء المنحلى الاخلاق الذين كانوا يجدون ما يرضى غوايتهم عند سادة العهد البائد، وآخرون من ذوى الطموح السياسى الذين لم يرضوا الترضية الكافية فلجأوا الى التشنيع والتقول على الدولة الجديدة.

ولعل صاحبنا أبا عبد الله بن أبى الخصال كان من الفريق الثانى، اذ لا نستطيع أن نصفه بأنه كان منحل الاخلاق، وهو الى ان يعد فى العلماء وأهل الرواية والحديث أكثر من ان يعد فى الادباء فضلا عن اصطناع المرابطين له واستكتابهم اياه من قديم وهم لم يكونوا يقربون الا أهل المروءة والدين من العلماء والادباء .

يقول ابن الآبار فى ترجمته من المعجم: «محمد بن أبى الخصال واسمه مسعود ابن طيب بن فرح بن خلصة الغافقى أبو عبد الله ذو الوزارتين سكن قرطبة وأوليته منزقرية بشقورة تسمى فرغليط وبها نشأ ومنها تردد فى طلب العلم والأدب وذكر جملة من مشايخه ثم قال «وعنى بالحديث فأتقنه وأما البلاغة فاليه انتهت وعليه قصرت وبموته فقدت» وصفه بهذا أبو القاسم بن حبيش. وقال فيه ابن بشكوال مفخرة وقته وجمال جماعته. قال: «وكان متفننا فى العلوم مستبحرا فى الآداب واللغات عالما بالاخبار ومعانى الحديث والآثار والسير والاشعار أحد رجال الكمال». وسمعت شيخنا أبا الربيع موسى يقول سمعت أبا الحسين عبد الرحمن بن أبى عامر الاشعرى يقول سمعت الفقيه أبا مروان بن مسرة يقول لم ينطلق اسم كاتب بالاندلس على رجل مثل ابى عبد الله بن بى الخصال .. وحكى لنا شيخنا أبو الحسين ابن السراج أن خاله أبا بكر بن خير وابا القاسم بن بشكوال وأبا القاسم بن غالب المعروف بالشراط قصدوا ذات يوم قبر أبى عبد بن أبى الخصال وقد وعدوا احد تلاميذهم ان يقرأ هناك عليهم قصيدته البائية التى وسمها بمعراج المناقب ومنهاج الحسب

الثاقب قال: « وكنت فيمن صحبهم لاخذها عنهم فسمعتهم يترحمون عليه ويقولون عند انتهائهم: السلام عليك يا زين الاسلام ».

قال ابن الآبار: «ومع كماله لم يحظ من امراء عصره بآماله، وهي عادة الايام العادية فى امثاله، توارى لما بهر، وخفى اضعاف ما ظهر، وصار أخوه أبو مروان بالكتابة عنهم اشهر والذى قعد بأبى عبد الله هو قيام ابن الحاج أمير قرطبة على ابن تاشفين وثورته التى نكب عنها، ونجا، ولكن كيف منها وكان حينئذ أوثق حاشيته وأسبابه، وألصق وزرائه به وكتابه مع ان اختصاصه لم يكن الا بابنه أبى يحيى أبى بكر بن أبى عبد الله حتى وسمه بذى الوزارتين فجرت عليه تخصيصا بعنايته، ومكافأة لكفايته، فكم جلى من تلك الخطوب الجلائل وأبلى باليراع والرسائل مكان ذوات العمود والحمائل، ولما استقل ابن الحاج وولى ما ولى من اعمال المغرب . عاد ابن ابى الخصال لصحبته هناك هو وابو بكر بن عبد العزيز وطائفة انضوت من حرمته الى الحصن الحصين والحرز الحريز . وذلك لشفوف هذا الامير على أترابه ، وخفوق ذاته الراجحة فى حقوق أصحابه ثم انهم انتقلوا بانتقاله الى سرقسطة أم الثغر الشرقى حين حلها ذابا عن أرجائها ومجاهدا لاعدائها ، حلول البر التقى، وإذْ حمت شهادته قافلا من غزاته فى التاريخ المرسوم ، كسد ما نفق فى أيامه من بضائع العلوم وناصع المنثور والمنظوم فلزم أبو عبد الله داره خائفا من تلك الاحقاد القديمة وراضيا بالاياب اليها من الغنيمة وفى اكثر عمره ارتد على العقب مأموله وامتد بطول مدة ابن تاشفين

خموله .. الى أن حتمت منيته بالفتنة الحمدينية فاستشهد رحمه الله ودفن يوم الاحد الثالث عشر من ذى الحجة سنة 570 .. ومولده سنة خمس وقيل سنة 463 » .

فهذه الاطوار التى تقلب فيها كاتبنا الكبير تدل على أنه كان ذا نفس قوية، وانه لم يستغن بالعلم بل تشوف الى الظهور عن طريق السياسة، ومن ثم شارك فى ثورة ابن الحاج بقرطبة، وابن الحاج هذا هو أبو عبد الله محمد بن داود بن عمر اللمتونى أمير قرطبة من رجالات يوسف بن تاشفين وذوى السابقة فى الجهاد بالاندلس، وكان قد دفع امرة على بن يوسف وتلكأ عن بيعته لاول ولايته سلطان أبيه ومالأه الملأ من اهل قرطبة ، مشيختها وفقهائها وذاك سنة 500 ثم نكب وقبض عليه وفسد تدبيره وهرب من كان معه من الاعيان الى ان رضى عنه على بن يوسف وولاه مدينة فاس وما اليها من الاعمال ثم نقله الى ولاية سرقسطة وبلنسية من شرق الاندلس حيث استشهد سنة 508 وكان ابن ابى الخصال يصحبه فى هذه المدة كلها يكتب له، ويظهر انه صحب ابنه ابا بكر الملقب بابى يحيى قبل صحبته لابيه وخدمه كما خدم أباه وهو الذى لقبه بذى الوزارتين كما سبق عن ابن الآبار، ثم التحق بعد ذلك بخدمة أمير المسلمين على ابن يوسف وعلى ما يفهم من اسجاع الفتح بن خاقان كان تلقيب الامير ابى يحيى له بذى الوزارتين فى حالة سكر أيام قيامهم على على بن يوسف، وابن خاقان وان نوه به كثيرا فان كلامه عنه لا يخلو من مغامز .

وعلى كل حال فنحن نعتقد انه بعد وفاة مخدومه الاول الامير ابن الحاج خدم على بن يوسف كاتبا مع اخيه ابى مروان عبد الملك كما عند (المعجب) وربما كان اخوه هذا هو الذى سعى فى استدعاء امير المسلمين له اذ يظهر من عبارة ابن الآبار انه كان محظوظا عندهم وعالى المكانة لديهم، واذن فقد أخطأ ابن الآبار فى قوله ان صاحبنا لزم داره بقرطبة بعد وفاة ابن الحاج خائفا من تلك الاحقاد القديمة الخ.. فان امير المسلمين كان قد عفا عن ابن الحاج وعن جميع اتباعه وهو منهم فلم يكن لديه ما يخاف منه ولو كان يريد الانتقام منه لما امتنع عليه، واعظم من هذا اننا نرى عبد الواحد المراكشى فى (المعجب) يذكر انه كتب لعلى بن يوسف مع أخيه ابى مروان ولا يكون ذلك الا بعد عطله من العمل، وفي هذه الاثناء كتب رسالته المشهورة فى التشنيع على المرابطين التى استفزت حلم امير المسلمين فعزله عن كتابته وحينئذ يكون لزم داره متخوفا من تلك الاحقاد على حق فى هذا التخوف.

وسياق الخبر كما يستفاد من (المعجب) ان على بن يوسف كان قد استدعى كاتبنا فيمن استدعاهم من اعيان الكتاب الاندلسيين للكتابة عنه وانه كان من انبههم عنده واكبرهم مكانة لديه كما قال ابن الآبار فى اخيه ابى مروان: «فلم يزل ابو عبد الله هذا واخوه كاتبين لامير المسلمين الى أن أخر امير المسلمين ابا مروان عن الكتابة لموجدة كانت منه عليه سببها انه امره واخاه ابا عبد الله ان يكتبا عنه الى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن

رذمير لعنه الله هزيمة قبيحة(1) وقتل منهم مقتلة عظيمة فكتب ابو عبد الله رسالته المشهورة فى ذلك، وهى رسالة كاد اهل الاندلس قاطبة ان يحفظوها، احسن فيها ما شاء، وقد منعنى من ايرادها ما فيها من الطول، وكتب ابو مروان رسالة فى ذلك الغرض أفحش فيها على المرابطين واغلظ لهم فى القول اكثر من الحاجة فمن فصولها قوله: (اى بنى اللئيمة واعيار الهزيمة ، الى م يزيفكم الناقد ويردكم الفارس الواحد ؟ .

فليت لكم بارتباط الخيو ل ضأنا لها حالب قاعد

لقد آن أن نوسعكم عقابا، والا تلوثوا على وجه نقابا، وان نعيدكم الى صحرائكم، ونطهر الجزيرة من رحضائكم) فى أمثال لهذا القول، فاحنق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته وقال لابى عبد الله أخيه كنا فى شك من بغض ابى مروان للمرابطين والآن قد صح عندنا، فلما رآى ذلك ابو عبد الله استعفاه فأعفاه ورجع الى قرطبة بعد ما مات اخوه ابو مروان بمراكش واقام هو بقرطبة الى ان استشهد فى داره رحمه الله أول الفتنة الكائنة على المرابطين(2) .

---

1) انظر عن حروب ابن رذمير والمرابطين ما اورده كتاب القرطاس اثناء ترجمته على بن يوسف وبالخصوص حوادث سنتى 512 و 513 التى سقطت فيها مدينة سرقسطة بيد ابن رذمير وبلاد اخرى من شرق الاندلس، وهى الحوادث المعنية بهذه الهزيمة التى صدرت فيها الرسالة على ما يظهر وابن رذمير هو الفونس الاول ملك اراغون.

2) المعجب ص 176 طبعة دار الكتاب.

وهذا النص ان كان افادنا سبب كتابة الرسالة التى نحن بصددها فان فيه تخليطا على ما يظهر وبيانه:

1 – ان امير المسلمين كلف الاخوين معا بان يكتب كل منهما رسالة فى الموضوع فكتبارسالتين مقذعتين، ولكن التى كتبها ابو مروان كانت افحش من التى كتبها ابو عبد الله، والعجيب ان التى اشتهرت وطارت كل مطار هى التى لهذا الاخير، مع ان الامر ينبغى ان يكون على العكس وهو ان تشتهر الرسالة التى هى اكثر فحشا والتى كانت السبب فى عزل صاحبها، ثم لم يكلف امير المسلمين الكاتبين معا بكتابة هذه الرسالة؟ أكان فى شك من كفاءتهما فهو يريد ان يمتحنهما ؟

2 – ان الفصل الذى اثبته المراكشى وقال انه من فصول رسالة ابى مروان هو فى رسالة ابى عبد الله كما وجدناه فى نصها الكامل بأحد المجامع الاندلسية من مخطوطات مكتبة الاسكوريال تحت رقم 538 منسوبة الى ابى عبد الله، وسيراه القارىء فى هذه الرسالة التى سنثبتها فيما يلى، وهو قد اقتضبه اقتضابا وتصرف فيه بالتقديم والتأخير مما يدل على انه أثبته من حفظه وليس من نسخة كانت عنده .

3 – ان احدا من المؤرخين لم يذكر عن ابى مروان شيئا مما يفيده كلام المراكشى وانما يفيد كلامهم عنه انه كان يحل من أمير المسلمين بمنزلة المحب المكرم، وان الذى نبا به المنزل عنده هو ابو عبد الله وهو فى قول المراكشى نفسه صاحب الرسالة المشهورة

التى كاد اهل الاندلس ان يحفظوها، ثم هو الذى نزح باتفاق معه
من مراكش الى قرطبة وانزوى ببيته فيها خائفا من نتيجة عمله، على
حين ان أبا مروان توفى بمراكش فلم لا يكون توفى وهو فى خدمة
أميره متمتعا برضاه لانه لم يعلق قط بما يوجب تنحيته عن الخدمة
ويسبب له سخط رئيس الدولة ..

4 – ان المراكشى لم يشر الى ان رسالة ابى عبد الله كانت
مدحا او ذما، ومقتضى سيرورتها وحفظ الاندلسيين لها انها من
القبيل الثانى، فلم لم يعاقب ابو عبد الله بشىء وهو صاحب السابقة
فى الخروج والتضامن مع الثائر ابن الحاج؟

ففى نظرنا ان المراكشى وقع له وهم فى هذا الخبر لانه كتب
من حفظه بعيدا عن وطنه، وليست هذه بأولى غلطاته التاريخية التي
نبهنا عليها فى ترجمته من الذكريات(I) وان القريب الى الصواب
ان تكون الرسالة من انشاء ابى عبد الله، وانه هو الذى قال فيه امير
المسلمين لاخيه ابى مروان: «لقد كنا فى شك من بغض ابى عبد الله
المرابطين والآن صح عندنا» لا العكس الذى جاء فى عبارة (المعجب)
واذ ذاك استعفى ابو عبد الله فاعفى ورجع الى قرطبة ولزم داره
وبقى ابو مروان فى منصبه حتى توفى.

والآن نرجع الى الرسالة التى قلنا اننا عثرنا عليها فى مجموع
اندلسى من مخطوطات المكتبة الاسكوريالية فنقول انها تقع فى
صفحتين من هذا المجموع وثلث الصفحة وكل صفحة تحتوى على 21

I) انظر الحلقة 28 من الذكريات الخاصة بترجمة المراكشي

سطرا وخطها كباقى المجموع الاندلسى واضح وان كان لا يخلو من تحريف، وهى مسبوقة برسالة صادرة عن تاشفين ابن على الى اهل بلنسية لم يسم كاتبها ومتبوعة برسالة أخرى من انشاء كاتبنا مما كتب به عن امير المسلمين عند جوازه من سبتة للجزيرة الخضراء ، والمهم أنه فى نهاية رسالتنا هذه وردت هذه العبارة: « كمل ما كتب به الفقيه الاديب الكاتب البليغ الاديب ذو الوزارتين ابو عبد الله بن أبى الخصال عن امير المسلمين» فلم يبق شك فى انها لصاحبنا ابى عبد الله لا لاخيه ابى مروان، وبما ان العبارة التى اوردها صاحب المعجب ونسبها لابى مروان هى من رسالة صاحبنا هذه فقد ترجح بذلك ان ليس هناك الا رسالة واحدة فى الموضوع وانها من انشاء ابى عبد الله لا غير .

وسيرى القارىء لهذه الرسالة ان كاتبها افحش فيها غاية الافحاش وتناول المرابطين بالقدح فى دولتهم والطعن فى اصلهم فجعلهم من بقايا بنى الاصفر وهم ـ كما علم ـ ينتسبون فى صنهاجة الى حمير ـ ثم عيرهم بالجبن والبداوة واللؤم وجعل دخولهم للاندلس نكبة ووبالا عليها، وانها بحاجة الى التطهير منهم، ولم يدع سبة ولا كلمة تنال من كرامتهم تصريحا او تلويحا الا رماهم بها، كأنه يهتبل هذه الفرصة ليعبر عن حقد دفين عليهم، ومع ذلك يقال انه لم يحظ عندهم ولم ينل ما يستحقه من العطف والتقدير، فالعجب كيف سلم بجلده بعد هذه الفعلة الشنعاء، واقتصار امير المسلمين مع ذلك على اعفائه من الكتابة عنه لهو فى نظرنا مغربة الاخبار فى الحلم والسماحة

والصفح فلو صدر بعض ما فى هذه الرسالة من الذم والهجاء من احد كتاب الاندلس او شعرائها فى احد ملوك الطوائف الذين يقال انهم كانوا يبرون الادباء ويكرمونهم ويوفون لهم حقهم، لما كان جزاؤه الا القتل، لا ان يستعفى ويذهب لحال سبيله فيأوى الى بيته خائفا يترقب على ما قيل؟..

ومما يؤكد ان صاحبنا كان ناقما على القوم لسبب ما، وربما كان هو خيبته السياسية كما قدمناه، انه توفى مغتالا فى فتنة ابن حمدين الذى اراد ان يغتنم فرصة انحلال الدولة المرابطية فدعا لنفسه فى قرطبة ولم يتم له أمر بدخول الموحدين اليها وقضائهم عليه وعلى رؤوس الفتنة جميعا، فهل شارك هو ايضا فى هذه الفتنة بما اوجب اغتياله؟..

وبعد فهذا نص رسالته رحمه الله وعفا عنه، وكنا نود ان نشرحها بما يوضح معناها للعموم فرأينا ذلك يطول وحبذا لو وقع ضبطها بالحركات فى الطبع على ما ضبطناه فى الخط فذلك مما يعين القارىء المتوسط على فهم اغراضها البعيدة المرمى، ولا شك ان امير المسلمين ادرك جميع معانيها الخفية حتى تأثر بها وسرح كاتبها من خدمته وهذا وحده مما يكفينا للدلالة على ما كان عند الامراء المرابطين من ثقافة عربية متينة.

(مـن امير المؤمنين وناصر الدين اما بعد يا فِرْقة خَبُثَتْ سرائرها، وانتكثَتْ مَرائِرُها، وطائفةً انتفخ سَحْرُها، وغاض على حين مَدِّه بحرُها، فقد آن للنعم أن تُفارقكم، وللاقدام ان تطأ مَفارِقكم،

حين ركبتموها جلواء عارية، واصبحتم فى ادراع عارها أمثالا سواسية،
واختلط المرعي منكم بالهمل، فما يتميز الأنقص من الأكمل،
فطأطأتم لها رؤوس عشائركم، وقضيتم بالفسولة على سائركم
لا جرم ان قد صرتم سمر الندي، والاحاديث الملقنة بالغداة والعشي،
بما خامركم من الجبن والخور، واستهواكم من لقاء عدوكم بالجانب
الأزور، لا تواجهونهم طرفة عين، ولا تعاطونهم حمة حين، بل
تعطونهم الضرة هنيا مريا، وتتخذونهم وراءكم ظهريا، والرماح
نحوكم لم تشرع، والخيل لم تسرع، والنفوس فى حياض المنية لم
تكرع فانكم ثلة ذئابهم، وفريسة انبابهم، قد نقهوا فى بوسكم،
وناهضوكم بلبوسكم وحابوركم عاما على اثر عام، حتى الزقوكم بالرغام،
وتركوكم أسلح من حبارى وأشرد من نعام، فالآن حين ملأتم ايديهم
متاعا، ووديهم سلاحا وكراعا، قد غزوكم فى عقركم، واذاقوكم وبال
امركم، فلذتم بالجدران، وبؤتم بالندامة والخسران، يا بقايا بنى
الاصفر، وسجايا ذوات الذل والخفر، اكرهتم زحافهم، وكنتم علم
الله اضعافهم، أنى لكم بالمعذرة واين، وقد فرض الله الواحد منكم
بالاثنين، فقال ان تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، هذا وكلمتكم
العليا، وحلوبتكم الحياة الدنيا. ما شئتم من صارم وطرف ونحض
وركائب وسوام، ونضائد وخيام، فيا أسفا للحق يدمغه الباطل،
والحالى يبهره العاطل، لا بالحنيفية تحرزتم ولا الى الحفيظة والانابة
تحيزتم، ليت شعرى بماذا تقلدتموها هندية، واعتقلتموها سمهرية
خطية، وركبتموها جردا سوابق، وملكتموها مغارب ومشارق، ثاوين

فى غبس عبدادكم، مُنتزَين على اضدادكم يؤدون الاتاوة اليكم ، حين أشرقتموهم بالهوان، وانتم فيهم غرباء الوجه واليد واللسان وصيروكم عبيد العصى. وليسوا بالاكثر منكم حصا(1) بل شرذمة قليل نفعها، كثير نجعها فيا عجبا لذهوكم، شبانكم وكهولكم، تأكلون تمرها، ولا تْصَلون جمرها، وتذهبون بحلوائها، ولا تصبرون على لاوائها، أى بنى اللئيمة واعيار الهزيمة، الى مَ يُزيفكم(2) الناقد ويردكم الفارس الواحد:

الا هل أتاها على نأيها بما فضحت قومَها غامد

تمنيتم مائتى فارس فردكم فارس واحد

فليت لكم بارتباط الخيول ضأنا لها حالب قاعد (3)

ومن لرعاة الابل، بالجد المقبل، لقدما ما أذهبتم التالد والطارف وعجت عجيجا من جذام(4) المطارف، وانتم قد قدحتم فى ملكنا، وآذنين

---

1) بالاصل: ولستم بالاكثرين منهم حصا، والتصحيح من الطرة، لكن ان ناسب المعنى الذى قبله فليس يناسب الذى بعده والعبارة على كل حال مقتبسة من قول الشاعر:

ولست بالاكثر منهم حصا وانما العزة للكاثر

2) بالاصل: يريعكم والتصحيح عن المعجب فضلا عما يقتضيه لفظ الناقد من التزييف.

3) الابيات لامرأة من غامد تسخر من قومها وقد هزمهم ربيعة بن مكدم الفارس المشهور وحده.

4) هذا من قول الشاعر فى روح بن زنباع :

نبا الخز عن روح وانكر جلده

وعجت عجيجا من جذام المطارف

يصف تمكن روح عند السلطان ولباسه الخز ولم يكن من اهله والمطارف جمع مطرف وهو الثوب المعلم.

بانتشار سلكنا، فلولا من لدينا من ذويكم، وضراعتهم الينا فيكم، لالحقناكم عجلا بصحرائكم، وطهرنا الجزيرة من رُحَضائكم، بعد ان نوسعكم عقابا، ونحد ان لا تلووا(1) على وجه نقابا ، فاللؤم تحت عمائمكم، والوهن والفشل طي عزائمكم، لكن ما جبلنا عليه من الاناة، وتوخنياه قدما من إقالة ذوى الهيئات يكفنا عن استيصالكم، ويحملنا على شحذ نصالكم، فاستنسروا يا بغاث الهيجاء واستتيسوا بعد الوجاء، واحذروا حلما اغضبتموه، وواديا من الصبر انضبتموه، وتوقوا صدرا احرجتموه، وليثا من اجمته اخرجتموه، وايم الله نقسم انذارا بكم واعذارا لكم، لنوردن الفار منكم من الزحف، ما عافه من مورد الحتف، ولنتجاوزن السوط الى السيف، ولنبدلن المعدلة فيكم بالحيف، فليعلم المحجم منكم عن الاقدام، انه سلم من الحمام الى الحمام، وتخطى مصرع الاسد الباسل، الى جذع ماثل وبشهادة الابرار، الى مشهد الذل والصغار، كما ان من اصيب منكم فى حرب او أبلى بطعن او ضرب خلفناه فى الاهل والولد، وبعناه الاثرة والكرامة يدا بيد، فاختاروا لانفسكم واعقابكم، وانضوا ثوب الخزى عن رقابكم، والسلام على من حمى الاسلام).

---

1) بالاصل: تلوا فلعل الواو الثانى سقط عند النسخ وفى المعجب تلوثوا وهى احسن.

هل لفظ سوقة استعمال عفى عليه الزمن ؟

كتب صديقنا الاستاذ عبد القادر الصحرواى فى مجلة «دعوة الحق» كلمة طيبة عن ديوان ملك غرناطة، يوسف الثالث، الذى حققناه ونشره معهد مولاى الحسن للابحاث بتطوان. ونحن نشكره على اعتنائه وما اثنى به على الديوان ومحققه، ونحب ان نراجعه فيما لاحظه على استعمالنا لكلمة سوقة فى مقدمة الديوان حين تكلمنا على تاريخ الشعر فى الاندلس بلمحة خاطفة وقلنا ان مؤرخى الادب العربى يقفون به عند لسان الدين بن الخطيب، وقل منهم من تجاوزه الى ابن زمرك وابن عاصم كما فعل الرافعى فى كتابه تاريخ آداب العرب.

وقلنا باثر ذلك «وهذا كله فى شعر السوقة اعنى غير الامراء والملوك. اما هؤلاء فقد وقف التاريخ بهم عند ملوك الطوائف وعلى الاصح عند المعتمد بن عباد الذى هو بحق اشعر امراء الاندلس وملوكها على الاطلاق. والرافعى نفسه الذى عقد فى تاريخه فصلا لادباء ملوك الاندلس وتتبع ذكرهم واحدا بعد واحد، لم يعد بهم آخر

القرن السادس. فاذا جئنا اليوم نزف الى العالم العربى بشرى وجود ملك اندلسى شاعر فى العصر الذى فقد فيه او عدم حتى الشعراء السوقة من الاندلس، فانما نكون قد اضفنا الى تاريخ الشعر فى الفردوس المفقود صفحة ذهبية طالما طوتها عوامل الاهمال وعدت عليها عوادى السنين» .

هكذا جاء لفظ سوقة فى كلامنا مستعملا بمعناه اللغوى الذى يقابل لفظ ملك والذى لم يستسغه الاستاذ الصحرواى فكتب عليه ما نصه «والذى نعرفه ويعرفه الاستاذ عبد الله كنون بكل تاكيد هو ان الناس والشعراء من ضمنهم، لا ينقسمون الى امراء وملوك من جهة، وسوقة من جهة اخرى. واذا كان لابد من تقسيم من هذا القبيل بالذات، فانهم ينقسمون الى ملوك وامراء من جهة وغير ملوك وغير أمراء من جهة اخرى، وليس من اللازم ان يكون هؤلاء جميعا سوقة.. على ان لفظ سوقة استعمال قديم عفى عليه الزمن، ولم يعد هناك مبرر لاستعماله فى عصر ارتفعت المواطنة فيه بالمواطن الى الدرجة التى تفرض احترامه بقطع النظر عن مركزه الاجتماعى او مستواه المادى او العقلى او غير ذلك».

ونقول على كون لفظ سوقة استعمالا قديما، هذا صحيح. واما انه عفى عليه الزمن فليس كذلك. ولعل من اشهر الشعر الذى جاءت فيه هذه الكلمة قول حرقة بنت النعمان بن المنذر:

فبينا نسوس الناس والامر امرنا
اذا نحن فيه سوقة نتنصف

ومن شواهد العروضيين

يا جار لا ارمين منكم بداهبة
لم يلقها سوقة قبلى ولا ملك

وهو لزهير بن ابى سلمى.

واللفظ واقع فى شعر لبيد والنابغة وغير واحد من شعراء العربية الاقدمين فلا نطيل بذكرهم.

ومن المحفوظ ما انشده الخليفة المعتصم عند احتضاره :

الموت فيه جميع الناس مشترك
لا سوقة منهم يبقى ولا ملك

ولابن بسام :

اف من الدنيا وايامها فانها للحزن مخلوقة
غمومها لا تنقضى ساعة عن ملك فيها ولا سوقه
يا عجبا منها ومن شأنها عدوة للناس معشوقه

وانشد الاستاذ جبر ضومط فى كتابه فلسفة اللغة العربية وتطورها هذا البيت:

مضى ذكر الملوك بكل عصر
وذكر السوقة العلماء باق

واخيرا هذا شوقى امير الشعر فى عصرنا الحاضر يقول فى بيت له من رواية قمبيز على لسان المالكة نتيتاس :

اجل قد خلعنا ملكنا وتصرفت
بنا سوقة من جندنا وموال

هذا فى الشعر وفى النثر لست احصى من استعمل هذا اللفظ فى القديم والحديث، ويكفى أن اشير من كلا الفريقين الى الجاحظ واخوان الصفا وجبر ضومط فى كتابه المذكور وسعيد العريان فى مقدمة كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشى الذى استعمله هو الآخر مرارا مما يدل دلالة كافية على ان اللفظ لم يعف عليه الزمن وان الناس ما زالت تستعمله منذ وضعه الواضع حتى الان بمعناه الذى جاء به فى كلامى.

ولعل ما حمل الاستاذ على استنكاره هو ما يسبق اليه ذهن بعض الناس من انه بمعنى السوقى فيكون ذما ، وليس هو كذلك فان السوقة عند العرب هم الرعية، يقال للواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، وربما جمع على سوق بضم ففتح ويقابله الملك، وسميت الرعية سوقة لان الملك يسوقهم ويصرفهم على ارادته . وليس كل لفظ التبس معناه فى ذهن العامة يجب تركه، فلا يزال بعضهم يفهم من قوله تعالى (غثاء احوى) ومن قوله (القارعة ما القارعة) ما يسبق الى ذهن صبيان الكتاتيب من لفظ الآيتين الكريمتين ، ولكن لا احد يرى ترك اللفظ الموهم فيهما مجاراة للفهم الخاطىء.

بقيت كلمة صغيرة على قول الاستاذ ان المواطنة ارتفعت بالمواطن الى ما قال ، ومن ثم فانه لم يبق مبرر لاستعمال ذلك اللفظ ، واظنه لا يخفى عليه انه فى مجال الحكم لم يتغير اى شئ وانه ما زال الناس كما كانوا فيما سبق يساقون من قبل الحكام

ملوكا كانوا او غير ملوك ، وليننظر فى حال ارقى البلاد اليوم واشدها تمسكا بما يسمى بالديموقراطية ، أليس يرغم فيها الناس على خوض غمار الحروب التى لا فائدة لهم منها اطلاقا(I) وتوخذ اموالهم لتصرف فى كثير من الابواب التى لا نفع فيها قطعا ، ويحجر عليهم فى كثير من التصرفات وان اقتضتها مصالحهم لاعتبارات شتى لا تدخل فى حفاظ على نفس او مال او دين ، فهل هذا الا السوق والدفع والزبن الذى منه اخذ لفظ السوقة ؟

هذا على الصعيد الجماعى واما على الصعيد الفردى فان ما عومل به سقراط فى ظل اقدم حكم ديموقراطى عرفناه وما عومل به باسترناك فى هذه الايام على عهد المواطنين الرفقاء الاشتراكيين الديموقراطيين، يكفينا لمعرفة ما اذا كان هناك مبرر لاستعمال لفظ سوقة او لا ..

ولعلنا وقد هذبنا اللفظ ولم نعد نقول حتى ما فسر به من الرعية وصرنا مواطنين لا رعايا فقلنا بدله الشعب، ألم تاخذ هذه الكلمة هى ايضا معنى الغضاضة التى لم نقبلها فى لفظ سوقة؟ ألسنا حين نريد ان نضع من قدر الشخص نقول فيه انه رجل شعبى؟

وشىء آخر فان الذين قالوا ملك وسوقة جعلوا الامة طبقتين، ونحن الآن نجعلها ثلاث طبقات فنقول ملك وحكومة وشعب وملك هنا تعنى ما يشمل الرئيس. فقد زيد فى الشطرنج بغل وهو الحكومة فى عصر المواطنة. واظن الاستاذ لا يختلف معى فى ان هذا التقسيم

I) الاشارة هنا الى حرب كوريا

يقتضي امتيازات ومعاملة خاصة لكل طبقة من طبقاته، ولا ادل على ذلك من هذه المحاباة التى تقع فى هذه المجلة التى يشرف عليها هو نفسه. ألم يلاحظ انه عند ما ينصب ميزان النقد للعدد السابق فى كل عدد لاحق، كيف يتجنب الناقد انتـاج الوزراء وذوى المقامـات الكبيرة ممن يضر وينفع فيمر عليه مـر الكرام ولا يتناوله مـن اى جهة كأنه غيـر منشور فى المجلة ، اللهـم إلا اذا كان سيكيـل له المدح والثناء كيلا؟ اما انتاج السوقة، وهى هنا لم تبق تقابل الملك فقط بل الملك واعضاء الحكومة، فانه يتناوله من جميع اطرافه ويقول فيه كلمته ولو لم يكن لها محل من الاعراب.

واذن فان معنى السوقة لا يختلف عـن معنى الرعية والشعب ان لم يكن اصح منهما، ولفظه ما يزال مستعملا لم يعف عليه الزمن، ونظن انه لن يعفى عليه حتى يرحمنا الله بعصر لا يكون فيه فرق بين المواطنين سواء كانوا حاكمين او محكومين .

واخيرا اكرر شكرى للصديق الاستاذ عبد القادر الصحراوى على ما قرظ به ديوان ملك غرناطة ونوه بعملى فى تحقيقه .

مساهمة المغرب فى تقدم الثقافة العربيـة

يحكى ان الصاحب بن عباد لما سمع بكتاب «العقد الفريـد» لابن عبد ربه اشتدت رغبته فى اقتنائه والاطلاع عليه. وعندما حصله وتصفحه قال: «هذه بضاعتنا ردت الينا، كنت اظن انه يشتمل على شيء من اخبار بلادهـم، فاذا هو لا يعـدو اخبار بلادنا. ردوه الـى صاحبه، لا حاجة لنا به».

ومنذ قال الصاحب هذه الكلمة والناس يحملونها محمل الزراية على ابن عبد ربه وكتابه، وهى كذلك حقيقة تاريخية عن واقع الحياة الادبية فى الاندلس على عهد ابن عبد ربه، وهو عهد خلفاء قرطبة من بنـى أميـة.

فقد كان ذلك العهد فى الحقيقة امتدادا لعهد الخلفاء الامويين فى دمشق، السياسة سياستهم، والاجتماع والادب ما كانا عليه أيام عبد الملك بن مروان وأبنائه فى العاصمة العربية الخالدة. وفيما كانـت بغداد تبنى مجدها ومجد العرب العلمى على اساس النقل والترجمة

وتطور الفكر والحضارة بالاقتباس مـن الامم التى سبقتهم فى هـذا الميدان، كانت قرطبة ما تزال تركـز صبغتها العربية فتوفد رجـالا للتضلع من الثقافة العربية الاسلاميـة فى منابعها الاصلية بالمدينـة وغيرها، وتستقبل آخرين من اعلام هذه الثقافة الواردين عليها من المشرق كأبى على القالى وصاعد البغدادى، فيلقون من الحفاوة والاكرام ما كان يلقاه الاطباء والفلاسفة حينذاك فى بغداد عاصمة العباسيين.

ولامر ما كان ظهور كتاب «الاغانى» لابى الفرج الاصبهانى فى الاندلس قبل ظهوره فى المشرق موطن مؤلفه.

واذن فان ابن عبد ربه لم يكن الا حاكيا لصدى الثقافة المنتشرة فى بلاده، ومعبرا أمينا عن التيارات التى توجه هذه الثقافة.

وبديهى اننا لا نعنى انصراف بغـداد عن الاهتمام بالثقافـة العربية الاسلامية وتشجيعها، ولا اهمال قرطبـة اهمالا كليا للعلـم والفلسفة، وانما نقصد ان هذه هى الحالة التى كانت غالبة على كل من العاصمتين .

وحديثنا عن الاندلس يشمل المغرب العربى كله، ففى القيروان بالمغرب الاوسط، وفى فاس بالمغرب الاقصى، لم يختلف الاتجاه عما رأيناه فى قرطبة، وان لم تبلغ هاتان العاصمتان قط مبلغ قرطبة فى نمو الحياة الادبية وازدهارها لاسباب معروفة.

اما متى تبوأ المغرب مكان الصدارة فى الحياة الفكرية العربية، وأسهم مساهمته الفعالة فى تقدم هذه الحياة، فذلك حين توحد على يد امراء المسلمين من ملوك المرابطيـن، ثم على يد خلفاء الموحدين،

وتابع طريقه بعد ذالك الى هذا اليوم. فقد كانت الانتكاسة التى حلت بالاندلس بعد انقراض دولة الامويين وقيام ملوك الطوائف توذن بانحسار المد العربى فى هذه البلاد، لو لم يسارع البطل المغربى العظيم يوسف بن تاشفين لانقاذها. وفضل هذا الملك فى استرجاع الاندلس الى حظيرة العروبة والاسلام بعد ان اشرفت على الضياع لا يعادله الا فضل فاتحها الاول طارق بن زياد المغربى.

ومعلوم ان الشرارة التى اعدت الغرب الاوربى فاقامت فيه هذه المدنية الحديثة انما انبعثت اليه من الاندلس فى هذا العهد، فان فلسفة ابن رشد وابن طفيل وابن باجة وابن زهر وطبهم هما اللذان فتحا اعين الاوربيين على حقائق العلم الصحيح ونتائج المعرفة المبنية على التجربة والمشاهدة. وهؤلاء الاعلام انما نبغوا فى ايام المرابطين وانما آتوا اكلهم الشهى فى ايام الموحدين. فمن الثابت تاريخيا ان الخليفة الموحدى يوسف بن عبد المومن هو الذى حمل ابن رشد على تلخيص فلسفة أرسطو وتهذيبها وكتابة ما كتب عليها من الشروح والتعاليق. وكان هذا الخليفة أشبه الملوك بالمامون العباسى فى الشغف بعلوم الحكمة والعمل على نشرها. وكان هو نفسه متحققا بكثير من مسائلها مشاركا فى جملة من فنونها ويقول عبد الواحد المراكشى فى كتابه المعجب « انه استظر من الكتاب الطبى الملكى اكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ثم تخطى ذلك الى ماهو اشرف منه من انواع الفلسفة ».

وكان قد استوزر الفيلسوف ابا بكر بن طفيل، وهو الذى دله

على ابن رشد فاستدعاه وافضى اليه برغبته المذكورة كما حكى ذلك المراكشي في تاريخه عن تلميذ له اسمه ابو بكر بن داود القرطبي عنه قال: «استدعاني ابو بكر بن طفيل يوما فقال لي: سمعت امير المومنين يشتكي من قلق عبارة أرسطو طاليس او عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض اغراضه ويقول: لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب اغراضها بعد ان يفهمها جيدا لقرب مأخذها على الناس، فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل. واني لارجو ان تفي بها لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك الى الصناعة. وما يمنعني من ذلك الا ما تعلمه من كبر سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي الى ما هو اهم عندي منه. قال ابو الوليد: فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسطو طاليس».

واما عن النهضة الادبية فان ما عرف الناس منها على عهد المرابطين ثم الموحدين اعظم بكثير مما عرفوه على عهد من قبلهم. والمجموعات الادبية الكثيرة التي تضم عددا عديدا من اسماء الشعراء والكتاب النابغين في المغرب والاندلس انما صنفت في ايام توحيد المغرب. وبأسماء ملوكه وامرائه، مثل قلائد الفتح بن خاقن وذخيرة ابن بسام وصفوة الجراوي وما اليها. وهي الدواوين التي تضمنت طَلِبَةَ الصاحب بن عباد، ولو رآها لما قال كلمته تلك، ولكن أنى له ان يراها وهي انما ألفت بعد زمنه في عهد اكتمال الشخصية المغربية وازدهار الثقافة العربية في هذه البلاد.

والعجب من المستشرق «راينهرت دوزي» في ادعائه ان الحياة

الادبية بالاندلس قد اضمحلت بعد استيلاء المرابطين عليها، وها نحن اولاء نرى العكس، وقد خطأه فى ذلك المستشرق الاسبانى «كارسيا كوميس» ولكنه عاد فوقع فى مثل خطئه بحكاية الاقوال الضبيانيـة التى نسبها بعض الموتورين الى يوسف بن تاشفين. وهى عقدة يصعب على الكتاب المسيحيين ان يتخلصوا منها مهما تحلوا بصفة الانصاف.

والآن نذكر بعض الاعمال التى قام بها افراد من المغاربة فـى سبيل نشر الثقافة العربية الاسلامية ورفع لوائها الخفاق فى كثير من الآفـاق .

فالى جانب طارق بن زياد ويوسف بن تاشفين يجب ان يذكر الامير ابو بكـر بن عمر اللمتونى الذى تنـازل عن الملك لابن عمـه يوسف، ومضى هو ينشر الدعوة الاسلامية، وفى ركابها طبعا اللغـة العربية بين أقطار افريقية الغربية. فزهد فى المال والجاه والنعمـة بأرض المغرب الفيحاء، ودخل الصحراء التى يلفح سَمُومُها، ويقتل حرُّها، وتوغل فى بلاد السوادين، مبشرا بكلمة الله، مقدما بين يديه المصحف الكريم، فلم ينته حتى وصل الى حدود غينيا. وهكذا خفقت راية الاسلام فوق السينكال ومالى والنيجر، وتبع ذلك انتشار العلوم الاسلامية والعربية التى ما فتئت جامعة القرويين تغذى ابناء هـذه الاقطار بلبانها حتى يومنا هذا.

وعلى ذكر القرويين فاننا لا نغفل دور هذه الجامعة فى خدمـة الثقافة العربية الاسلامية وتقدمها ونشرها فى اقطار المعمور. ونقول فى اقطار المعمور ونحن نعنى ما نقول. فقد كرع من حياضها رجال

لا يحصون من أهــل المشرق والمغرب ومـن أروبا ايضا وظلت منذ تأسيسها سنة 245 وهى منارة اشعاع فكــرى فى العالم الاسلامى الى جانــب شقيقاتها جامعــة الزيتونة وجامعــة الازهر وجامعة النجف الشيعيــة .

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا ذكر النابغين من ابناء المغرب فى مختلف العلوم اسلامية وقديمة ولذلك فاننا نكتفى ببعض الامثلة التى فيها غنية عن الاكثار. ونبتدىء بالعلوم الاسلامية لشرفها.

ففى هذا الميدان من الاختصاص العلمى لانقدم الا شخصا واحدا وهو القاضى عياض الذى قيل فيه:

مشارق انــوار تبــدت بسبتــة
ومن عجب كون المشارق بالغرب

وسبتة هى بلده. وفى هذا البيت تورية بكتابه «مشارق الانوار فى غريب الحديث والآثار»، وهو كتاب من الشهرة بمكان. وقد قيل فى اجابة صاحب هذا البيت :

وما فضل الا رجــاء الا رجالهــا
والا فلا فضل لترب على تــرب

وكان هــذا الفاضل محدثــا وفقيها واديبــا ولغويا كبيــرا . وخلف من الكتب الممتعة ما جعله احد اعلام الفكر فى العالم الاسلامى والعربى. وترجمه بصفته الادبية الفتح بن خاقان فى قلائده. وألف فيه العلامة المقرى كتابه أزهار الرياض وهو يقع فى اربعة مجلدات.

ومن كتبه الاسلامية الشهيرة كتاب «الشفا». هذا الكتاب الذى

غزا العالم الاسلامى كله، عربيه وعجميه، بحيث اصبح من الكتب المقدسة التى يتبرك بتلاوتها ويستشفى بقراءتها. وهو فى تحليل حياة النبى صلى الله عليه وسلم وسيرته، والذب عن المطاعن والشبهات التى يوردها الملاحدة فى هذا الصدد.

واشتهر كذلك من كتبه التاريخية كتاب «المدارك» وضعه فى حياة الامام مالك واصول مذهبه وترجيحه على المذاهب، وتراجم كبار أصحابه والفقهاء من اتباع مذهبه من أهل الاقطار الاسلامية. ويقع فى اربعة مجلدات.

وكتبه كثيرة يضيق المقام عن تتبعها، ويكفى من القلادة ما احاط بالعنق .

ومن نبغاء اهل المغرب فى علم العربية من جاذب سيبويه حبل الذكر، وتقمص معه جلباب الشهرة، وهو ابن آجروم فذاك ألف «الكتاب» فضمنه علم النحو بجميع قواعده وشواهده، وعصم لسان العرب من اللحن على كونه اعجميا، وهذا وضع «الآجرومية» فجعلها مقدمة الكتاب ومدخلا له، لم يلجه أحد الا من بابها، وغبر زمان طويل لم يكن اعتماد العرب فى تثقيف ألسنة ابنائهم الا عليها مع كون صاحبها اعجميا ايضا. ولقد بلغ من تقدير العرب لهذا الرجل ومقدمته الصغيرة ان أطلقوا اسمها على علم النحو فقالوا: «الآجرومية» وعنوا النحو حتى التبس ذلك على احد الاعلام من رجال النهضة الحديثة، وهو الدكتور يعقوب صروف صاحب مجلة «المقتطف»، وظن العرب اخذوا هذا الاسم من لفظ Grammaire اليونانى الاصل الذى يعنى النحو.

وفى علم اللغة ناهيك بابن الطيب الفاسى الذى اربت كتبه على الخمسين. من اعظمها فائدة واكثرها عائدة حاشيته الكبرى على قاموس الفيروزبادى التى استقى منها كثيرا شارحه الشيخ مرتضى الزبيدى فى تاج العروس واعترف بأنه شيخه فى هذا العلم.

اما الشعر والادب فعندنا الشاعر ابن حبوس الفاسى، وهو يعدل بابن هانىء متنبى المغرب، والكاتب ابو جعفر بن عطية ويعدل بابن زيدون، والشاعر الجراوى صاحب كتاب «صفوة الادب» المعروف بالحماسة المغربية، والاديب الشاعر المتفنن مالك بن المرحل، وكان غاية فى النوادر والملح والاخبار، وامتاز من بين شعراء المغرب بتنوع مقاصده وكثرة اغراضه وسعة عارضته وقوة ملكته، وله عدة دواوين شعرية ومؤلفات فى اللغة والادب وفنون المحاضرة، منها كتاب «الضرب بالعصى والرمى بالحصى» الذى حاور فيه ابن ابى الربيع النحوى، وغيره. ويشبهه فى المتأخرين ابن زاكور الاديب الشاعر المؤلف، وله ديوان شعر معروف وشرح على ديوان الحماسة سماه «عنوان النفاسة»، وشرح على قلائد العقيان، وكتب أخرى من هذا القبيل.

وبين ابن المرحل وابن زاكور شعراء آخرون كثيرون لا فائدة فى ذكر اسمائهم من غير ذكر لآثارهم. ومعاصر ابن زاكور محمد بن الطيب العلمى وحده ترجم فى كتابه «الانيس المطرب» لاثنى عشر اديبا من اهل عصره، وذكر جملة من اشعارهم ورسائلهم فيها الكثير الطيب. بل ان عصرينا المرحوم محمد غريط قد ذكر فى كتابه

«فواصل الجمان» نحوا من ثلاثين اديبا ممن ادركهم هو، وترجمهم بطريقة النثر الفني الذى كان بارعا فيه. فالمجال فى هذا الباب واسع وما ألممنا به منه فيه مقنع.

واذا التفتنا الى فن التاريخ والتراجم فاننا نرى رصيد المغرب فى هذا الفن مما يغنى ويقنى. فالمراكشى وابن عذارى وابن ابى زرع وابن القاضى والفشتالى والافرانى والزيانى والناصرى وابن جعفر الكتانى وابن زيدان وغيرهم اسماء لامعة خدمت التاريخ السياسى والادبى لهذا الجناح من العالم العربى خدمات جلى لولاها لساد الظلام على فترات تاريخية من حيوات اجيال يهم كل عربى ان يعرفها، لارتباطها بماضى موطنه الكبير، ولما اشتمل عليه من احداث واعمال يحق له ان يفخر بها ويعدها من مآثر امته العظيمة.

ولا ننسى الجغرافية والرحلات، فالشريف الادريسى كان اول من وضع خريطة مدققة للعالم بعد بطليموس. وقد صنعها فى شكل كرة من الفضة ومثل عليها اقسام اليابس والماء، وتحرى فى ذلك ما لم يتحره احد قبله بحيث بقيت خريطته هذه مدى سنين أصح خريطة للعالم. وألف كتاب «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» فسر فيه هذه الخريطة وتوسع فى جغرافية الارض فلكية وطبيعية وفلاحية وعمرانية بما لا مزيد عليه فى الدقة التى يمكن ان يتوصل اليها العلم آنذاك.

وجاء الرحالة ابن بطوطة بعده فجاب أقطار المعمور وعرف من المجاهل فى افريقيا وغيرها ما لم يعرفه احد قبله وكتب لنا رحلته

الممتعة «تحفة النظار» التى ما تزال تستهوى الرواد وعشاق الاسفار في كل بلد حتى الآن.

اما العلوم القديمة او الكونيـة التى تعد تراثا مشتركا بين الشعوب، فان المغرب لم يقصر فيها عن غاية بلغتها امة من الامم فى العصور السابقة، بل شارك فى تقدمها وعمل على نشرها حتى كان ما اشرق من نورها على اوربا فى العصور المتوسطة انما اشرق عليها من جهته كما مر آنفا. ومن المشهور ان البابا سلفستر الثانى قد درس بفاس، وكان يبهر معاصريه بتفننه فى العلوم وانه الذى ادخل الى اوربا الارقام العربية المستعملة فيها الى الآن. وهى احد الشكلين اللذين كان للعرب فضل ابتكارهما، هذا الشكل الذى اخذه الاوربيون وبه العمل فى المغرب، والشكل الذى يعرف بالهندى وبه العمل فى المشرق العربى. نص على ذلك الرياضى المعروف ابن الياسمين فى كتابه تلقيح الافكار.

وابن الياسمين هذا كان من الشخصيات العلمية الفريدة. وهو الى تمكنه فى الادب والشعر امتاز بتضلعه فى العلوم الرياضيـة واشتهرت ارجوزته فى الحساب والجبر ايما اشتهار، وهى تتضمن خلاصة كثير من القوانيـن والمعادلات الجبريـة التى توجد فى كتب الجبر الحديثة. كما له كتاب «تلقيح الافكار فى العمل برسوم الغبار» يعنى الارقام الحسابية العربية بشكليها المذكورين، وهو كتاب قيم جمعه من مذكراته التى كان يلقيها على طلبته فى العلوم الرياضية.

وبجانب ابن الياسمين يذكر ابن البناء العددى الذى طبقت

شهرته الآفاق، ورفع من ذكر بلده مراكش بما نبغ فى علوم العدد والحساب والهندسة والنجوم. وقد ترجمت كتبه الى اللغات الاوربية من زمن طويل. وتبنى بعض الرياضيين بعض نظرياته فى هذا الصدد، كما كشف الستار عن ذلك الرياضي الفرنسي شال. ومن شدة تأثير كتبه في تقدم العلوم الرياضية ان كلمة Almanach التى تفيد معنى التقويم الزمنى انما اخذت من اسم كتابه «المنهاج» كما يقول سارطون يعنى «منهاج الطالب فى تعديل الكواكب» وهو من كتبه المشهورة، وله فى الحساب كتاب «التلخيص» سار كل مسار وكتبت عليه الشروح العديدة، وقال فيه ابن خلدون: «انه ضابط لقوانين اعماله مفيد» وله ايضا «رفع الحجاب» وهو اكبر من التلخيص، قال عنه ابن خلدون: «وهو كتاب جليل القدر ادركنا المشيخة تعظمه وهو جدير بذلك .ـــ» الى كتب اخرى فـــى الفلك والهندسة والفلاحة والعلوم الروحانية.

وكـــان ابو على الحسن بن على المراكشي مـــن اعظم رياضيي العرب فى القرون الوسطى، اعترف له بذلك علماء الغرب المحدثون، وهو صاحب كتاب «المبادى والغايات فى علم الميقات» الذى يقول فيه صاحب كشف الظنون «انـــه اعظم ما صنف فى هـــذا الفن.» ونـــوه سيديو بصواب تصحيحاته فى الجغرافية الفلكية وبسبقه الى استعماله الخطوط الدالة على الساعات المتساوية، فان اليونان لم يستعملوها قط.

ولو ذهبنا نذكر جميع الرياضيين المغاربة وخصوصا الفلكيين منهم وما لهم من آثار. لما وسعنا هذا المجال الضيق، وفى خزائننا

من تآليف علماء المغرب في هذا العلم فقط عشرات الكتب والرسائل فما بالك بما في غيرها، بله ما اندثر ولم يبق له اثر.

ونبغ في الطب يوسف بن سمعون اليهودي رفيق موسى بن ميمون وزميله في العمل وابو العباس الجزنائي الذي كان كاتبا وشاعرا وفيلسوفا وطبيبا وكيمائيا، وابو القاسم الوزير صاحب كتاب «المفردات الطبية» المشهور، واسرة ادراق التي تسلسل الطب في عدة من افرادها وابن شقرون المكناسي صاحب «الشقرونية في علم تدبير الصحة» وابو القاسم الغول وله ايضا نظم طبي مبوب احسن تبويب .

وبكر المغاربة بوضع دوائر للمعارف العامة قبل ان يظهر هذا النوع من التأليف في العصر الحديث بقرون عديدة ومن احسن ما ينطبق عليه هذا الوصف كتاب «الاقنوم في مداخل العلوم» لعبد الرحمن الفاسي. تكلم فيه على نحو مائة وخمسين علما فاستوعب مبادئها واستوفى حدودها بأوجز عبارة واوضحها، وهو نظم من الرجز في عدة آلاف بيت.

هذا ولم نشر الى تخليد الآثار وعمارة الاماكن والديار، فمصر وأهرامها، وبغداد وقصورها، والحمراء وزخارفها، لا يمكن ان تغطي على ما شاده المغاربة من مصانع هائلة، وما أنشأوه من مدن عامرة وما ابتدعوه من فن جميل. فلئن بنى المنصور بغداد، والمعز القاهرة، فلقد بنى ادريس الثاني فاس، وابن تاشفين مراكش، وتانك عاصمتان اسلاميتان كبيرتان في اقليمين متباعدين، وهاتان عاصمتان

اسلاميتان كبيرتان فى اقيم واحد طالما زُهِيتَا على عاصمتى الشرق بملوكهما وجيوشهما وعلمائهما وادبائهما حتى لقد قيل كثيرا ان بلاطيهما كانا يموجان فى مناسبات مختلفة بما لم يعهد فى بلاط بغداد من افواج الكتاب والشعراء والفلاسفة والمؤرخين والفقهاء وغيرهم.

وان ننس من المصانع الهائلة الدالة على علو همة منشئها، فلا ننسى المآذن الثلاث، الكتبية بمراكش ، والخيرالدة باشبيلية ، وصومعة حسان بالرباط.

تلك الاثافى التى تقدم دليلا على عظمة فن المعمار بالمغرب والتى لو لم يكن للمنصور الموحدى اثر الا هى لكفى . وكذلك يقال فى مآثر السلطان مولاى اسماعيل العلوى ومنشآته بمكناس التى حار الناس فى امرها فنسبوا صناعتها الى الجان. وقديما نسب العرب كل امر غريب الى عبقر.

اما فى باب زخرفة البناء وتشييده بالكلس والجص وصنع المقربصات البديعة وتلوينها وتذهيبها، وتنظيم قطع الفسيفسا، الجميلة وتنسيقها، والكتابة والنقش على الجص والخشب بكل تنوق وتفنن ، فهذه آثار بنى مرين بفاس وغيرها ومن اعجبها مدارسهم العلمية الشهيرة، وهذه قبور السعديين بمراكش كلها تشهد بما لهذا المغرب العظيم من السبق فى مضمار الفنون الجميلة، والابداع فى هندسة البناء الرفيعة، وليس العيان كالبيان.

ان هذه الاعمال الكبيرة التى ذكرناها، والشخصيات العظيمة

التى قدمناها، لو حذفت من التاريخ لطويت صحف من اعظم صحف المجد والخلود للامة العربية، ولخسرت الانسانية جانبا من التراث الفكرى والحضارى الذى تعتز به الآن.

وهذا خير تقويم لمساهمة المغرب فى تقدم الثقافة العربية بل أقربه الى الانصاف واقله تبجحا. ولعل من المناسب ان ننقل عبارة شهيرة للشيخ محمد بيرم التونسى صاحب كتاب «صفوة الاعتبار» جاءت فى كتابه هذا، وهى قوله:

«لعمرى ان صناعة الانشاء فى الدول باللغة العربية كادت تكون الآن مقصورة على دولة مراكش». فاذا كان هذا الفاضل قد سجل ملاحظته هذه عن تفوق المغرب فى العالم العربى فى وقته فى فن الانشاء (وهو يعنى كتابة الرسائل الديوانية) فكم من باب من ابواب المعارف ينتظر تسجيل ما للمغرب فيه من يد كانت وما تزال ذخرا للعروبة وفخرا.

السليقة عند العرب المحدثين

كان العرب الاولون يتكلمون اللغة العربية بالسليقة اى بالمران والتعود من غير تلقين ولا تعليم كما نتكلم نحن العامية اليوم فيقيمون بها السنتهم وتنشأ عندهم ملكة التعبير عن الاغراض المختلفة بكلام عربى مبين الى ان جاء الاسلام وانتشرت دعوته فى الاقطار فاختلطوا بغيرهم من الامم والشعوب الاعجمية اى التى ليست بعربية فسرت العجمة الى لسانهم وظهر فيهم من يلتوى كلامه فيفهم غير ما يقصد كما حكوا عن ابنة ابى الاسود الدؤلى التى ارادت ان تتعجب من شدة الحر فنقلت صيغة التعجب الى الإستفهام بمجرد اختلاف نطقها فى حركة الدال من الفتح الى الضم فى جملة ما أشد الحر .

ولا تعنى السليقة ومعناها الطبيعة مجرد الاعراب ومراعاة قواعده عند الكلام فحسب وان كان الشاعر قد قال:

ولست بنحوى يلوك لسانه ولكن سليقى اقول فأعرب

ولكنها تعنى ايضا التصرف فى وجوه الكلام بالاشتقاق والتعريب والقياس على ما وضعته العرب وتكلمت به من صيغ

واساليب، حتى ما يتعلق منها بالبلاغة ومطابقة الكلام لمقتضى الحال.

هذا القدر هو الذى يهمنا فى هذا البحث، فاننا لا ندعى ان ملكة الاعراب مما امكن الاحتفاظ به او استمرت مراعاتـة كلا أو بعضا بعد الصدر الاول الذى ظهرت فيه العجمة وشاع اللحن واضطر العرب الى وضع علم النحو للمحافظة على سلامـة لغتهم واستقامـة السنتهم بخلاف الامر الثانى الذى نتلمس بقايـاه فى لغتنا العاميـة ولهجاتنا المختلفـة والذى تسلسل عبـر العصور وما يزال أثـره محسوسا فيما نستحدثه من الفاظ او نقيسه من عبارات على مـا رسخ فى نفوسنا وانطبع في اذهانـنـا من رصيد لغوى ذى قواعد واصول عربية لا جدال فيها ترجع تارة الى اصل الوضع واخرى الى قاعدة الاشتقاق والتعريب وما كان من ذلك بسبيل.

فهذه اثارة من السليقة العربية لا تزال عند العرب المحدثيـن يتوارثونها خلفا عن سلف وجيلا عن جيل، يتصرفون بها فى لغتهم فيمدونها بما تحتاج اليه من كلمات معبرة واسماء لمسميات جديدة فى دائرة معرفتهم الضيقة وعلى صعيد مدركاتهم الحسيـة والمعنوية المحدودة. ولذلك نرى ان اللغة العامية ما فتئت تنمو وتزدهر الى جانب اللغة الفصحى، وانها لم تقف قط عاجزة عن تسمية الادوات الجديدة ووضع المصطلحات الضرورية لمستحدثات الحضارة، فى حين كانت الفصحـى منكمشة بانكماش المسؤولين عنها ومنزوية عن مجابهة الحياة المتجددة بما يلزمها من اوضاع ومصطلحات عديدة فى غير ما علم وفن.

وبالضرورة لم يكن عمل السليقة يتجاوز الحدود المرسومة للاجيال المتلاحقة التى انحصرت معارفها فى المظاهر الحضارية والوسائل المهنية مما قضت عليهم الحاجة الملحة باصطناعه ومزاولته. كما انه لم يكن مصيبا دائما ولا موافقا للقواعد والقياس، وعلة ذلك ظاهرة. فان الحس اللغوى عند العامة لم يكن من القوة بحيث يتجنب الخطأ ويحتمى من الزلل، وقد اصطلحت عليه العوامل المختلفة من غلبة العجمة وهبوط المستوى الثقافى وانتشار الامية وسوى ذلك، فلا ينتظر منه ان يكون اقوى مما هو عليه. والسليقة مهما قويت وسلمت من العلل فلابد لها من شذوذ وتعثر، فان العرب العرباء انفسهم قد خالفوا القياس وارتكبوا الشذوذ، وهم وضعة اللغة وممهدوا سبيلها للناس، فكيف بالعامة بعد عصور واجيال من تراجع اللغة ونضوب معينها.

ولكن ان اخطأ العرب الاولون او خالفوا القياس فى كلمات معدودة، فان العرب المحدثين بالعكس من ذلك قد اخطأوا كثيرا ولم يصيبوا الا قليلا. ونحن هنا فى هذه الكلمة سنوجه عنايتنا الى ما اصابوا فيه واتوا به مطابقا للاصول من غير ان يكون مرجعهم فى ذلك نحوا ولا صرفا ولا استقراء لقاعدة من قواعد العلم، وانما هو بقية من السليقة العربية ونزوع العرق بالقوم الى اصلهم الاصيل. كما يحدث ان تظهر بعض العلامات فى المواليد الطبيعية مما يرجع الى الخلق او الشكل أو اللون الذى كان عليه اجدادهم السابقون بعامل الوراثة الذى اصبح قانونا علميا مسلما به من الجميع.

وقضية ذلك اننا نعتبر الكلمة التى من هذا القبيل عربية اصيلة يجب ان تاخذ طريقها الى المعجم العربى من غير توقف لتوفرها على المطلوب من موافقة القياس اللغوى وجريانها على ألسنة العموم بحكم ان واضعها قدر الحاجة الماسة اليها وسد بها فراغا كان الجميع يشعر به. هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان ذلك يدل على ان السليقة العربية لم تمت وانها بقليل من المعالجة التى لا تعدو تعميم التعليم وتبسيط قواعد اللغة، ستنبعث من جديد، والفعالية التى كانت لها فى امداد العامية وارفادها بالاوضاع والمصطلحات الضرورية للتعبير صوابا او خطأ، ستتحول الى تطوير الفصحى واغنائها بما هى فى حاجة اليه من ذلك مع سلوك نهج الصواب فى الغالب الاعم كما كان عليه الحال يوم كانت السليقة العربية باتمها لا تشكو ضعفا ولا انحلالا.

وغنى عن البيان اننا سنعطى امثلة ولا نستقصى، لان غرضنا الاول هو اثبات بقاء السليقة العربية وعملها ولو فى نطاق محدود لا الاحصاء والاستقراء والتتبع. ثم اننا قد نضرب المثل من العامية المغربية، وليس مقصودنا تمييزها بشىء بل مجرد الكلام عما نعرفه، مع ما فى ذلك من الدلالة على ان السليقة هى هى فى كل مكان حله العرب من مشرق او مغرب.

وهذه هى الامثلة نقدمها على حسب ما اتفق من غير مراعاة ترتيب ولا ملاحظة تصنيف، حيث ان نتيجة البحث تستخلص منها مجتمعة من غير تفريق:

الفنان

اطلقه العرب الاولون على الحمار الوحشي لتفننه فى العدو ولكن هذا الاطلاق قد توحش مع حمار الوحش فلم يستعمل من عهد الاعشى ومن اليه من الشعراء المتقدمين. وجاء العرب المحدثون فاطلقوه على الشخص الموهوب بهبة فنية من شعر او تمثيل او موسيقى وسار بهذا المعنى كل مسار. وقد توقف فيه كثير من الباحثين اللغويين اولا لانه لم يرد عن العرب الا بالمعنى السابق ورأينا كثيرا من الكتاب والادباء المحافظين يتجنبونه فى تعبيرهم فمنهم من يقول فنى ومنهم من يقول مفن، ومنهم من يضعه بين قوسين ولكن كثرة الاستعمال فرضته على الجميع، لاسيما وهو مخرج على القواعد العربية اصح تخريج، فقد جعله المعجم الوسيط صيغة مبالغة من الفن ويمكن ان يكون من قبيل النسبة كالحداد والبناء والعطار ونحوها، ولا يخفى ان وزنه اكثر دورانا على الالسنة من فنى ومفن، فضلا عن تخصيص فنى بالخبير فى صناعة اوعلم، ولذلك تقبله الجمهور قبولا حسنا ولم يبغ به بديلا. وقد احسنت لجنة المعجم الوسيط ايما احسان بادخاله للمعجم وعدم وضع آية علامة بازائه مما يدل على توليده او حدوثه لانه لفظ عربى اصيل.

القديس

هو مما بحث عنه فلم يوجد. والظاهر ان نصارى العرب هم الذين وضعوه، لانه عندهم بمنزلة الولى عند المسلمين. وهو ماخوذ

من القدس بمنعى الطهر والنزاهة. وقد ورد هذا الوزن فى اللغة اسما وصفة للدلالة على الكثرة، فالاسم مثل هجير اى دأب وعريس لموضع الاسد وبرنيق لضرب من الكمأة وفى المعربات سجيل ومريخ وقسيس. والصفة مثل الصديق والسكيت والشريروهى فيه اكثر من الاسم. وعلى كل حال فالقديس لفظة محدثه وهى لا شك مقيسة على ما ورد من هذا الوزن. وانما يبقى النظر فى صحة هذا القياس. فابن دريد يقول فى الجمهرةبعد سرده لكثير من مثل هذه الالفاظ كما نقل عنه السيوطى فى المزهر: «اعلم انه ليس لمولد ان يبنى فعيلا الا ما بنته العرب وتكلمت به، ولو اجيز ذلك لقلب اكثر الكلام فلا تلتفت الى ما جاء على فعيل مما لم تسمعه الا ان يجيئ فيه شعر فصيح» ولكن المجمع الموقر ما اظنه يمانع فى جواز القياس على هذا الوزن وقد اثبتت لجنة المعجم الوسيط كلمة القديس فى المعجم بدون علامة مطلقا .

مزيان

صيغة مبالغة من الزين مثل مفضال ومعطاء ومنحار، وهو يكثر فى لسان اهل المغرب بمعنى حسن وجيد. ونرى كثيرا من اخواننا المشارقة يستغربه لاول ما يسمعه وهو كما رأينا لا غرابة فيه واشتقاقه صحيح. وقد دخل الى اللغة الاسبانية بحكم المخالطة فكثيرا ما نسمعه من الاسبانيين الذبن قطنوا المغرب وهم ينطقونه بنبرهم (مسيانو) والغرض من اثباته هنا هو التنبيه على عمل السليقة اذ كان هذا اللفظ من كلام العامة وما زلت اذكر احد رفقاء الطلب،

وكان يتعاطى الادب،(I) حين نظم قصيدة فى مدح بعض الرؤساء وتوقف فى قافية بيت من ابياتها فقال لى ما قولك فى كلمة شبيهة بالاسبانية وهى مزيان؟ والبيت هو هذا:

واجعل قبولك مهرها وكفاءها
ان القبول من الرضى مزيان

فضحكت وضحك ثم عدل الى قوله

ان القبول على الرضى عنوان

ولم نكن حينئذ بمثابة من ينظر فى وجه اشتقاق الكلمة ومأخذها .

الكسكاس

لم تقف السليقة عند العرب المحدثين على العمل فى دائرة القواعد والقياس على المأثور من كلام العرب الاولين، بل تخطت الحدود وارتجلت كما كان هؤلاء يرتجلون فى الزمن القديم. ومن ذاك هذا الوزن فى الآلة. فكما ان القدماء وضعوا أسماء للآلة على غير الاوزان المعروفة كسيف وقلم وسكين، كذلك وضع المتأخرون اسم الكسكاس للآلة التى يطبخ فيها الكسكس وليس لها عندنا اسم غيره.

انهم عرب المغرب، وهم الذين يعتنون ما لا يعتنى غيرهم بهذا اللون من الطعام. وعنهم عرفه الناس. وبما ان طريقة طبخه خاصة، لانها فى الحقيقة تبخير لا طبخ، فانها تحتاج الى هذه الآلة الخاصة وهى آنية تشبه المصفاة ذات ثقوب فى قعرها فتوضع على طنجرة غليانة وبداخلها الكسكس الذى يتبخر بفعل غليان الطنجرة ويكون ذلك هو طبخه .

[I]) هو المرحوم محمد بودقة.

لا شك انهم رأوا البربر يفعلون ذلك. وسمعوهم يسمون هذه الآلة تَسْكْسُوت فعدلوا عن هذا الاسم الذى يحمل طابع البربرية وقالوا الكسكاس الذى هو من الاوزان العربيــة المألوفة. وقد قــال علماؤنا من قبل بهذا الوزن البركاز تعريبا لآلة الرسم المعروفة كما وجد لــه نظير جديد فــى الآلات الحديثــة وهو التلفاز (ويخلــق ما لا تعلمــون) .

الشــرار

لما سمى بالفرنسية Cascad وهناك كلمة أخرى تدل عليــه وهى الشلال، وكلتاهما من عمل السليقة المحدثة. ونظن ان الشرار وان لم تشتهر اوضح دلالة واصح مأخذا فانها من ثر الماء ثرا وثرورا غزر وكثر، اما الشلال فهى من شلت العين الدمع ارسلته. والمراد ليس المفاضلة بين الكلمتين ولكن الاشارة الى ان السليقة حينما تلح عليها الحاجة الى التعبير فانها تنطلق هنا وهناك وتنطق بالكلمــة المطلوبة. ومن ثم ياتى الترادف فى اللغــة فان الجماعات البشريــة المنتشرة فى الارض، ولو كانت من جنس واحد، لاينتظر بعضها بعضا لسد مفاقره وكفاية حاجه.

والامثلة من هذا القبيل كثيرة ولكنا لا نحرص على الاحصاء كما قلنا سابقا وانما نقرر بقاء السليقة وعملها .

الطيــارة

والطيارة مثال لما توفقت فيه السليقة اكثر من توفق الخبرة. فان الاقلام المثقفة جــرت على استعمال الطائرة ولا يكــاد احد يكتب

الطيارة. وشركات الطيران والصحف في اعلاناتها والاحصائيات الرسمية انما تعبر بالطائرات، وذلك وان يكن صحيحا الا ان احدا لا يمترى فى ان الطيارة التى تجرى على ألسنة الجماهير اقوى دلالة واكثر تعبيرا، فانها تدل على الكثرة والمبالغة بصيغتها فى حين ان الطائرة انما تدل على مجرد الوصف. وما اشبهها بالسيارة التى لم يقل فيها احد السائرة ولو قالها لما سارت ، فهل الفرق بين السير والطيران فى الاعتياد والغرابة هو الذى جعل الادباء يقبلون في الطائرة الوصف المجرد ولا يقبلون فى السيارة الا صفة المبالغة؟..

وايا ما كان الامر فقد غلبت السليقة هنا الخبرة. ودل ذلك على وجودها وعلى قوتها الكامنة فى النفوس التى لا تحتاج الا الى قليل من العناية لتنقلب حسا لغويا فعالا.

وما احرانا ان نعامل هذه الكلمة وما كان على غرارها بما يعامل به السماع من التقديم على القياس، لا سيما وهى على ما بينا اكثر مطابقة لاعتبارات احوال الاشتقاق ومقتضياته.

الفاظ الحياة العامة

الميزانية، الاقتصاد، الجريدة، قلم التحرير، الجمعية، الادارة المسرح، التمثيلية، المقهى، الملعب، العمارة، الشقة، الكشافة، الجوالة، طابع البريد، الخريطة الجغرافية، الاستيناف، المحامى، الكلية، الجامعة، المتحف، . . هذه وغيرها مما يعد بالمئات من ألفاظ الحياة العامة، كلها من عمل السليقة عند العرب المحدثين، وهى ما بين موضوع ابتداء للمعنى الذى يدل عليه باشتقاق او نسبة او غير ذلك

وما كان لفظا معلوما يدل على معنى عام .فاشرب الدلالة على المعنى الجديد وحمل عليها حملا وسار على ألسنة العموم واستعمله الكتاب والشعراء والمؤلفون واصبح من صميم متن اللغـة الذى لا غناء عنه لاحد. ومما لا شك فيه ان هذه الالفاظ قد اشترك فى وصفها اشخاص باعيانهم من صحفيين وتراجمة وعلماء وهيآت لغوية مخصوصة ولكن الكثرة الكاثرة منها انما هذبه الذوق العام والاستعمال الواسع النطاق بحيث ما استقر فى وضع القبـول حتى جاز امتحانـا عسيرا وخلف وراءه الكثير مما لم يحصل على اجازة الجماهير له وهذا هـو عمل السليقة، وهكذا كان الواضع العربى الاول يعمل ثم يتلقى الجمهور عمله بالقبول او الرفض.

مصادر شتى

وضعت مصادر عديدة منذ فجر النهضة العربية، منها ما كان على طريقة المصدر الصناعى للدلالة على نظرية او مذهب او لمجرد التقوية كالوصولية والانتهازية والفوضوية والاشتراكية والفعاليـة والحساسية ومنها ما كان اشتقاقا من الاسم الجامد قبل ان يفكر احد من المجمعيين فى ضرورة هذا الاشتقاق بل قبل ان يكون هناك اى مجمع عربى. فقد كثر الكلام عن (تتريك) العناصر الذى كان يراد به ادماج الاقوام المتساكنين فى البلاد العثمانية ومنهم العرب فى العنصر التركى وذلك فى مطلع القرن الحالى. ثم قيل على هذا النمط تمصير الادب فى مصر وسودنـة الادارة فـى السودان ومغربة القضاء فـى المغرب. وقيل ايضا التأقلم والتطور والاستغراب والاستشراق، وهذه

المصادر الاخيرة وضعت لها كذلك افعال. وبعض هذه الاوضاع ما زال لم يخضع للبحث المجمعي ولا وضع تحت انظار حراس اللغة الخالدين، مما يؤيد رأينا في السليقة وعملها الذي لم ينقطع قط وربما سبق عمل الخبرة، ورب للتكثير.

افعال من الاسم الجامد

قالوا تأقلم وتطور واستغرب واستشرق من الاقليم والطور والغرب والشرق بالمعاني المعروفة . وقالوا حج وزار وخلل وقدس بمعنى زار الخليل والقدس بعد ما حج الى مكة المكرمة وزار المدينة المنورة، وكأنهم لما قالوا حج وزار وحذفوا المفعول للعلم به هنا لان الحج لا يكون الا لمكة والزيارة لا تكون الا للمدينة شعروا بالحاجة الى ما يؤدي المراد من زيارة الخليل والقدس فاشتقوا الفعلين المذكورين من اسمي هذين المكانين لما في ذلك من الاختصار وعدم اعادة فعل زار والاتيان بالخليل والقدس بعده وهذا من المقاصد البلاغية. ويقولون في احد الامثال المغربية: اذا خلجت عسلجت يعنون ان الارض اذا صارت خلجانا من كثرة المطر انبتت العسلوج بكثرة، والمراد بالعسلوج هنا الكلأ والمثل من اقوال الفلاحين، فاستحدثوا فعلا من الخليج وآخر من العسلوج. واغرب من ذلك انهم اخذوا فعلا من السفط وضمنوه معنى الارسال فقالوا سفطت له وسفط لي اي ارسلت له الشيء او ارسله الي، ولا شك انهم كانوا يقولونه في الاول على الشيء المرسل في سفط كالسلعة التي تستوجب الحفظ ثم توسعوا فيه بعد فاطلقوه على الارسال مطلقا. وانما نبهت على هذه الكلمة بعينها لغرابة توجيهها وهي ترينا الى اي مدى تتصرف السليقة عند العرب المحدثين.

وقالوا مَعْنَنَى عليَّ وهو يُمَعْنِي من المعنى اذا عرض له في الكلام.
وقالوا تلبا الطبيخ وهو ملبى اذا خثر من اللبأ الذى هو اول اللبن
ويكون خاثرا وقالوا قبر الشيء اذا اتلفه او غاب عليه كأنه ادخله
القبر وفى القرءان الكريم ثم اماته فاقبره ولكن هذه حقيقة وتلك
مجاز . وقالوا البوجادى اخذا من مركب وهو ابوجاد الذى تنسب
اليه حروف الهجاء المستعملة فى حساب الجمل وارادوا به المبتدىء
القليل العلم كأنه لايزال فى مرحلة التعليم الاولى. وقالوا التصبين
من الصابون وصبن ثيابه وهو صبان واخيرا اطلقوا على محل
التصبين مصبنة. وهذا الباب طويل جدا فلنكتف منه بهذا القدر .
وعلى كل حال فان السليقة لم تتوقف فيه توقف الخبرة وان كانت
هى مثلما تشترط الخبرة لم تستعمله الا بمقدار.

الابدال والاتباع

كما ابدلت العرب قديما بعض الحروف من بعض فان العرب
المحدثين فعلوا ذلك ايضا بسليقتهم فقالوا فلطة فى فلته وغلبت على
لسان عرب المغرب بمعنى الخطأ الشنيع وبعضهم يظن انها مأخوذة
عن الاسبانية وليس كذلك فان ابدال الطاء من التاء معروف فى
اللغة العربية حتى ان العرب تقول فى المعنى الذى نحن بصدده
غلط وغلت . وقالوا وذن فى اذن والهمزة اذا كانت فى الصدر
وهى مكسورة او مضمومة تبدل واوا . وقالوا الكحط فى القحط
بل انهم لا ينطقونه الا بالكاف وهو وارد. والاتباع من سنن العرب
فى كلامها يجعلونه تاكيدا واتباعا ، ومنه عند العرب المحدثين

قولهم جاء قبل الحين والصالحين زاوجوا بين الكلمتين ولاحظوا فى الثانية من غير شك ان الصالحين من اهل الزمن السابق فمن يجىء قبلهم يكون مجيئه قبل حينه. ومنه قولهم الجوع والنوع والبكا بلا دموع الكلمتان اللتان وقع فيهما الاتباع هما من قول العرب جائع نائع. ومنه قولهم السخط والنخط، النخط المخاط الذى يسيل من الانف وهو مما يتسخط . ومنه قولهم الوسخ والمسخ والمناسبة المعنوية فيهما ظاهرة، اما فى اللفظ فان الروى واحد واذا سكن السين من الوسخ كما ينطقون به يكون الوزن ايضا واحدا . ومنه قولهم فى الفعل خلط وجلط والتجليط بهذا المعنى غير معروف ولكنه شاع الآن واستعملت من مادته الجلطة الدموية فلعل له اصلا بقى محفوظا فى الالسنة ولم تثبته المعاجم، والامر هنا على كل حال اتباع فلا يشترط فيه ان يدل على تمام معنى الكلمة الاولى.

امثلـة اخرى

ومن بقايـا السليقة قولهم فـى تصغير السوق والدار والقدر والاذن والعين والشمس وغيرها سويقة ودويرة وقديرة ووذينة وعوينة وشميسة على القاعدة المقررة من الحاق التاء بالثلاثى المؤنث عند التصغير، وابدالهم الواو من الياء فى تصغير العين لعله لكراهتهم الجمع بين ياءين متتاليتين. واذا كنا نحن ما زلنا نتردد فى استعمال كلمة تقييم لمحا لاصلها الواوى فانهم بعكس ذلك يتصرفون كما تملى عليهم الحاجة والحس اللغوى السليم. وامثلة هذا الباب كثيرة، وانما ذكرنا منها ما يلفت اليه النظر.

قد يكون فى استعمال ضمير الجماعة للمتكلم المفرد ما يشعر بالتواضع خلاف المعهود من انه يكون لتعظيم النفس وذلك كما فى قول القائل مثلا: ونحن لا نرى هذا الرأى، ألا ترى ما فى قوله لو افرد: وانا لا أرى هذا الرأى من الدعوى التى هى سبيل التعاظم ؟. وهذا ما جرت عليه اساليب العرب المحدثين فيقولون مثلا تجىء عندنا ونزورك فتكون مقبولة اكثر من تجيىء عندى وأزورك كأنم يشعرون أن المتكلم لما اعتضد بغيره برىء من الانانية وان توجيه الدعوة الى المخاطب باسم جماعة ابلغ فى الاهتمام به. وهكذا ينعكس بهذه الملاحظة ما قرر من ان المعظم نفسه هو الذى يستعمل ضمير الجماعة المتكلمين. وهى نكتة بلاغية ناخذها من تتبع الاساليب الكلامية عند العرب المحدثين ونستدل بها على أثارة من سليقة عربية مصقولة لا تزال تبدع وتجيد .

على اننا اذا امعنا النظر فى اساليب الكلام الفصيح وتنوعها سواء فى الكتابة او الخطابة نجد ان هذا المعنى ملحوظ عند البلغاء فكثيرا ما نجدهم يعبرون تارة بضمير الجمع وتارة بضمير الافراد لما يقتضيه موضع التعبير فى الجملة من الاتيان بهذا الضمير او ذاك، ولكن لم يقع النص صراحة على هذا القدر، بل ترك لادراك الذوق السليم . ومن المعلوم اننا اليوم كثيرا ما نستعمل ضمير الجمع فى الخطاب تعظيما للمخاطب وهو ادب جديد دخل على لغة الحوار ولم يكن العرب يستعملونه قبل الا قليلا حتى انه لم يجى

فى القرءان الا مرة واحدة وذلك فى قوله تعالى (حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون) ومع ملاحظة هذا الادب فان النكتة التى نبهنا عليها لم تضعف بل بقيت مرعية فيه فيقال تجيئون عندنا ونزوركم، ولا يكون فى ذلك تعاظم من المتكلم بل تعظيم للمخاطب.

هذا عمل السليقة واثرها فى لساننا العربى المبين حتى بعد ان ضعفت الملكات وسادت العجمة. واذا كنا قد جلينا بعض مظاهر الحس اللغوى او ما بقى من السليقة عند العرب المحدثين، فى هذه الكلمة المختصرة فاننا نشعر ان الموضوع قابل للتوسع وان التوفر على استيعابه يفضى الى نتائج مهمة فيما نرمى اليه من اعادة الاعتبار الى بعض الكلمات التى كانت من وضع العامة لا سيما ما وافق القياس منها، فنفسح لها الطريق الى معاجمنا ونضع بذلك حدا لهذه الجفوة الحاصلة بين العامية والفصحى، تحسينا للظن بهذا الشعب العربى النبيل الذى ما زال يحتفظ بكثير من خصائص اجداده الكرام، وما لغته العامية هذه الا بنت للفصحى يجب تعهدها بالتهذيب والتنقيح لتقرب من مستوى الفصاحة وتلحق بنسب امها الرءوم. ونحن مهمنا وثقنا به واعتمدنا على عروبته فى الاخذ بما صح من كلامه فانما نرجع اليه حيويته ونقوى معنويته ونجعله ينطلق الى الغايات البعيدة فى اعمال البعث والتجديد فى هذا الميدان وفى جميع ميادين الحياة الاخرى. وما ذلك على همته العالية بعزيز.

ابو البقاء الرندى وكتابه «الوافى فى نظم القوافى»

طارت شهرة أبى البقاء الرندى بقصيدته النونية المؤثرة فى رثاء الاندلس، التى اجمع النقاد على أنها خير ما قيل فى البكاء على ذلك الفردوس المفقود، على كثرة ما قيل فى البكاء عليه. والعجيب هو ان تحتجب ترجمة ابى البقاء من كتب الادب وتاريخه برغم هذه الشهرة الطائرة حتى لقد وقع الخلاف فى تاريخه وعصره بل فى اسمه وكنيته ولم يوجد من يحقق ذلك الى الآن. وانما يوجد من يذكره وقصيدته وينوه بهذه الدرة اليتيمة ثم يمر مر الكرام بكل ما عدا ذلك مما يلقى ضوءا كاشفا على حياة هذه الشخصية الادبية الفريدة ، ولعل السبب فى ذلك هو أن صاحب نفح الطيب، المعلمة الاندلسية الكبرى، سكت عن ترجمته، فلم يتح للباحثين الوقوف عليها بعد ذلك فى مصدر آخر فتضامنوا مع علامتنا المقرى فى هذا السكوت المخل

واذا كان الكلام من فضة والسكوت من ذهب كما جاء في الحكمة، فقد تنعكس القضية فى بعض الاحيان وذلك هو ما وقع فى توهيم صديقنا الاستاذ البحاثة الكبير السيد محمد عبد الله عنان للعلامة المقرى فى شأن صاحبنا ابى البقاء وعصره.. والاستاذ عنان هو الوحيد من المؤرخين الذين تعرضوا لتحقيق تاريخ هذا الشاعر وخرجوا عن عهدة ذلك السكوت المزرى. وقد أصاب فى تحديد عصره وتاريخ حياته وإن لم يصب فيما نسبه للمقرى من وهم فى هذا الصدد.

تحدث الاستاذ عنان فى كتابه القيم «نهاية الاندلس» فى الكتاب الاول منه عن ظروف قيام مملكة غرناطة والاحداث المؤسفة التى لابست تلك الظروف ونتج عنها سقوط القواعد الاندلسية الكبرى، بلنسية وقرطبة واشبيلية فما دونها، وتعرض لما أثارته هذه المحنة فى النفوس من لوعة وأسى ثم قال: «ونظم شاعر العصر أبو البقاء صالح بن شريف الرندى مرثيته الشهيرة التى ما زالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثى القومية وأبلغها تأثيرا فى النفس، وفيها يبكى قواعد الاندلس الذاهبة، ويستنهض همم المسلمين أهل العدوة لانجاد الاندلس وغوثها»، وساق نص القصيدة بعد ذلك.

وبهذا حدد تاريخ هذا الشاعر والعصر الذى كان يعيش فيه، ثم زاد ذلك وضوحا فى التعليق الذى كتبه على القصيدة وقال فيه: «يبدو من سياق القصيدة، وذكر القواعد الاندلسية التى تبكيها وهى بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة واشبيلية، وهى التى سقطت كلها فى يد النصارى بين سنتى 635هـ و 650هـ أن الشاعر قد عاش

فى هذا العصر. ومن جهة أخرى فقد ذكر صاحب الذخيرة السنية صراحة انها نظمت حينما نزل ابن الاحمر للنصارى سنة 665هـ عن عدد كبير من القواعد الاندلسية ، وقد كتب صاحب الذخيرة (وهو مؤلف مجهول) مؤلفه فى عصر السلطان أبى سعيد المرينى (710 - 733) وأورد فى كتابه قصيدة أبى البقاء بأكملها، وهو دليل قاطع على أن ناظمها عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى»(1) وهو تحقيق نفيس جدير بالاعتبار، ولكن الاستاذ يقول معه: «وقد التبس الامر على المقرى فى تعيين العصر الذى قيلت فيه هذه القصيدة والذى عاش فيه ناظمها صالح بن شريف فوصفه بأنه خاتمة أدباء الاندلس (أزهار الرياض ج 1 ص 47) وذكر فى نفح الطيب أن أبياتا أخرى أضيفت اليها تشتمل على ذكر بسطة وغرناطة وغيرهما ليست من نظم صاحبها لانه توفى قبل سقوطها (اى غرناطة) مما يدل على اعتقاد المقرى بأن أبا البقاء عاش فى أواخر أيام مملكة غرناطة (اواخر القرن التاسع الهجرى)».

ويزيد هذا الكلام تأكيدا فى الكتاب الرابع حين يعرض للحديث عن اعلام الادب فى مملكة غرناطة فيقول: «ومنهم أبو البقاء صالح بن شريف الرندى. وكان اديبا شاعرا جزلا. بيد اننا لا نعرف كثيرا عن حياته. ولا نعرف الا انه كان من أهل رندة كما يدل على ذلك لقبه. وقد عاش أبو البقاء حسبما رأينا فى بداية هذا الكتاب فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى . وعاصر الفتنة التى تمخضت عن

1) انظر كتاب نهاية الاندلس ص 36، 37، 38.

قيام مملكة غرناطة وسقوط معظم القواعد الاندلسية فى يد النصارى.
وقال فى المحنة مرثيته الشهيرة التى أتينا على ذكرها فى موضعها. والتى خلدت الى يومنا.. وقد وهم المقرى فاعتقد أنه عاش فى اواخر القرن التاسع الهجرى، ووصفه بأنه خاتمة أدباء الاندلس حسبما أسلفنا» .

ويظهر أن الذى حمل الاستاذ عنانا على توهيم المقرى هو وصف هذا الاخير لابى البقاء بخاتمة ادباء الاندلس، وليس ضربة لازب ان يكون هذا الوصف دليلا على ما ذكره الاستاذ فانهم يصفون به فى كل عصر المبرزين من أهل العلم والادب والفضل فيقولون خاتمة العلماء كما قالوا فى أبى البقاء خاتمة الادباء، ويقولون آخر قضاة العدل ولا يلزم ان يكون من قيل فيه ذلك خاتمة أو آخرا باطلاق.. وإنما يلزم هذا الوصف فى شخص واحد هو خاتم الانبياء عليه الصلاة والسلام .

على ان المقرى إنما تبع فى ذلك غيره، وهو مجرد ناقل فقط. والذى وصف أبا البقاء بذلك الوصف أولا هو ابن عبد الملك المراكشى كما نقله عنه ابن الخطيب فى الاحاطة، ويأتى نصه قريبا. فهذا دليل على ما قلناه من أن الوصف لا يستلزم معناه باطلاق، وانما المراد به العصر الذى قيل فيه.

ثم إن الاستاذ يرجع الضمير فى قول المقرى عن أبى البقاء أنه توفى قبل سقوطها الى غرناطة ليعتضد بذلك فى توهيمه أنـه كان يعتقد أن أبا البقاء عاش فى أواخر ايام مملكة غرناطة اى فى اواخر

القرن التاسع الهجرى، وهو تمحل ظاهر. والصواب ان الضمير يعود على بسطة وغرناطة وغيرهما من البـلاد التى سقطت بعد وفاة ابـى البقاء والتى تضمنتها تلك الابيات المزيدة على قصيدتـه لا على خصوص غرناطة لتكون وفاته قبل سقوطها بل قبيله حتى يكـون ممن عاش فى أواخر القرن التاسع وهذا كله لو كانت العبـارة التى ساقها الاستاذ هى عبارة المقرى، كيف وهو قد روى كلامه بالمعنى فتوهم منه ما لا يوهمه والصقه بالمقرى، وهو منه برىء .

وهاك نص كلام المقرى فى النفح (ج2ص595) بعد انشاده لقصيدة ابى البقاء: «انتهت القصيدة الفريدة، ويوجد بأيـدى بعض النـاس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف. وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبته. ومن له أدنى ذوق علم أن ما يزيدون فيها من الابيات ليست تقاربها فى البلاغة. وغالب ظنى أن تلك الزيادة لما اخذت غرناطـة وجميع بلاد الاندلس، اذ كان اهلها يستنهضون همم الملوك بالمشرق والمغرب، فكأن بعضهم لما أعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات، وقد بينت ذلك فى أزهار الرياض فليراجع» .

وأظن ان هذا كلام واضح لا يوهم شيئا مما اشار له الاستـاذ فالقَبْلية الضيقة فى كلامه يقابلها بَعْدية واسعة فى كلام المقرى، وسبْقُ وفاة أبى البقاء لسقوط غرناطة فحسب، واقعٌ موقع تأخر سقوطها وسقوط غيرها من البلاد عن موته . بل ان المقرى يجعل أبيات الزيادة انما قيلت بعد أخذ غرناطة وجميع بـلاد الاندلس

تتميما لتلك المناحة والحاقا بتلك المرثيـة ما افاتها ذكره لتاخر زمنه من البلاد الاندلسية الواقعة فى قبضة العدو إستنهاضا لهمم الملوك فى البلاد الاسلامية عساها تنبعث لاسترجاعها. وهذا ان اوحى بشيء فانما يوحى بما اهتدى اليه الاستاذ من تحقيق تاريخ حياة الشاعر ابى البقاء الرندى وتعيين عصره الذى هـو كما قال النصف الثانى مـن القرن السابع الهجرى الذى شهد سقوط القواعد الاندلسية الكبـرى من اشبيلية وقرطبة وغيرهما لا بسطة وغرناطة وغيرهما.

هذا ويشير العلامة المقرى فى النفح الى انه بين تلك الزيادات فى ازهار الرياض. والنسخة المطبوعة التى بأيدينا من هذا الكتاب ليس فيها شيء من ذلك.. وحيث انه كثيرا ما يقع الكلام على هذه الزيادة فقد احببت ان اثبتها هنا نقلا عن قطعة مخطوطة متداخلة من ازهار الرياض ومن النفح معا توجد بخزانتنا ضمن مجموع قديم ، وها هى ذى كما ثبتت فيه:

وايـن غرناطـة دار الجهـاد فكـم
اسدى الشدى(I) وهم فى الحرب فرسان

واين حمراؤهـا العليـا وزخرفهـا
كأنهـا من جنـان الخلد عدنـان(2)

والماء يجرى بساحات القصور بهـا
قـد حف جدولهـا زهر وريحان

I) كذا ولعلها أسد الشرى ويبقى المعنى مع ذلك غير تام .
2) كذا .

وأين جامعها المشهور كم تليت
في كل وقت به آي وقرآن

وعالم كان يهدي للجهول هدى
مدرس وله في العلم تبيان

وعابد خاشع لله مبتهل
والدمع منه على الخدين طوفان

ووادي شلين يحكي في تحنشه
سيوف هند له(3) في الجو لمعان

وأين بسطة دار الزعفران فهل
رأى شبيها(4) لها في الحسن انسان

كذا المرية دار الصالحين فكم
قطب بها علم غوث له شان

وأين مالقة مرسى المراكب كم
أرست بساحلها فلك وغربان

وكم بداخلها من شاعر فطن
وذي فنون له حذق وتبيان

وكم بخارجها من منزه فرج
وجنة حولها زهر وبستان

وأين جارتها الزهرا وقبتها
وأين يا قوم أبطال وفرسان

---

3) كذا.

4) في الاصل شبيه بالرفع.

وكم شجاع زعيم فى الوغىَ بطل

بدا له فى العدا فتك وامعان

كم جدلت يده من كافر فغدا

تبكيه من أرضه اهل وولدان

ووادى آش غدت بالعز عامرة

ورد توحيدها شرك وطغيان(1)

قواعدكُنَّ أركان البلاد

هكذا جعلت ترتيب هذه الابيات فى المخطوطة بين قوله: «وأين حمص وما تحويه من نزه»، وبين هذا البيت «قواعد الخ».

ومما ثبت فى هذه المخطوطة زيادة بيت ايضا بين قوله «تلك المصيبة»، وقوله «يا راكبين»، وهو مما ألحق فى الطرة كالابيات قبله ونصه:

يا ايها الملك الحمراء رايته

ادرك بسيفك اهل الكفر لا كانوا

وفى الختام ألحق بالقصيدة كذلك هذه الابيات الثلاثة :

هل للجهاد بها من طالب فلقد

تزخرفت جنة المأوى بها شان

والشوق للحور والولدان نحوكما(2)

فازت لعمرى بهذا الفضل شجعان

---

1) كذا .

2) كذا .

ثم الصلاة على المختار من مضر

ما هب ريح الصبا واهتز أغصان

وقد اوردنا هذه الابيات على علاتها، ولا اكره إلينا من رواية شعر مكسور وأدب لا هو منظوم ولا منثور، للعبرة ـــ ولا اقول للفائدة ـ التاريخية، فانه ما انحطت ادبيات قوم الا وانحط قدرهم، وما ضعفت معنوياتهم الا وضعفت مقاومتهم، واذاً فلا غرابة أن يكون هذا شعر القوم بعد عجزهم عن الاحتفاظ بتلك الجزيرة الفيحاء...

وبعد فقد ترجم لابى البقاء لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه الاحاطة ترجمة واسعة، واثبت من ادبه جملة وافرة ما بين شعر ونثر. واليك ما قاله فى التعريف به نقلا عن مخطوط الاسكوريال من كتاب الاحاطة الذى يحمل رقم (1673) ص 207:

«صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن ابى القاسم بن على بن شريف النفزى، من اهل رندة يكنى ابا الطيب. (حاله) قال ابن الزبير شاعر مجيد فى المدح والغزل وغير ذلك، وعنده مشاركة فى الحساب والفرائض؛ ونظم فى ذلك. وله تواليف ادبية وقصائد زهدية، وجزء على حديث جبريل عليه السلام، وغير ذلك مما روى عنه. وكان فى الجملة معدودا فى اهل الخير وذوى الفضل والدين، تكرر لقائى اياه. وقد اقام بمالقة اشهرا، ايام إقرائى، فكان لا يفارق مجالس اقرائى وانشدنى كثيرا من شعره. وقال ابن عبد الملك: كان خاتمة الادباء بالاندلس بارع التصرف فى منظوم الكلام ومنثوره، فقيها حافظا مرضيا متفننا فى معارف شتى، نبيل المقاصد متواضعا مقتصدا فى

اقواله. وله مقامات بديعة فى اغراض شتى. وكلامه نظما ونثرا مدون.
(مشيخته) روى عن آباء الحسن ابيه والدباج وابن الفخار الشريشى
وابن قطرال وابى الحسين ابن زرقون وابى القاسم بن الجد. (تواليفه)
ألف جزءا على حديث جبريل، وتصنيفا فى الفرائض واعمالها، وآخر
فى صنعة الشعر سماه الكافى(I) فى علم القوافى. وله كتاب كبير
سماه روض الانس ونزهة النفس. (دخوله غرناطة) وكان كثير
الوفادة على غرناطة والتردد اليها يسترفد ملوكها وينشد امراءها،
والقصيدة التى اولها: «اواصلتى يوما وهاجرتى ألفا» اخبرنى شيخنا
ابو عبد الله اللوشى أنه نظمها باقتراح السلطان رحمه الله، وقد اوعز
اليه ألا يخرج عن بعض بساتين الملك حتى يكملها فى معارضة محمد
بن هانىء الالبيرى (شعره) وهو كثير سهل المأخذ عذب اللفظ رائق
المعنى، غير مؤثر للجزالة».

هذه هى ترجمته عند ابن الخطيب. وهى تشهد اولا لما حققه
الاستاذ عنان من انه عاش فى النصف الثانى من القرن السابع. وتفيد
ثانيا ان وصفه بخاتمة الادباء فى الاندلس هو من قول المؤرخ ابن عبد

I) ثبت بالطرة فى هذا الموضع من الاحاطة بنفس الخط
المكتوبة به ما يلى : « عندى أنه الوافى وعلى ملكى منه نسخة عليها
خط المؤلف المترجم به » وبما ان مخطوط الاسكوريال انما هو مختصر
الاحاطة، وقد اثبتنا فى غير هذا الموضع ان كاتبه هو أبو جعفر البقنى
احد مختصرى الاحاطة، فيكون كاتب هذه الطرة هو البقنى وبالتالى
صاحب المختصر المنقول منه.

الملك المراكشي فالمقري في ذلك تابع وناقل فقط، وقد نقله قبله ابن الخطيب ولم يفهم واحد منهما ان ذلك على الاطلاق وان الادب في الاندلس انتهى بانتهاء حياة ابى البقاء. ونلاحظ ان اسمه فى الاحاطة صالح بن يزيد لا ابن شريف وان شريفا اسم جده الخامس... وذكره في موضع آخر من ترجمته فسماه صالح بن ابى خالد يزيد بن صالح بن شريف بحذف اسماء ثلاثة من اجداده، وذلك يدل على انه كان مشتهرا باسم جده شريف كما هو عندنا الآن .. وقد ذكر هو في الباب الواحد والعشرين من الجزء الثانى من كتابه الوافى، وهو الذى ذكر فيه النوع المسمى بالاطراد من محاسن الشعر وبديعه فقال: «وكتب الى صاحبنا الوزير الاديب ابو العباس بلال الحريرى رحمه الله :

ألم اذا شئت تحظى بصالح وشريف
بصالح بن يزيد بـ ن صالح بن شريف»

فنظم هذا الوزير أسماءه كما ذكرها ابن الخطيب فى الاخير ثم نلاحظ قول الاحاطة «ويكنى أبا الطيب» مع أن المعروف عندنا انه يكنى بأبى البقاء. والواقع أنه فى طالعة كتابه الوافى كنى بأبى الطيب بن أبى الحسن .. وكذلك ثبتت كنيته أيضا فى ازهار الرياض اما فى النفح فكنى بأبى البقاء كما هو الشائع، وكذلك كنى فى القطعة المخطوطة التى نقلنا عنها الابيات المزيدة على قصيدته. وكذلك كناه الأستاذ بالنسيا فى كتابه تاريخ الادب العربى فى اسبانيا (I)

I) ص 97 وقد نوه بقصيدته النونية وترجم منها بعض الابيات بالاسبانية ولكنه لم يذكر ترجمة لصاحبنا كانه لم يقف على ترجمته بالاحاطة .

ومؤرخ مدينة رندة السنيور ركاينة(2).. فيظهر انه كان له كنيتان ولكن الثانية منهما أشهر وأسير. وكذا الامر فى والده فان ابن الخطيب لما ذكره فى جملة شيوخ ولده كناه بأبى الحسن كما كنى فى طالعة كتاب الوافى، ولما ذكره ثانيا فى تسمية ولده القصيرة كناه بأبى خالد .

ولعل أهم ما يلاحظ فى الترجمة التى له فى الاحاطة ان لسان الدين لم يذكر فيما رواه له من الشعر، وهو شىء كثير فى الجملة، قصيدته النونية الشهيرة، فاما أنه لم يقف عليها واما أنها لم تثر انتباهه. ولا يقال انها لم تشتهر الا مؤخرا، فقد رأينا أن صاحب الذخيرة السنية قد رواها فى كتابه، وهو ممن مات قبل ابن الخطيب بنحو من نصف قرن. على أن الشعر الذى رواه له ابن الخطيب يتساوى والنونية نفسا وصنعة، وبعضه مما ضمنه هو كتابه الوافى. ومنه فى وصف الليل من قصيدة سلطانية:

وليل بته كالدهر طولا	تنكر لى وعرفه التمام
كأن سماءه روض تحلى	بزَهر الزُهر والشوق الكمام
كأن البدر تحت الغيم وجه	عليه من ملاحته لثام
كأن الكوكب الدرى كأس	وقد رق الزجاجة والمدام
كأن سطور أفلاك الدرارى	نَدىّ والنجوم به ندام
كأن مدار قطب بنات نعش	قِسىّ والرجوم لها سهام
كأن بناته الكبرى جوار	جوار ، والسها فيها غلام

2) ص 103 حيث ذكره عرضا مع بعض ادباء هذه المدينة

كأن بناته الصغرى جمان على لباتها منها نظام

كواكب بت أرعاهن حتى كأنى عاشق وهى الذمام

الى أن مزقــت كـف الثريــا جيوب الافق وانجاب الظلام

فما خلت انصداع الفجر الا قرابا ينتضى منه حسام

وما شبهت وجه الشمس الا بوجهك أيها الملك الهمام

ومنه وارتكب فيه النوع المسمى بالتوشيع من البديع :

كيف التخلص مـن عينيك لى ومتــى ؟

وفيهما القاتــلان الغنــج والحــور

وكيـف يسلو فـؤادى عــن صبابتـــه ؟

ولو نهى الناهيان الشيب والكبر

أنت المنى والمنايا فيك قد جمعت

وعندك الحالتــان النفــع والضــرر

ولى مــن الشــوق مــا إن(I) لا دواء لــه

وعندك الشافيان القرب والنظـر

وفــى وصالـك ما أبقــى به رمقــى

لو ساعد المسعدان الدهر والقدر

وكــان طيــف خيال منـك يقنعنى

لو يذهب المانعان الدمع والسهر

وهى قصيدة طويلة، قال ابن الخطيب: ومن قصيدة مغربة فى الاحسان له :

I) سقطت لفظة إن من الاصل وهى لازمة لاقامة الوزن .

وليلــة نبهــت أجفانهــا | والفجر قد فجر نهر النهار
والليل كالمهزوم يوم الوغى(2) | والشهب مثل الشهب عند الفرار
كأنما استخفـى السهـى خيفة | وطولب النجم بثار فـثار
لذلك ما شابت نواصى الدجى | وطارح النسر أخاه فطـار
وفى الثريا قمر سافـر | عن غرة غير منها السفار
كان عنقودا بهــا مائـل | اذ صار كالعرجون عند السرار
كأنها تسبـك دينــاره | وكفها تدير منـه سوار
كأنها الظلمـة مظلومـة | تحكم الفجـر عليها فجـار
كأنما الصبـح لمشتاقـه | اقبال دنيا بعد ذل افتقـار
كأنما الشمس وقد أشرقت | وجه أبى عبد الاله استنار

ومنه فى وصف القلـم :

وأصفر كالصب فى رونق | تظن به الحب مما نحل
بديع الصفات حديد الشباة | يطول الرماح وان لم يطل
يعبر عمـا وراء الضميـر | ويفعل فعل الظبا والذبل

ومنه في السيف والقلم :

تفاخر السيف فيما قيل والقلم | والفضل بينهما لا شك منقسم
كلاهما شـرف لله درهما | وحبذا الخطتان الحُكْم والحِكَم

ومنه فى الخيرى :

وأزرق كمثــل للسما | فيه لمن ينظر شــىء عجيــب
شح من الصبح بأنفاســه | كأنما الصبح عليه رقيب
وباح لليـل بأسـراره | لما رأى الليــل نهـار الاديـب

---

2) بالاصل: فى يوم الوغى، ولا يخفى أن فى هنا زائدة .

قال ابن الخطيب : وقال من جملة قصائده المطولات التى تفنن فيها رحمه الله :

وغانية يغنى عن العود صوتها
وساقية تسقى وساقية تجرى

بحيث يجر النهر ذيل مجرة
يرف على حافاتها الزهر كالزهر

وقد هزت الارواح خضر كتائب
بألوية بيض على قضب سمر

رمى قزح نبلا إليها فجردت
سيوف سواقيها على دارع النهر

وهبت صبا نجد فجرت غلائلا
تجفف دمع الطل عن وجنة الزهر

كأن بصفح الروض وشى صحيفة
وكالالفات القضب والطرس كالنور(I)

كأن به للاقحوان خواتما
مفضضة فيها فصوص من التبر

كأن به للنرجس الغض أعينا
ترفرف فى اجفانها أدمع القطر

كأن شذا الخيرى زورة عاشق
يرى أن جنح الليل أكتم للسر

I) بالاصل كالتبر ونظن أن ما أثبتناه هو الصواب.

وبعد قطع أخرى فى معان مختلفة، وكلها مثل هذه التى روينا عذوبة الفاظ وسهولة معان، وصنعة وبديعا، أتى ابن الخطيب بنموذج من نثره نقلا عن كتابه روضة الانس وهو رسالة أجاب بها بلديه أبا بكر البرذعى عن مكاتبة أنفذها اليه فى وصف جارية رآها بسوق الرقيق. ثم ختم ترجمته ببيتين من شعره، مما يكتب على القبر، يطلب فيهما الدعاء ممن يمر به.

وقد علم مما تقدم فى ترجمته أن من جملة تآليفه كتابا فى صنعة الشعر اسمه الوافى فى نظم القوافى .. وقد وقفت على هذا الكتاب ضمن مجموع من كتب الخزانة العامة بتطوان يحمل رقم (491) ويقع فى (83) ورقة من الحجم المتوسط ، من مسطرة (26) سطرا ، وخطه مغربى واضح، صحيح فى الجملة، ولم يسم ناسخه نفسه ولا ذكر تاريخ النسخ فى آخره. وجاء فى طالعته بعد البسملة والصلاة على النبى (ص) :

« قال الشيخ الجليل الفقيه القاضى أبو الطيب بن الشيخ الأجل الفقيه المكرم المرحوم أبى الحسن الشريف الرندى رحمه الله تعالى بمنه ونفعنا به ».

فان تصدق هذه التحلية يكن ابو البقاء قد تولى القضاء ، وهو مما لم يذكره ابن الخطيب فى ترجمته .. أما قوله: الشريف، فليس بصواب، والصواب ابن شريف. وقد علمت فيما مضى من ترجمته أنه نفزى، ونفزة قبيلة من البربر قد تنتسب فى حمير ولكنها لا تدعى الشرف بمعناه الخاص. فلا شك أن هذا الوصف محرف عما ذكرنا من اسم جده شريف.

وهاك قوله فيه بعد الخطبة: «وبعد فان الأدب جليس ممتع ، وأنيس مقنع، وخل لا يخل، وألف لا يمل ... ... والى هذا فان الشعر ديوان العرب وايوان الادب وزهرة الكلم وروضة الحكم ، وهو لا محالة محبوب بالطبع، شهى للسمع، فطرة الله التى فطر النفوس الفاضلة عليها، وهدى العقول الكاملة اليها... وقد اوردت فى كتابى هذا جملة كافية فى صنعة الشعر لمن أحب أن يأخذ بأزراره، ويطلع على أسراره، ويتفنن فى بديعه، ويتبين سقطه من رفيعه. هذا وان كان من سلف قد سبق فى هذا المضمار، وكاد لا يبقى منه الا كتقدير الاضمار، فأنت ترى كيف أتى السابق بما أدرك، ثم أتى اللاحق فنقض واستدرك، وفى كل شجرة نار، واسمتجد المرخ والعفار ..... وسميت كتابى هذا بالوافى، فى نظم القوافى. وقسمته أربعة أجزاء، تتضمن ما فيه الاجزاء بحول الله تعالى ».

فاسمه اذاً الوافى لا الكافى كما ذكر فى الاحاطة، وتقدم ما لاحظ به ناسخها على ذلك فى الطرة .

وإليك محتويات هذه الاجزاء الاربعة على حسب التقسيم الذى قسمها اليه المؤلف. فالجزء الاول فيه أربعة ابواب، الباب الاول فى فضل الشعر ومن تكلم به وأثاب عليه. وقد ذكر فيه مدح حسان وكعب بن زهير للنبى (ص) والفرزدق لعلى زين العابدين ووفود الشعراء على عمر بن عبد العزيز، ثم من تكلم بالشعر من الخلفاء الراشدين وأئمة العلماء وخلفاء بنى العباس وأمراء بنى حمدان وملوك الاندلس وافريقية .

الباب الثانى فى الشعراء وطبقاتهم. وقد جعلهم ثلاثة أصناف، أيضا محدث ومولد ثم بعد ذلك كل عصر ينسب اليه أهله .

الباب الثالث فى عمل الشعر وآدابه. وذكر فيه ما يستعان به على قول الشعر والاوقات المناسبة لعمله، وأخباراً طريفة مما يدخل فى باب البديهة والاجازة والمماطلة ومن أطرفها خبر الهيثم الاشبيلي: «وكان فى عصرنا أحد الاعاجيب فى هذا الشأن» يعنى البديهة.

البـــاب الرابع فى أغراض الشعر وآدابه، كذا ولعلها أبوابه، وحصرها فى ثمانية أنواع، النسيب والمدح والتهنئة والرثاء والاعتذار والعتاب والذم، وأورد فى كل نوع منها ما يناسبه من تعريف أو تقسيم ونماذج من أقوال الشعراء المتقدمين عنه والمعاصرين له، ومن شعره هو بالخصوص. وهاك ما قاله فى تعريف النسيب على سبيـل المثال: «النسيب، للروح نسيب، وهو ريحانـة الانس، وسلوانـة النفس ، لانه يستفز ويروق ، ويهز ويشوق ، ولذلك جعلوه صدرا فى المدائح، وسببا للمنائح كما قال أبـو الطيب: إذا كان شعـر فالنسيب المقدم». وبلغ ما أنشده لنفسه فى هذا الباب (32) ما بين قطعة وقصيدة، مع رسالة تعزية وبعضه مما ورد فى الاحاطة، وفيه كذلك أشعار طريفة لمعاصريه .

والجزء الثانى، وهو فى محاسن الشعر وبديعه، فيه أربعون بابا: الباب الاول فى الابتداء، الباب الثانى فى الانتهاء، الباب الثالث فى الاستطراد، الباب الرابـع فـى المطابقة، الباب الخامس فى المقابلة،

الباب السادس فى المناسبة، الباب السابع فى التشبيه ، الباب الثامن فى الاستعارة، الباب التاسع فى التخييل ، الباب العاشر فى التفريع، الباب الحادى عشر فى التوجيه، الباب الثانى عشر فى التمثيل، الثالث عشر فى التمثيل ، ويريد به هنا ارسال المثل ، وفيما قبله نوعا من التشبيه، الباب الخامس عشر فى المضارعة ، الباب السادس عشر فى الترديد ، الباب السابع عشر فى التصدير، الباب الثامن عشر فى الاتباع ، الباب التاسع عشر فى التبديل ، الباب العشرون فى التضمين، الباب الحادى والعشرون فى الاطراد ، الباب الثانى والعشرون فى التفسير، الباب الثالث والعشرون فى المبالغة ، الباب الرابع والعشرون فى التتميم، الباب الخامس والعشرون فى التسهيم ، الباب السادس و العشرون فى التحرز ، الباب السابع والعشرون فى الالتفات ، الباب الثامن والعشرون فى التحريف، الباب التاسع والعشرون فى الاستثناء والاستدراك ، الباب الموفى ثلاثين فى القلب، الباب الحادى والثلاثون فى التصحيف، الباب الثانى والثلاثون فى الترصيع ، الباب الثالث والثلاثون فى التسجيع، الباب الرابع والثلاثون فى التسميط ، الباب الخامس والثلاثون فى لزوم ما لا يلزم، الباب السادس والثلاثون فى التفصيل، الباب السابع والثلاثون فى التختيم ، الباب الثامن والثلاثون فى الاحالة ، الباب الموفى أربعين فى اللغز .

ويطول بنا الكلام اذا تتبعنا ذكر محتويات هذه الابواب، وكلها من أنواع البديع المعروفة، وإن سمى بعضها بغير ما اشتهر به وقد

طرز أبواب هذا الجزء بما يبلغ (20) ما بين قطعة وبيت من شعره، وبأشعار نادرة لمعاصريه .

والجزء الثالث فى عيوب الشعر، وهى ثلاثة: الاخلال والسرقة والضرورة. وقد تكلم على هذه الاقسام ومثل لها من كلام الشعراء، قدماء ومحدثين بما لا مزيد عليه من الاحسان. ولم يخص الاخلال بفصل مستقل وإنما جعله تسعة أضرب ثم تكلم عليها واحداً فواحداً، وأما السرقة فعقد لها ثلاثة فصول الاول فى ضروبها وألقابها، والثانى فى مراتب الاخذ، والثالث فيما يشبه السرقة وليس منها، ثم أتى بفصل فريد فيما يجوز فى الشعر لغير ضرورة، وهذا الفصل هو آخر هذا الجزء.

والجزء الرابع فى حد الشعر والعروض والقافية. وفيه فصل فى ألقاب البيت التى تختلف باختلاف أحواله . وفصل فى أنواع الشعر وألقابها، ويعنى بها أوزانه قال: انواع الشعر أربعة وعشرون خمسة عشر قديمة تكلمت بها العرب وتسعة محدثة ولدها المحدثون. وقد تكلم على الاوزان او بالحرى البحور القديمة المعروفة، أعاريضها ضروبها وما يعرض لها من زحاف وعلة، وختم ذلك بذكر الاجزاء التى يتركب منها كل بحر، منظومة مع شطر من عمله يبين فيه اسم الوزن المراد، وذلك مثل قوله فى الطويل:

ومثل طويل الشعر ما أنا قائل

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعل

إلى آخرها . وهذا النظم مشهور، وإنما ذكرناه لننبه على أنه من عمله . ثم عقب ذلك بذكر الاوزان المحدثة وهى الوسيط

والوسيم والمعتمد والمتئد والمسرد والمطرد والحبب والفريد والعميد .

ومضى فى ذكر أجزاء تفاعيلها وأمثلتها على ما سبق له فى البحور الشعرية القديمة. ويلاحظ أنه ذكر الحبب مع الاوزان المحدثة، وقد علم أن الاخفش استدركه على الخليل وذهب الى أن العرب تكلمت به فهو اذن من البحور القديمة ويسمى لذلك المستدرك، وبعد هذا وذاك يأتى بفصل فى القافية ثم بآخر فى عيوب الاعاريض والقوافى وبه يختم الكتـــاب .

ومن هذا العرض السريع لمحتويات الكتاب يعلم أنه كتاب عامر على صغر حجمه، ويؤخذ منـــه أن مؤلفه كـان على جانب كبير مـــن الثقافة الادبية، خصوصا وأنه كثيراً ما يدلى بنظره فى القضايا التى يعرضها مما يتصل بالذوق والصنعة والنقد بوجه عام، والميزة التى ينفرد بها هى ما يحتوى عليـــه من قطع شعريـــة وقصائد وأبيات للمؤلف ولبعض المعاصرين له من أهل الادب، وحكايات عنهم وأخبار ومساجلات تتصل بالموضوع الذى يكون فيه .. فهو لذلك حرى بالنشر إحياء لذكرى مؤلفه ولهذه الفائدة الجليلة .

هذا ويوجد منه نسخة أخـرى بقسم المخطوطات فى المكتبـة العامة بعاصمة الرباط تحت رقم 290 ولم نطلع عليها.

ابن الابار وكتابه الحلة السيراء

تاليف الدكتور عبد الله الطباع

ظلت المباحث المغربية والاندلسية الى أمد قريب من هذا العصر وقفا على أقلام المستشرقين الذين كانوا هم الباعثين لها من الركود الذى اعتراها بعد وقوف حركة البحث التاريخى والادبى فى العالم العربى مدى ثلاثة القرون الاخيرة. وان العجب ليأخذ المرء حينما يطلع على لمجهودات الطائلة التى بذلها اولئك الاعلام فى هذا الصدد، فمن ناشر لامهات الكتب التى تعتبر المرجع الاول فى تلك المباحث نشرا دقيقا محققا مقربا بالتعاليق الضافية المفيدة، والفهارس التفصيلية المتعددة، ومن مؤلف فى غير ما فرع من هذه المباحث تآليف محيطة بالموضوع، محررة تحرير الجوهر الا فيما لا يمكن التخلص منه كنزعة دينية غالبة، أو وهم ناشىء عن ضعف فى الثقافة العربية والاسلامية. وما تزال أعمال الرائدين الاولين من هذه الطائفة من المستشرقين أو قل المستعربين أمثال دوزى وامارى ودى سلان وأسين وبالنسيا فضلا عمن أتى بعدهم منارا يستهدى به الدارسون والطلاب فى مختلف الكليات والجامعات فى انحاء العالم كلما تعلق

الامر بناحية من نواحي البحث التاريخي او الادبي في المغرب والاندلس .

ولما عمت اليقظة جميع أنحاء العالم العربي في مطلع هذا القرن وقامت فيه هذه النهضة العلمية المباركة كان اخواننا الشرقيون هم أول من انتبه الى هذه المباحث وتناولوها بأقلامهم مترجمين لاعمال المستشرقين المذكورين أو مؤلفين، وكانت طبيعة تقسيم الاعمال وتوزيع الاختصاصات تقضي بأن يختص أبناء المغرب بتناول هذه المباحث أو ان يسبقوا اليها على الاقل لانها امس بهم وهم احرى ان يكونوا اكثر اتقانا لها من غيرهم، ولكن تأخر النهضة العلمية في المغرب والتثقيف بغير العربية الشائع في جل أبنائه لم يفسحا المجال لظهور باحثين متمكنين على الصعيد المغربي والاندلسي من أبناء المغرب الا ما ندر كالاستاذ حسن حسني عبد الوهاب في تونس، والمرحوم محمد بن أبي شنب في الجزائر، على أن اولئك الرواد الشرقيين لم يكونوا يلمون بهذه المباحث الا لماما وكان يظهر على بعض أعمالهم ضعف محسوس حتى برز منهم في الميدان فرسان مجلون كمحمد كرد علي والامير شكيب ارسلان واحمد زكي باشا واحمد تيمور باشا، ثم جاءت بعدهم ثلة أخرى من الباحثين المتضلعين كالاستاذ محمد عبد الله عنان والدكتور حسين مؤنس والدكتور شوقي ضيف والدكتور جودة الركابي وغيرهم.

وأحست مصر وهي السباقة الى كل مأثرة أن القيام بهذه الدراسات على أرض المغرب وفي عين المكان يؤتي أكله جنيا، ويأتي

باعظم النتائج، فهمت بفتح معهد للابحاث فـى بلاد المغرب، ولكـن الاستعمار الفرنسى كان لا يزال يقبض على مقاليـد الامور فى هـذه البلاد بيد من حديد فلم يسمح بفتح المعهد. وتحولت أنظار المسؤولين المصريين الى العدوة الاخرى، الى أرض الاندلس، فلم يكن الا قليل حتى رأينا المعهد المصرى للدراسات الاسلامية يفتح أبوابه فى مدريد عاصمة اسبانيا والبعثات العلمية المصرية تتوالى على جامعات الاسبان فيتخرج منها المختصون البارعون فى اللغـة الاسبانية وما يتعلـق باسبانيا الاسلامية من تاريخ وحضارة وأدب وفن، أمثال الدكاتـرة عبد العزيز الاهوانى ولطفى عبد البديع ومختار العبادى ومحمود مكى وجمال محرز وغيرهم. ويخرج المعهد مجلة تعنى بهذه الابحاث فيكتب فيها كبار المختصين وتصير من أوثق المراجع فى هذا الشأن .

ومرة أخرى يتخلف المغرب وكان حقـه أن يكون سابقا فـى الميدان، ويتقاعس أبناؤه الذين عرفوا اللغة الاسبانية من قبل عن واجبهم فلا يكون لهم أى أثر ملحوظ فى هذا المجال، وينتبه قطـر شرقى آخر شقيق للامر هو لبنان فيوفـد أيضا بعثة دراسية مـن خيرة أبنائه المثقفين الى اسبانيا فلا يلبث أن يتوفر هو ايضا على متخرجين مختصين فى الدراسات الاندلسية أمثال مؤلفنا الـذى اليه يساق الكلام وهو الدكتور عبد الله أنيس الطباع .

عرفت الاستاذ الطباع أولا من نشره لكتاب فتح الاندلس لابن القوطية، ثم لقيته بعد وقد حصل عـلى دكتوراه الدولـة من جامعة مدريد باطروحته التي قدمها الى كلية الادب من هذه الجامعة عن ابن

الابار وكتابه الحلة السيراء، فرأيت فيه شابا يطفح بالنشاط الادبى وتتقمصه الروح العلمية مع التشبع بالمفاخر العربية والاشادة بالمثل الاسلامية وأطلعنى على أطروحته المذكورة فاذا بى امام عمل علمى ناجح، وبحث جامعى كامل، وقد وضع تصميمه فكر منظم نقاد وكتب فصوله قلم مثقف سيال، واذا بى استغرق وقتى كله فى مطالعة هذه الاطروحة، وانصرف عما كنت بصدده من أعمال أخرى، مطالعة او كتابة او استجمام، واى نجاح تبغيه لكتاب اكثر من ان يصرفك عن شؤونك الخاصة حتى عن ساعة استرواحك، اذ يصير شغلك به راحة لنفسك، كما قال الرسول (ص) لمؤذنه أرحنا بها يا بلال، وكانت الصلاة قرة عينه عليه السلام؟ وهكذا لم أضع أطروحة الدكتور الطباع من يدى حتى أتيت على ختامها، ثم جعلت أتصفح بعض فصولها للمرة الثانية مراجعا ومتمليا، وأنا أود ان لا افرغ من مطالعتها لولا انى كنت مضطرا لاعادتها عاجلا الى المؤلف الذى كان على جناح سفر وهذه النسخة هى اصله الوحيد من الكتاب.

أنا اعتبر ابن الابار محظوظا من بين نظرائه من علماء الاندلس الكثار الذين لم يكتب عنهم لحد الآن ولا بحث واحد يعرف بهم وبأعمالهم الادبية ، فهو فى ظرف عشر سنوات فقط قد قيض له باحثان متمكنان كتبا ترجمته باسهاب وأخرجا للناس عنه كتابين قيمين مما تزدان به المكتبة العربية وخاصة فى فن التراجم. وكأن الله عز وجل عوضه مما لقيه فى حياته من جحد ونكران وشقاء وحرمان بهذه العناية التى لقيها من جيلنا الحاضر، فنوهت بذكره وأشادت

بعمله وانصفته من خصومه وردت اليه كامل اعتباره الذى اصطلحت على سلبه أياه العوامل السياسية والحزازات الشخصية. وقد كان الكتاب الاول الذى صدر عنه منذ عشر سنوات تقريبا هو كتاب ابن الابار، حياته وكتبه، لصديقنا المرحوم الدكتور عبد العزيز عبد المجيد، وهو بحث كان قد اقترح من طرف معهد مولاى الحسن للابحاث بتطوان لنيل جائزته السنوية فحصل عليها وطبع بعناية المعهد المذكور. ومن غريب الاتفاق أنى كنت قدمت لهذا الكتاب بصفتى اذ ذاك مدير معهد مولاى الحسن، وها أنا أقدم الآن لاطروحة الدكتور التى هى الكتاب الثانى عن ابن الابار، فأنا أعتبر نفسى محظوظا ايضا من اجل هذا الشرف الذى خصنى به الصديقان العزيزان مؤلفا ترجمتى ابن الابار هاتين.

واذا كان لى ان أقول كلمة عن الكتابين والميزة التى لكل واحد منهما بحكم نظرى فيهما معا وتعرفى على صاحبيهما الفاضلين، فانى سوف لا أحيد عن الواقع اذا قلت ان عمل الدكتور عبد العزيز عبد المجيد كان مركزا على فكرة التعريف بابن الابار وكتبه جميعا وهو الموضوع الذى اقترحه معهد مولاى الحسن، وقد جاء كتابه موفيا بهذا الغرض بحيث اجازته لجنة المعهد بالاجماع وهى لجنة مركبة من نخبة أهل العلم والادب بتطوان اذ ذاك، فى حين ان عمل الدكتور عبد الله الطباع كان منبثقا من تفكيره الشخصى وهو وان اشترك مع عمل سلفه فى الترجمة لابن الابار والتعريف بآثاره الادبية فان أضواءه الكاشفة كانت موجهة الى كتاب الحلة السيراء من تآليف ابن

الابار بصفة أقوى ولذلك فهو يعتبر دراسة خاصة لهذا الكتاب الذى هو أهم كتب ابن الابار، وقد اجتاز بها صاحبها امتحان الدكتوراه فهى اذن دراسة ناجحة كما ينبغى أن يكون النجاح. ولزيادة التعريف بهذا الكتاب القيم نقدم للقارىء الكريم صورة عن تصميمه ومنهجه العلمى ملفتين النظر خاصة الى الموضوعات التى حظيت باهتمام المؤلف وعنايته فخرج فيها بآراء جديدة يصح اليها الاطمئنان .

قسم المؤلف أطروحته الى قسمين. فخصص القسم الاول للكلام عن حياة ابن الابار والقسم الثانى لدراسة كتابه الحلة السيراء، والقسم الاول يشتمل على ستة فصول، فالفصل الاول جعله مدخلا لدراسة الرجل فذكر فيه صورا عن حياة العرب فى اسبانيا بلد المتناقضات وعرف باسم المترجم ونسبه ومولده ونشأته الثقافية. والفصل الثانى تعرض فيه لحياة ابن الابار فى بلده بلنسية وفى تونس رسولا اليها من أمير بلده، ثم مقيما بها نهائيا فى خدمة ملوكها الحفصيين والفصل الثالث تكلم فيه على مذهب ابن الابار السياسى وتشيعه الذي حقق المؤلف أنه تشيع عاطفى لا عقدى ولا مذهبى برغم العبارات الموهمة التى وردت فى كتابه درز السمط، وهو تحقيق لم يسبق اليه حقيق بالقبول، والفصل الرابع وضعه للكلام على مؤلفات ابن الابار والقيمة العلمية له. والفصل الخامس عقده لابن الابار الكاتب وأسلوبه. والفصل السادس لابن الابار الشاعر وفيه دراسة مفصلة لقصيدته السينية (أدرك بخيلك خيل الله أندلسا). اما الثانى الذى خصصه لدراسة الحلة السيراء، وهو زبدة الكتاب فقد

قدم فيه عرضا موجزا لجميع تراجم الحلة وتوسع فى تراجم الرجال البارزين منهم ونقد هذه التراجم من الناحية الموضوعية لتاريخ الاعلام واتبع ذلك نقدا للحياة السياسية والاجتماعية فى الاندلس مع ابداء آراء على جانب كبير من الاهمية فى اسباب انهيار ذلك الفردوس العربى. وكان اعتماده فى هذه الدراسة على ما نشره دوزى وموللر من كتاب الحلة، الاول فى كتابيه: «ملاحظات حول بعض المخطوطات العربية» و «بنى عباد الاشبيليين» والثانى فى مجلة الدراسات العربية التى تصدر بمونيخ، فهو اذا لم يعتمد على المخطوطة الاصلية للحلة التى يجرى طبع الكتاب عليها الآن فى ليدن، ولكنه يعتقد أن هذه المنشورات الثلاثة تشكل وحدة للحلة السيراء بحيث يصح الاعتماد عليها فى دراسة الكتاب وهو اعتقاد صحيح لا سيما وقد أعطانا هذه النتيجة المفيدة التى لم يكن ليخرج بأحسن منها حتى ولو أجرى بحثه على أصل الكتاب، وهى التاريخ لاولئك الاعلام الذين ساهموا فى ازدهار الشعر العربى بافريقية والاندلس ودراسة البيئات العربية الثلاث فى الاندلس على عهد الامويين وملوك الطوائف وفى سائر المغرب العربى على عهد ملوكه الآخرين، وقدم لنا دراسة قيمة لقيمة الحلة الادبية وللشعر المروى فيها بالنسبة الى الشعر الاندلسى عامة. ومن رأيه فى هذا الشعر ــ وهو كما لا يخفى شعر ملوك وأمراء فان الحلة انما ألفت فيه ــ انه شعر لطبقة غنية مترفة كان بالنسبة اليها تسلية وترفا فهو لذلك أقل قيمة من شعر غيرهم من الادباء.

وفى دراسته لقيمة الحلة التاريخية أكـد أن ابن الابار كـان اسبق من ابن خلدون الى نقد التاريخ، وهذه قضية مهمة أقـل ما يستفاد منها أنها قد تكون عنصرا من عناصر التأثير فى لفت نظر ابن خلدون الى النقد التاريخى .

وتطفح أطروحة الدكتور الطباع بعد ذلك بالمصادر التى اعتمدها فى بحثه وهى مصادر اسبانية وفرنسية والمانية وانكليزية فضلا عن المصادر العربية. وعليه فلا غرو أن تأتى هذه الاطروحة على الصفة التى قدمناها وفاء بالموضوع واستيعاباً لمناحى البحث مما لا نملك أنفسنا معه أن نهنئه من صميم القلب ونتمنى له حياة سعيدة فـى خدمة العلم والادب حتى يوافينا دائمـا بثمرات ناضجة من نتائـج بحثه تكون فخرا له وثراء للدراسات العربية .

البنيس وألفاظ أخرى*

في سنة ١٩٣٢ نشرت كتاب المنتخب من شعر ابن زاكور ، وهو منتخب عملته من ديوان هذا الشاعر الرقيق المسمى بالروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض والذي لا يزال مخطوطاً . وقد قدمت له بمقدمة عرفت فيها بابن زاكور وأدبه ، وبينت لماذا عملت هذا المنتخب من شعره ولم أنشر ديوانه كله . كما بينت طريقتي في الاختيار والترتيب ، وعنونت القصائد وضبطت الأشعار كلها بالشكل وفسرت الألفاظ الغريبة التي توقفت فيها أو قدرت أن القارئ قد يتوقف فيها وعملت له فهرساً على المواضيع وآخر على الحروف . وذلك غاية ما أمكنني عمله اذ ذاك في خدمة هذا الشاعر وتقديمه للناشئة المغربية والأدباء على العموم في بلادنا العربية .

واعترافاً بالحق أقول انني لما مررت بقول الشاعر في أحد موشحاته :

بنت كرم حببت كرمتها   لأبي بلقيس

وسقاها فبدت نضرتها   ارسطاطاليس

خلتها لما غشت سورتها   في حشا (البنيس)

زجل الرهبان يوم المهرجان   في حمى عبدون

أو فؤادي اذا علاه الخفقان   فهو كالمجنون

وقفت طويلاً عند هذا البنيس اذ لم أعرف مدلوله ، وراجعت ما بيدي من كتب اللغة فلم أجد له ذكراً ، بل راجعت كتباً أخرى حسبتها مظنة لذكره

---

* المقالة الأصلية سقطت من النسخة المصورة؛ فاستعضت عنها بنفس المقالة المنشورة في مجلة المجمع العلمي العربي التي كان ينشر فيها العلامة عبد الله كنون رحمه الله. /الأندلسي

كحلبة الكميت وخاصة هذا الباب الذي عقده النواجي لوصف ما يشتمل عليه مجلس الأنس من أواني الشراب ككاسات وطاسات وبواطي وظروف وراووق وقناني وأباريق وغير ذلك ، كما استعرضت باب الخمريات في ديوان أبي نواس ، ومجموع الأغاني والألحان الذي يجمع الأشعار المستعملة في نوبات الموسيقى الأندلسية أي أدوادها الأربعة عشر ، نشر ادمون باتيل وهو يشتمل على قصائد وموشحات ومقطوعات غنائية كثيرة ، فلم أعثر في كل ذلك على لفظة البنيس المطلوبة مع العلم بأن ابن زاكور انما يحذو حذو شعراء الأندلس والوشاحين منهم بالخصوص في موشحه هذا وغيره .

وكان هذا البحث ارضاء لحب الاطلاع فقط وإلا فان معاني الشعر لم تكن خافية . وقد تركت اللفظة على ما هي عليه ونسيت البحث عنها فيما بعد . ثم وقفت في دفة بعض المخطوطات على ما يلي :

« من رحلة ابن رُشَيد » : أنشدني ابن حيان ، أنشدني أبو عبد الله بن حنبنى ، أنشدني أبو الحجاج يوسف بن حكم لنفسه ، وقد رغبت منه في شيء من المداد :

جاءتك تشكو بالظما ، إذ لم تجد ... ريًّا ، وقد سقّيتها تدريجـا
وسألت (بنيس المداد) فقال لي ... من أين لي أن أملأ الصهريجا
ورأيت أن الود ليس بخالص ... إن كان ما ألقى به ممزوجا »

وأظن أن اسم ابن حيان هنا محرف عن أبي حيان ، وهو النحوي الأندلسي المشهور ، لقيه ابن رُشَيد صاحب الرحلة المنقول منها هذا الإنشاد في ثغر الاسكندرية عند إيابه . وقد رجعت الى مخطوطة الاسكوريال الوحيدة من هذه الرحلة للتحقق من هذه الأبيات فلم أجدها فيما أنشَدَهُ أبوحيان ابنَ رُشَيد من شعره أو شعر غيره في الجزء الخامس منهـا ، ولا في غيره من الأجزاء الخمسة الموجودة في مكتبة الاسكوريال ، فلعلها كانت في الجزء المفقود من هذه الرحلة .

والمقصود من هذا كله أن لفظة البنبس وردت في هذه الأبيات مضافة الى المداد ، فتفيد أنها وعاء يستعمل للخمر وغيرها .

وفيما كنت أتذاكر قبل بضع سنوات مع الصديق المرحوم قاضي طنجة سابقاً السيد محمد بن رحمون ، أنشدني عفواً هذا البيت للشيخ المشرفي :

وما البنبس إلا إناء خمر وبالتحقيق قد وجب انكساره

فتلقفت منه هذا البيت بلهفة ، إذ حدد فيه معنى البنيس وشرحه شرحاً لغوياً معجمياً كما لو كان يعرف ما في نفسي من أمر هذه اللفظة فشفى غلتي وأزال حيرتي . على أن البيت لم يقصد لشرح المعنى اللغوي لكلمة البنيس وانما هو هجاء لشخص من أولاد بنيس ، وهم أسرة مغربية معروفة اشتهرت بهذا الاسم وأصلها من مدينة فاس . فاغتنم قائله هذا الاشتراك اللفظي بين اسمه وبين البنيس بمعنى إناء الخمر فورّى به وحكم حكماً شرعياً بوجوب كسره فبلغ قصده من الهجاء وأفادنا رحمه الله[1] هذه الفائدة الجلّى .

وفي هذه الأيام بينما كنت أطالع كتاب المدارك للقاضي عياض ، نسخة خطية خاصة ، إذ وقفت في ترجمته للقاضي أحمد بن بَقيّ بن مخلد على هذه الحكاية :

« وذكر أنه كان في مجلس نظره ، وقد غص بالفقهاء والعدول والخصم ، حتى دخل عليه المتنوه المعروف بابن شمس الضحى ، وكان من ذوي البيوتات والثروة . فقال يا قاضي المسلمين أريد أن تأمر وكيل فلان[2] يزرع لي بقربتي

---

(١) الشيخ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي صاحب البيت المذكور من علماء المغرب في الثلث الأول من هذا القرن ، اشتهر بكتابه الدر المكنون في ترجمة الشيخ محمد كنون وهو مطبوع على الحجر بفاس وبكتابه اظهار العقوق في منع التوسل بالنبي والولي الصدوق ، طبع بمصر . وكان يتعاطى الأدب وولي القضاء بفاس الجديدة مدة .

(٢) كذا بالأصل ولعلها وكيلي فلاناً .

(بنانيس) فتنبت لي خوابي فأحصل على ربحي . فما بقي أحد في المجلس إلا ضحك سوى القاضي ، فانه وجم واستعبر وقال : يا بني : لقد ظلمك من ألقى هذا على لسانك . ثم قال لأهل مجلسه : وا أسفا على سخريتكم وضحككم منه . انا لله وانا اليه راجعون على قلة التحصيل وعزوب العقول . فان البكاء على هذا أولى وأليق ، فما بيننا وبين زوال العافية إلا الذهول عن شكرها . اللهم اسدل علينا سترها[1] واحفظ عقولنا لمعرفتك ، وارزقنا ذرية طيبة صالحة زكية تقر أعيننا بها . فاستحيى من حضر .

فاستفدت منها زيادة على مغزاها الخلقي الذي أشار له القاضي ابن مخلد ولأجله أورد الحكاية ، أن البنيس اناء من فخار ولذلك جعله المعتوه صاحب الحكاية بزرة للخابية . والخابية من الفخار معروفة ، كما استفدت أنهم كانوا يجمعونه على بنانيس ولم يبق حينئذ حول هذه اللفظة أدنى شيء من الابهام . فهي تطلق على إناء صغير يصنع من الفخار كالجرّة والحبّ والخابية ، ويغلب استعماله للخمر وان كان قد يستعمل لغيرها من المائعات كالمداد على ما رأيت . وكانت هذه اللفظة من الدارج على ألسنة أهل الأندلس ولا نعرف ما إذا كان أصلها اسبانيا ، على أننا بحثنا عنها فيما عندنا من المعاجم الاسبانية فلم نجدها . أما في المغرب فلم تجر الا على ألسنة أهل الأدب مما يدل على اقتباسها من الأشعار الأندلسية .

وبخلاف البنيس ، لفظ الشرجب وجمعه شراجب ، وقد يقولون شرجم بالميم كما يقولون في رجب رجم ، وهي لغة ، فهذا اللفظ مما يجري على الألسنة هنا في المغرب كثيراً كما كان جاريًا على ألسنة أهل الأندلس وربما ورد في أشعارهم . وهو يعني ما يسمى الآن في هندسة المباني بالنافذة Le guichet, La fenêtre وفي نظري هو أدل منها على المعنى المراد فان النافذة أعمّ من الشرجب والطاقة

---

(١) لعل الصواب سترك .

والكوة وحتى الباب وغيرها مما يقع منه النفوذ ، ولولا أن الاستعمال خصصها حديثاً بما ذكر لما فهم المراد منها . وذكري للطاقة هنا إنما هو باعتبار الاستعمال المغربي لها في معنى النافذة ، وربما كان استعمالاً أندلسياً أيضاً وهم يجمعونها على طيقان وطاقات . ومعلوم أن مدلول الطاق وجمعه الطيقان في اللغة ؛ هو ما عُقد من الأبنية باباً أو نافذة أو غيرهما فلعلهم بعد ما استعملوه في النافذة خصوه بها ثم أنثوه بالتاء وان اشتبه بالطاقة بمعنى القُدْرة لكن السياق يُعيِّنُه . ومع هذا يبقى لفظ الشرجب متمكناً في معناه الذي يدل على الإنافة والسعة ويستصحب أيضاً الدلالة على فخامة البناء وأناقته ، ولا كذلك دلالة الطاقة في العرف المغربي فأحرى الكوة ..

وجاء في نفح الطيب تعريف للشرجب يكتنفه بعض الإبهام فربما ظهر غير منسجم مع ما ذكرنا من أن معناه هو النافذة . وذلك في الجزء الثاني في ترجمة أبي جعفر بن سعيد ، أثناء حكاية وقعت له مع بعض المُجَّان وهو في نزهة بنهر اشبيلية .. ونص المقصود منها : « ولما وصل صحبة والده الى اشبيلية افتتن بواديها ، واعتكف على الخلاعة فيها ، مصعداً ومنحدراً بين بساتينه ومنازهه . فمر ليلة بطريانة ، فمال نحو منزه فيه طَرَب سمعه فاستوقفه هنالك . وهو في الزورق متكئ ، وأصحابه وأصحاب أبيه مظهرون انحطاطهم عنه في المرتبة . فأخرج رأسَه أحدُ الأنذال المتادين بالنادر من (شرجب) والشرجب هو الدرابزين من خشب فيه طاقات .. وطريانة مقابلة اشبيلية وبها المنازه والأبنية الحسنة ... الخ » فتفسيره للشرجب بالدرابزين غير متوافق مع المعنى الذي ذكرناه له ، ولكن ببعض الايضاح يتطابق التفسير والمعنى المذكور ولا يبقى بينهما خلاف .

فابن سعيد الذي كان في نزهة على متن الوادي الكبير وبشاطئه الذي يلي حيثي طريانة خاصة ، لما سمع الطرب توقف تحت المنزه الذي كان يوجد فيه

المطربون ، « والمنزه في المتعارف مكان مرتفع كالعلّيّة يُشرف على البحر أو على الخلاء ونحوهما من المناظر الطبيعية الجميلة » فأخرج أحد الأنذال رأسه من شرجب في المنزه وجعل يتعاطى مع ابن سعيد فحش القول كما يفيده آخر الحكاية ، فالمهم أنه أطل عليه من شرجب بل أخرج رأسه منه ولا يكون ذلك إلا من نافذة . ولما كانت هذه النافذة ذات شبّاك يمتنع معه بروز الرأس حينما يطل الإنسان منه ، وقال ان فيه طاقات ، والطاقة هنا بالمعنى المستعمل عند المغاربة على حسب ما أشرنا اليه آنفاً أي النافذة . فيخرج من ذلك أن الشرجب نافذة رُكّب عليها شبّاك قد يكون بحيث يصح اخراج الرأس منه والنظر الى الخارج بالأحرى . ففي عبارة النفح اقتصار ، وهو الحذف من غير دليل أو اختصار وهو الحذف مع الدليل للعلم من السياق .

والواقع اننا كذلك نستعمل لفظ الشرجب في النافذة ذات الشباك ، ويكون من حديد كما يكون من خشب . ولكن ذلك ليس بلازم إذ قد يكون الشرجب خالياً من الشباك بل هو الأكثر .

ومن لطيف الأدب الوارد في الشباك قول عبد المومن بن علي أول خليفة للموحدين وكان هو ووزيره أبو جعفر بن عطية مارين ببعض طرق مراكش فأطلت عليهما جارية بديعة الجمال من شباك فقال : قدّت فؤادي[1] من الشباك إذ نظرت

فأجاز وزيره أبو جعفر : حوراء ترنو الى العشاق بالمقل

ثم قال عبد المومن : كأنما لحظها في قلب عاشقها

وأجاز أبو جعفر : سيف المؤيد عبد المومن بن علي

ومما ورد في الشرجب من جميل الشعر قول المعتمد بن عباد ، يخاطب الوزير ابن عمار :

---

(١) كذا ، ولعل (قلبي) بدل فؤادي ليستقيم الوزن . (لجنة المجلة)

ألا حيّ أوطاني بشِلب ، أبابكر وسلهنّ هل عهد الوصال كما أدري
وسلم على (قصر الشراجيب) من فتى له أبداً شوقٌ إلى ذلك القصر

قال الفتح في القلائد عقب هذين البيتين : « وقصر الشراجيب هذا متناه في البهاء والاشراق ، مُباهٍ لزوراء العراق ركضت فيه جياد باحاته ، وأومضت بروق أمانيه في ساحاته ، وجرى الدهر مطيعاً بين بكوره وروحاته ، أيام لم تُحَلّ عنه تمائمه ، ولا خلت من أزاهر الشباب كمائمه الخ » .

ولفظ آخر هو الزّلّيج بكسر اللام مع تشديدها ويعني الفسيفساء والقاشاني ، هذين اللفظين اللذين يستعملان في الشرق العربي ولا نعرفها في المغرب . والأول ليس بعربي والثاني لعله منسوب الى قاشان لصنعه فيها . أما لفظنا فله أصل في المادة اللغوية (زلج) ولعله أُخذ منها . وفي القاموس : « والزُّلُج بضمتين الصخور المُلس » والمهم ان هذه الصنعة الدقيقة قديمة في المغرب والأندلس ، ولا تزال حية ونشيطة فيه ، ولا اسم لها عندنا الا الزليج ، ويقال لاصحابها الزلايجي وجمعه الزلايجية ، ويستعمل منها فعل زلّج الرباعي المضعف وتصاريفه ، فهل آن الأوان لتأخذ هذه الكلمة طريقها الى المعجم العربي وتحل فيه محل الفسيفساء والقاشاني [1] أو تقوم الى جانبها على الأقل اسماً لهذا النوع المغربي الممتاز من مدلول تينك الكلمتين ؟ . .

ومما ورد فيه كلمة الزليج نثراً هذه الفقرة من وصف الافراني لقصر (البديع) الذي بناه المنصور الذهبي في مدينة مراكش بين سنتي ٩٩٦ هـ – ١٠٠٢ ، وذلك في كتابه نزهة الحادي ، ص ٩٤ طبع فاس ونصها : « وفيه من الرخام المجزّع والمرمر الأبيض المفضّض والأسود ، وكل رخامة طُلي رأسها بالذهب

---

(١) الفسيفساء غير القاشاني ، وكلمة زليج تنطبق على القاشاني المشرقي وحده وهي خليقة بدخول معاجمنا العربية . (لجنة المجلة)

الذائب ، ومُوِّه بالنضار الصافي ، وفُرشت أرضه بالرخام العجيب النحت الصافي البشَرة ، وجُمل في أضعاف ذلك (الزليج) المتنوع التلوين حتى كأنه خمائل الزهر ، أو برد موشى من عمل صنعاء أو تُستُر » ، وفقرة أخرى من نفس الصفحة في وصف الكتابة والنقوش التي كانت على جدران القصر وستوره وهي هذه : « وفيه من الأشعار المرقومة في الأستار والأبيات المنقوشة في الخشب (والزليج) والجبس ما يسر الناظر ويروق المتأمل ويبهر العقول » ونقل الناصري في الاستقصاء نفس العبارات وأصلها للكاتب القشتالي في تاريخه : مناهل الصفا .

أما في الشعر فقد جاء لفظ الزليج في عدة قصائد وأبيات ، ونختار منها المقطعة الآتية للأديب ادريس بن علي السناني التي قالها في وصف روض لأحد الأكابر بفاس وهي تُنشر لأول مرة :

روضٌ يروق الناظرين بهيجُ	سيان فيه الزهر والزّليجُ
فكلاهما في بهجة وتنوعٍ	يُحيي النفوس بحسنه ويَهيج
إن جئته تبغي انتشاق أريجه	وافاك دون الباب منه أريجُ
قد عربدت أشجاره بمدامة	شبه اللجين يديرها الصهريجُ
والطير تشدو في الغصون بنغمة	في شدوها التفريح والتفريجُ
نلنا به عند الصباح مسرةً	والغصن غصن والخليج خليجُ
أبقاه ربي زاهراً في نضرة	مايم الحرم الشريف حجيج

ونسجل هنا ورود كلمة (الصهريج) في هذه القطعة والأبيات الثلاثة السابقة التي ورد فيها ذكر البنيس ، ملاحظين كثرة استعمالها في المغرب ودورانها على ألسنة العموم وتسمية أحواض مائية شهيرة بها كصهريج المنارة بمراكش الذي بناه عبد المومن الموحدي وكان يمرن فيه الجنود على العوم والتجديف ، وكمدرسة الصهريج بفاس وغيرهما ، في حين اننا قلما نعثر على استعمالها في الآثار الأدبية الشرقية ، وفي الكتابات الوصفية التي يحررها أدباء الشرق ماعدا أثر واحد

هو كتاب صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكري فهو الوحيد الذي استعمل هذه الكلمة من الكتاب الشرقيين فيما علمنا .

وما دمت قد ذكرت هذين اللفظين أو المصطلحين المستعملين في البناء وما اليه وهما الشرجب والزليج فيحلو لي أن أشير هنا الى اني قرأت في كتاب المؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية المنعقد في دمشق سنة ١٩٥٦ نشر الإدارة الثقافية التابعة للجامعة العربية بحثاً قيماً للدكتور مصطفى جواد في وسائل النهوض باللغة العربية وتيسير قواعدها وكتابتها ، ومما جاء فيه عند الكلام على مصطلحات البناء نقله عن أساس البلاغة كلمة الحضرة للمصطلح المسمى بالفرنسية matériaux أي مواد البناء من آجر وجير وغيرهما ملاحظاً أن المجامع العربية لم تضع له مقابلاً ، ونقله للمصطلح المذكور عن الزمخشري في محله ، وانما أريد أن أقول اننا هنا في المغرب نستعمل في هذا المعنى كلمة الأنقاض فتأتي في ألفاظ المُوثّقين وحسابات المُقاولين وهي كلمة لا غبار عليها لأنها تسمية للشيء بما يؤول اليه على طريقة المجاز المرسل (١) كقوله تعالى « اني أراني أعصر خمراً » في تسمية العصير .

وفي هذا البحث العظيم الفائدة استشهد صاحبه الدكتور جواد على استعمال استلم بمعنى تسلم بنص لابن بدرون في شرحه لقصيدة ابن عبدون الشهيرة قائلاً : « فهو مستعمل عند أدباء الأندلس منذ المائة السادسة من الهجرة في أقل اعتبار » وأضيف الى هذا الشاهد شاهداً آخر يدل على أن أدباء المشرق قد عرفوا هذا المعنى لفعل استلم واستعملوه في تاريخ قريب لتاريخ ابن بدرون وهو قول البوصيري في قصيدته المعروفة بالبُرْدة :

ما سامني الدهر ضيماً واستجرت به	الاّ ونلتُ جواراً منه لم يُضَم
ولا التمستُ غنى الدارين من يده	الا (استَلمتُ) الندى من خير (مُستَلَم)

---

(١) المسمى بمجاز الأول .

كذلك في الجزء الثاني من المجلد الرابع والثلاثين من مجلتنا هذه قرأت للدكتور حسني سبح في مقاله المعنون بنظرة في معجم المصطلحات الطبية ما علق به على كلمة سلابة التي وضعها المعجم المذكور لكلمة Abats الافرنجية وفسرها بغاشة الأحشاء ، واني بعد اعلان إعجابي بتحقيق الدكتور سبح وتدقيقه في مطابقة الألفاظ لمعانيها المرادة ، أذكر أن هذا المصطلح يستعمل له في المغرب لفظ السقط ويقال لبائعه السقاط وللمكان بيعه السقاطين ، وأظن أنهم في الأندلس كانوا يستعملونه أيضاً لهذا المعنى . وكل من زار غرناطة فلا بد انه مر على المكان المعروف بالسقاطين الى يومنا هذا وهو مكان ضيق يشتمل على دكاكين صغيرة متقابلة مما يكون عليه وضع دكاكين الجزارة ، وان كان في الوقت الراهن يباع فيه بضائع تجارية متنوعة . وكلمة (سقط) في اللغة تطلق على الولد لغير تمام كما أنها بالفتح تطلق على رديء المتاع وكلا الدلالتين قريب مما نطلقها عليه من حشا الحيوان المأكول (الذي يشمل الكوارع والكبد والطحال والدماغ والقلب والرئة فضلاً عن الكرش والمصارين خلا الاهاب . والواقع أن نطق الكلمة عند العموم يختلف باختلاف الجهات ، ففي فاس مثلاً يقولون السقط بسكون القاف ، وفي طنجة يقولون السقط بفتحها مع تسكين السين في النطقين معاً على عادة العامة في الابتداء بالساكن خلافاً للقاعدة العربية . ومهما يكن الأمر فان الاستعمال القائم لكلمة لا يقع على رديء المتاع بل على حشا الحيوان ، فهل يصح لي أن أقترح الكلمة للمصطلح المذكور لا سيما والدكتور سبح ترك المكان فارغا فلم يأت بمقترح جديد بعد نقد مصطلح المعجم ؟

التفكير فريضة اسلامية
واشتات مجتمعات فى اللغة والادب

أن يظفر بكتابٍ قَيِّم هديةً من مؤلِّفه، وأن يكون هذا المؤلِّف هو رائد الفكر العربي الحديث الأستاذ عباس محمود العقاد، ثم أن يكون الكتاب من آخر ما صدر له، وأن يتفضَّل بتجليده تجليداً لطيفاً، ويتوجَّه بعبارة الإهداء التي تشعرك باهتمامه بك وحظوظك لديه، إن ذلك لمنتهى التقدير وغاية الودّ.

والحقيقة أنهما كتابان أولهما يدخل في باب الدراسات الدينية، وهو الذي يحمل اسم «التفكير فريضة إسلامية»، وثانيهما يتناول مباحث لغوية وعنوانه «أشتات مجتمعات في اللّغة والأدب»، ولَعلّ الأستاذ راعى في تنويع الهدية أن تكون شاملة للموضوعين اللذين يستأثران باهتمامي ويغلب عليّ أن أنزع إليهما وهما موضوعا الدين والأدب، وذلك منه فضل آخر يدل على مزيد من اللطف والرعاية.

إنني هنا لست بصدد تقديم الأستاذ الكبير فإنه أعرق من أن يعرف، وأعتقد أنه ليس في العالم العربي اليوم مثقف لا يقدر ما قدَّمه العقاد للّغة العربيّة والأدب العربي والفكر العربي بعامة من خدمات جلى تتصل بالإحياء والتجديد والتأصيل، فضلاً عن دراساته الإسلامية الرائعة التي قوَّمت من زيغ الاعتقاد عند الجيل الطالع، وهدت من خلال الاستخفاف

بالمدنية الإسلامية الذي سرى إلى كثير من الدارسين الشرقيين بالعدوى من أساتذتهم الغربيين المنطوين على حقد كمين، وتعصُّب غير قليل ضد الإسلام ودعوته السامية.

والذي يوحي بالإكبار لجهود هذا الرائد وشخصيته الفذَّة أنه منذ كان وهو على هذا السنن اللاحب والصراط المستقيم، لم تحفظ عليه فلتة في التقليد الأعمى ولا في التفكير المنحرف، حتى مذهبه السياسي كان دائماً مع الوطنيّة الصادقة وقادتها الأبرار من طبقة مصطفى كامل وسعد زغلول، فلما صارت الوطنيّة مهنة واحتراماً نأى بجانبه ولم يرضَ أن يكون مطيّة لمتزعِّم ولا لمتسلِّط.

وفي دائرة العمل لرفع شأن الدين الإسلامي والدفاع عن اللّغة العربيّة التي تستهدف اليوم لحملات كثير من الجهال والعقَقَة من أبنائها، أصدر الأستاذ العقاد كتابيه اللذين نحن بصددهما فلننظر فيهما نظرة عجلى إذ كان من غير الجائز أن نستوعب الكلام عليهما في مقالٍ واحد يرمي إلى التعريف أكثر مما يرمي إلى التحليل.

فكتاب التفكير فريضة إسلامية يكفي عنوانه لمعرفة الاتجاه الذي وجهه فيه المؤلِّف أنه اتجاه فلسفي يُحدِّد نظرة الإسلام إلى الحياة والكون وما تشاجر حولهما من آراء ومذاهب منذ أن وُجِدَتْ الفلسفة وحاول الإنسان تفسير غوامض هذا الوجود، وحين يكون الميدان للتفكير والنظر الفلسفي

للتفكير والنظر الفلسفي والحجاج فناهيك بأصالة العقاد وبعد غوره ووضوحه. وكذلك تناول مؤلفنا الموضوعات الآتية: فريضة التفكير في كتاب الاسلام، الموانع والاعذار، المنطق، الفلسفة، العلم، الفن الجميل، المعجزة، أمام الاديان، الاجتهاد في الدين، التصوف، المذاهب الاجتماعية، العرف والعادات، فضلا عن الخاتمة.
فأشاد في الفصل الاول بمقام العقل في الاسلام على اختلاف وظائفه وخصائصه من عقل وازع وعقل مدرك وعقل حكيم وعقل رشيد، واستخرج دلالات ذلك كله من القرآن، ثم عرج في الفصل الثاني على ما سماه بالموانع والاعذار وقد بناه على انه اذا كان تحكيم العقل امرا الهيا فيمتنع تعطيله مرضاة لمخلوق او خوفا منه. وقال في هذا الصدد: «والاسلام لا يقبل من المسلم ان يلغي عقله ليجري على سنة آبائه واجداده، ولا يقبل منه ان يلغي عقله خنوعا لمن يسخره باسم الدين في غير ما يرضى العقل والدين، ولا يقبل منه ان يلغي عقله رهبة من بطش الاقوياء وطغيان الاشداء. ولا يكلفه في امر من هذه الامور شططا لا يقدر عليه، اذ القرآن الكريم يكرر في غير موضع ان الله لا يكلف نفسا ما لا طاقة لها به، ولا يطلب من خلقه ما لا يستطيعون وفرق في فصل المنطق بين المنطق كعلم يتوصل به الى تحقيق الحق وتمييز الخطأ من الصواب والمنطق كاداة للجدل والمراء والغلبة والافحام بأي صفة، فبين ان موقف التحفظ الذي وقفه بعض العلماء المسلمين من المنطق انما كان موجها اليه بالمعنى الاخير وافاض في ذلك بما لا كفاء له في قوة الحجة والبرهان. كذلك فعل في فصل

الفلسفة بعد ان حدد معناها قديما وحديثا وألم بمذاهب اقطابها من يونان وغيرهم، فذكر ان الامة الاسلامية «كانت ارحب صدرا واسمح فكرا مع الفلسفة اليونانية من بلاد العالم اليوناني الذى نشأت فيه، كما يوخذ من مصائر الفلاسفة بين ابناء العالم اليوناني ومصائر الفلاسفة المسلمين وغير المسلمين فى بلاد الاسلام» ولا يتسع المجال للاشارة الى ما فى هذا الفصل من آراء صائبة واحكام سديدة وانما يحسن التملى بقراءته .

وفصل العلم فى الكتاب ليس سردا للاقوال المعروفة فى تمجيد الاسلام للعلم واعلائه من شأنه، ولكنه ما ينتظر من عبقرية العقاد من بيان حقيقة العلم والمراد به عند الاطلاق من طرف جهابذة العلماء الكونيين، وتطبيق تعاليم الاسلام على ذلك واظهار مساوقته لآخر مفاهيم العلم فى نصوصه وقوانيه .

ويستهل الاستاذ العقاد فصل الفن الجميل بهذه المقدمة الجميلة «كثرة الانصاب والتماثيل فى المعابد والبيع ليست بالمقياس الصحيح لنصيب الفنون الجميلة من الدين الذى يدان به فى المعبد او البيعة. لان المعابد الوثنية كانت تتسع للانصاب والتماثيل وليست النموذج الصالح للاديان فى الهداية الى معانى الجمال والحض على الفنون الجميلة، وهى فى جملتها لا تخلو من العبادات البشعة والشعائر القبيحة والعقائد التى لا تجتمع والجمال فى شعور واحد».. فيقرطس الهدف من اول وهلة ويوحى للاغرار الذين لا يقدرون ما جاء به الاسلام من فكرة توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية، وقطع السبيل

على اتباعه فى التعلق أو التطلع الى ما سوى الله الواحد الاحد ؛ بأنهم لا يعدون ان يكونوا ممن غرر بهم الشيطان فقالوا «اجعل لنا إلها كما لهم آلهة» لجهلهم عظمة الاسلام وعظمة العمل الذى قام به النبى (ص) فى تحطيم الاوثان والاصنام .

ثم يسترسل الفصل فى بيان متدفق لمكانة الفنون فى الاسلام كما تسترسل الفصول الباقية من الكتاب فى بلاغة مشرقة واحاطة شاملة لكل ما يتعلق بمادتها الاساسية من حيث ارتباطها بالاسلام وتعرض دعوته لها، مما يمنعنا من تتبعه مخافة التطويل مع عدم اغناء ذلك عن قراءة الكتاب لمعرفة قيمته والاستفادة منه اتم استفادة .

وننصرف للنظر فى الكتاب الثانى فنجد ان عنوانه «اشتات مجتمعات فى اللغة والادب» هو بعكس سابقه اقل تعبيرا عن محتواه؛ ذلك المحتوى الذى يكبر بكثير عما يدل عليه هذا العنوان المتواضع. ولست اقصد الكم بل الكيف، والكيف هنا يعنى المسائل المبحوثة وطريقة بحثها، فانها وان كانت عبارة عن مقالات متفرقة كتبت بمناسبات مختلفة، الا انها مما ينتظم فى سلك واحد، وتضمه جامعة البحث اللغوى الذى يعنى بابراز مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية الصالحة لاداء رسالة العلم والثقافة فى هذا القرن العشرين وتصحيح الاخطاء التى يقع فيها الزارون عليها والمستخفون بها جهلا او تجاهلا. وهكذا ينسجم موضوع الكتاب خلافا لما يعطيه اسمه من انه اشتات، وباعتبار انه هو موضوع الساعة فى المباحث

اللغوية التى تتداولها الاقلام اليوم للغة العربية أو عليها، وما اتى به المؤلف من مقارنات وادلى به من انظار تعد فتحا جديدا فى تقييم هذه اللغة ورد اعتبارها اليها، فاننا نرى انه لو جعل كتابه هذا احدى عبقرياته واطلق عليه عبقرية اللغة العربية – لما كان مسرفا فى ذلك ولما أنكره عليه احد .

ويرجع الاستاذ العقاد خطأ اتهام العربية فى كفايتها الى قصور التراجمة الاولين الذين بدأوا بالنقل عن اللغات الاجنبية فى فجر النهضة الحديثة، ويضرب الامثلة على ذلك. ثم الى التطفل على الكتابة الادبية من غير اهلها، فاذا اراد ناقد من هذا القبيل ان يعلل خلو الشعر العربى من الملاحم المطولة مثلا لم يحجم عن ان يجعل سبب ذلك عدم طواعية أوزان العروض العربى او التزام العرب للقافية الواحدة فى اشعارها ان لم يقل بقصور الخيال العربى بل السامى اطلاقا عن صياغة هذا النوع من الشعر .

ويتتابع الكتاب والتراجمة تقليدا فى هذه الاخطاء وتحمل العربية وزرا ليس لها فيه يد .

ثم تأتى مسؤولية المستشرقين فى اشاعة هذا الاتهام، والمستشرقون قوم غرباء عن اللغة العربية، درسوها فى المعاجم والقواميس فحفظوا شيئا من متنها وغابوا عن بلاغتها وبيانها فلم يفهموا مجازها ولا استعارتها ولم ينشأ عندهم ذوق أدبى يمكنهم من الاطلاع على اسرارها وخصائصها فحكموا عليها حكما جائراً تبعهم فيه كثير من ابناء العرب المقصرين. والقليل منهم من تنبه الى خطأهم ،

كما أن القليل النادر من المستشرقين من عرف قيمة العربية ونوه بها. وكانت احكام اولئك المستشرقين على اللغة العربية والادب العربى والثقافة العربية بعامة، وهى كما رأينا مستندة الى قصور بالغ فى اكتناه هذه الاشياء، اكثر أثرا فى الصاق تهمة العجز بلغة الضاد نظرا لكونهم على ما استقر فى اذهان بعض الناس انما يتكلمون عن علم فاقوالهم لا يرقى اليها الشك .

ويتحدث الاستاذ العقاد عن بعض المقارنات التى يقوم بها اناس ممن يتهمون اللغة العربية فى اشياء عرضية تفارق بها غيرها من اللغات فيقول :

« ولا سبيل الى تحقيق كفاية هذه اللغة للنهوض بأمانة العلم والثقافة من طريق هذه المقارنات التى لا تقوم واحدة منها على اساس صالح للمقارنة. انما المقارنة الصحيحة التى تسفر عن تحقيق كفاية هذه اللغة بين سائر اللغات هى المقارنة على اساس ثابت من علم الالسنة الحديثة، وهو العلم الذى يبحث فى تطور اللغة من حيث هى كيان حى نام صالح لاداء وظائفه ومجاراة امثاله فى معترك البقاء . فاذا قيس اللسان العربى بمقاييس علم الالسنة فليس فى اللغات لغة اوفى منه بشروط اللغة فى الفاظها وقواعدها. ويحق لنا ان نعتبر انها اوفى اللغات جميعا بمقياس بسيط واضح لا خلاف عليه وهو مقياس جهاز النطق فى الانسان فان اللغة العربية تستخدم هذا الجهاز الانسانى على اتمه واحسنه ولا تهمل وظيفة واحدة من وظائفه كما يحدث ذلك فى اكثر «الابجديات» اللغوية . . فلا التباس فى حرف من حروفها بين مخرجين ولا فى مخرج من مخارجها بين

حرفين وقد تصححت فيها الحركات الصوتية الثلاث بين الفتح والضم والكسر، فمضت فيها فصاحة النطق على ابطال الامالة بين هذه الحركات واخراجها كلها مستقيمة مميزة ، كما يشاء معنى «الافصاح» وهو فى جوهره ازالة اللبس فى الاصوات والحركات . ولم يحدث لابجدية اخرى غير الابجدية العربية انها جربت زمانا طويلا فى كتابة اللغات من كل اسرة لسانية فلم تقصر فى هذه التجربة عن شأو الابجديات الاخرى، اذ كتبت بها العربية والفارسية والتركية والاردية والاسبانية وهى تنتمى الى الاصول السامية والطورانية والهندوسية والجرمانية. وقد وجد فيها الكاتبون ما ينوب عن الحروف الملتبسة ولم يوجد فى الابجديات المختلفة ما ينوب عن حروف العربية الصريحة فى مخارجها ، بما استوفته من جهاز النطق الانسانى فى كل آلة من آلاته» .

وعلى هذا النمط يسيل دفاع الاستاذ العقاد عن العربية فى اصالة قواعدها ووضوح اعرابها ودلالة مفرداتها وجمالها وتميزها بخصائص فى التعريف والعدد وضمائر الجنس وغير ذلك مما لا يمكن ان يستوفى الكلام عليه فى مقال عابر، وانما نقول فيه انه لم يرد بمثله على المتهمين للغة العربية قط ، سواء من حيث ابطال مزاعمهم فى تخلف هذه اللغة عن مسايرة ركب العلم والحضارة العصرية او من حيث رفع منارها على اللغات كافة فى القديم والحديث وهذا كلام قد يستعظمه من يسمعه ولكن بينه وبين التسليم به ان يقرا هذا الكتاب الصغير الحجم الكبير العلم المسمى باشتات مجتمعات فى اللغة والادب .

ولعل من ابلغ السخرية التى وجهها الاستاذ العقاد للذين يدعون الى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية هذا الفصل المعنون بالحروف العربية اصلح الحروف لكتابة اللغات .

ولقد قرات فى هذه الايام القريبة بحثا لبعض المفكرين فى دلالة الفعل على الزمن فى العربية وضيق هذه الدلالة عنها فى اللغات الاجنبية وخاصة الفرنسية، واتمنى لو قرا هذا الباحث فصل الجملة الاسمية وفصل الظروف فى اللغة العربية من كتاب اشتات مجتمعات ليهتدى على الاقل الى طريقة مقارنة اللغة العربية باللغات الاجنبية .

ولكن مالى وللمتقولين على كفاءة اللغة العربية وقد وهب الله لها كفؤا بمصاولتهم جميعا امد الله فى عمره وابقاه سالما معافى لخير العروبة والاسلام .

ابـن سنـاء الملـك

ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر

للدكتور عبد العزيز الاهوانى

من الكتاب من لا يحب ان يدخل الى دنيا الادب من بابها الواسع؛ من حيث يمر العشرات والمآت بدون ان يشعر بهم احد، وانما يعنّى نفسه ويتحامل عليها، او هو لا يعنّيها ولا يتحامل عليها، ولكن يأبى ان يدخل الا من الباب الضيق الذى يصدف عنه الكثيرون، فاذا به ممن يلحظه الناس لاول دخلة، وكلما تكرر منه الدخول لقى الترحيب والتأهيل. وصديقنا الاستاذ الدكتور عبد العزيز الاهوانى من هذا القبيل من الكتاب. لقد تشبع بالثقافة الواسعة والنظر الاصيل ، وصار لا يرضيه الا العمل المتكامل والموضوع الطريف الذى لم تبتذله الايدى ، ولم ينزل سومه فى السوق لكثرة ما عرض وتقلبت فيه الانظار ، وهو لذلك لا ينتج الا قليلا، وان كان قليله لا يقال له قليل .

لقد سبق ان كتبنا على تأليفه القيم: (الزجل فى الاندلس) وبينا ما فيه من انظار صائبة ومن جديد فى الموضوع، وبين أيدينا الآن

كتابه عن ابن سناء الملك، ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر) وهو اسوة الكتاب السابق فى خاصيته .. وله علاقة متينة بموضوعه .

ولا نمترى فى ان صديقنا اصبح من اكبر المختصين فى الادب الاندلسى وتاريخه، بما سبق له من انقطاع الى دراسة هذا الادب فى مركزه ومحيطه، وما نقل من مكتبات الاندلس وخزائنها حتى لم يفته منها مصدر او مرجع. والعلاقة بين كتابيه المذكورين هى العلاقة بين الزجل والتوشيح التى كان له فضل السبق الى بيانها والحديث عنها فى كتابه الاول، وقد انعم الزجل فيه درسا وبحثا بحكم قصره عليه، كما وفى التوشيح حقه من ذلك فى كتاب ابن سناء الملك باعتبار ان هذا الشاعر كان رافع رايته فى المشرق وألف فيه كتابه المعروف ، دار الطـراز .

على ان موضوع الكتاب فى الحقيقة هو معطوف الواو فى اسمه، اعنى مشكلة العقم والابتكار فى الشعر. و ما ابن سناء الملك وشعره وموشحاته التى درسها دراسة مقارنة الا امثلة طبق عليها ما أتـى به من آراء وما انتهى اليه من احكام فى هذه القضية الهامة التى لا تخص ابن سناء الملك بل تعم سائر شعراء عصره فما دونه من العصور.

والمؤلف يرى ان ابن سناء الملك انحرف بالشعر عن مفهومه الاصيل، من التعبير عن عاطفة الشاعر نحو الناس والاشياء وتصوير احساسه بما يدرك ويتخيل، الى هذا المجهود العقلى الذى كان يبذله فى توليد المعانى من الالفاظ والاستدراك على الشعراء الذين سبقـوه فى اشياء تافهة لا صلة لها فى الغالب بوجدان الشاعر ولا

بانفعاله ، وانما هى حركات ذهنية ونشاط فكرى انتهى به الى العقم حيث كان يظن انه يبتكر ويخترع. فكان ما حرص عليه اشد الحرص من الابتكار والاختراع «انحرافا فى فهم الشعر وخطأ فى ادرك مهمة الشاعر بل ويكاد شعراء عصره جميعا ـ وقد عاش تحت ظلال الدولة الايوبية فى القرن السادس ـ يتورطون جميعا فى هذا الخطأ والانحراف، وان يكونوا اقل منه درجة فى ذلك ، بحيث يمكن ان يوصف العصر كله بالعقم والانحراف» .

ومما يؤكد ان هذا هو موضوع الكتاب وان ابن سناء الملك، قد أخذ كنموذج للتطبيق، ان المؤلف لم يعن نفسه بدراسة عصر الشاعر وبيئته الخاصة كما يفعل الكتاب الذين يترجمون لهذا الشاعر او ذاك، ويحاولون ان يقدموا منه ومن شعره صورة لعصره ولاعلام الفكر فيه .

ان المؤلف يعتقد ان ابن سناء الملك وشعراء عصره لا يمثلون مجتمعهم فى شىء، وانهم كانوا يعيشون فى الماضى وفى دواوين من سبقهم من الشعراء اكثر مما يعيشون فى زمنهم وبين جماهير شعبهم، ولذلك فان دراسة الاحوال الاجتماعية والسياسية لعصرهم لن تفيد شيئا فى فهم شعرهم. وقد انصرف عنها فعلا الى مبحث آخر ، وهو المشكلة اللغوية واثرها فى توجيه الشعر الى هذه الوجهة المنحرفة، ويعنى بالمشكلة اللغوية ما يعبر عنه بالازدواج اللغوى ، فالشاعر امام طغيان العامية والعجمة كان يبذل اقصى جهده لابراز كفاءته اللغوية وقوة تصرفه فى فنون البلاغة والبديع ، فيقع وهو

يريد ان يرتفع، ويشتغل بالسفاسف التى تلهيه عن المقاصد المهمة، وذلك ما جنى على ابن سناء الملك وعلى الشعر العربى بعامة فى هذه العصور المتاخرة .

ولقد أحاط المؤلف بالموضوع من جميع جوانبه ودرسه دراسة كاملة، وان كنا نعتبر انه قسا قسوة بالغة على ابن سناء الملك، فلم يسلم له بالشاعرية الا فى قصيدة واحدة ومع تحفظ كبير. كما انكر عليه أشياء لا حق له فى انكارها «فيعزل» التى تورك على عاميتها فى بيته :

صلينى وهذا الحسن باق فربما
يعزل بيت الوجه منه ويكنس

واردة فى شعر الاحوص وهو قوله:

يا بيت عاتكة الذى اتعزل

وأخذه عليه تعدية فعل اعيى بعلى فى قوله:

ليس الا السكوت والصبر كرها فى امور اعيت على العقلاء

قائلا ان حقها ان تكون « عيت على العقلاء» ليس بمسلم لان فعل اعيا فى هذا المعنى كما يتعدى بنفسه يتعدى بعلى .

قال عمرو بن كلثوم :

فان قناتنا يا عمرو اعيت على الاعداء قلبك ان تلينا

والجزئيات من هذا القبيل لا تمس جوهر الموضوع وان كانت تنال من الشاعر منالا.

وعلى كل حال فنحن نرحب بهذه الدراسات العلمية العميقة

اولا لانها تزيح الستار عن قضايا كثيرا ما تتناول من الاطـراف ولا يتبطنها الباحثون كقضية العقم فى الشعر العربى فى العصور المتأخرة، وثانيا لانها بعمومها تبرهن على ان الادب العربى وحدة، ما يصيبه من نهضة او انتكاس يكون عاما فى مشرق او مغرب، فاذا درس شئ من ذلك فى اثر علم من اعلامه كان كالدراسة فى آثار جميع الاعـلام، ومن ثم خف عندنا ما عامل به المؤلف ابن سناء الملك من قسوة لانه لايعتبر شاعرا مصريا بقدر ما يعتبر شاعرا عربيا. واكبرنا فى الدكتور الاهوانى روحه العربية الكبيرة التى جعلته لايحابى ولايتعصب بل انه افرط فى التجرد والتنزه عن تحكيم العاطفة الاقليمية التى يجعلها بعضهم هى اساس العمل والحكم .

وبالجملة فان البحث من اعظم الاعمال الادبيـة التى صدرت فى العالم العربى فى الحقبة الاخيرة . وهو مما يتحقق فيه معنـى الابتكار والاختراع الذى فات شعراءنا المعنيين بـه، وما يضيرهم انهم اخطأوا الطريق اذا كان خطأهم هو الذى هدى من جاء بعدهـم الى المحجة البيضاء .

قيم جديدة للادب العربي

للدكتورة بنت الشاطىء

عرفت السيدة الدكتورة بنت الشاطىء بالشخص فى صيف سنة 1957 وذلك بمكتب الاستاذ الكبير عادل الغضبان فى دار المعارف. وكان سيادته قبل حضورها بقليل قدم لى نسخة من رسالة الغفران بتحقيق الدكتورة فى طبعتها الثانية التى صدرت عن الدار فى ذلك الاسبوع. وقد راج فى ذهنى بعد التعارف الذى تم بواسطة الصديق عادل ان اطلب منها توقيع النسخة بحكم انها المؤلفة ولكنى احجمت عن ذلك لان هذا كان اول لقاء معها، وهو وان كان لقاء مشجعا بما رأيته من حسن محضرها ولطف حديثها الا انى لم يغب عن بالى انها سيدة فى عصمة رجل من رجال العلم والادب يحظى باحترام كبير .

وانا رجل مهما تعلقت بهذا الادب ووغلت على اربابه، لا انسى ان ادبى الاول كان هو السنة النبوية وان دراستى الرسمية كانت دراسة دينية وعلى النهج المأثور، فلا اكتم ان مانعى الحقيقى من ان اطلب توقيع الدكتورة. هو استحضارى لواقعة حال شبيهة بحالى،

وهى تتضمن سلوكا مـا كان لمثلى الا ان يتقيد بـه، واعنى حديث النبى (ص) عن عمر فيما رواه البخارى: اطلعت فى الجنة فاذا امرأة تتوضأ الى جانب قصر، فقلت لمن هذا القصر؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب فذكرت غيرته، فوليت مدبرا فبكى عمر وقال: اعليك اغار يا رسول الله؟ ولا يفوتنى ان اقول اننى اذا لم أتجاوز الحد فى طلب التوقيع، فقد تحدثت الى الدكتـورة حديث المعجـب بادبها وعلمها وانصت اليها وهى تتحدث عن اشتغالها برسالة الغفران وما بذلته من جهد فى تحقيقها وسألتها هل يعينها الاستاذ زوجها فى اعمالها الادبية فقالت ان الاستاذ هو الآخر مشغول باعماله الكثيرة لا يفرغ الى مثل هذه المعونة. وزادت تقول انها ترزح تحت اعباء ثقيلة من الاشراف على تدبيـر البيت وتربيـة الاولاد، والتدريس، فزاد اعجابـى بهذه البطلة وعند الانصراف تفضلت فوصلتنى الى الفندق الذى انزله فى سيارتها التـى تسوقها بنفسها فودعتهـا وحملتها تحياتـى الى الاستـاذ زوجها .

والمقصود القول ان الانسان لا يترك شيئا بنية حسنة وأدب جميل الا عوضه الله خيرا منه، فقد تكررت زيارتى للقاهرة بعد ذلك وتكرر لقائى للسيدة الدكتـورة وحدها ومـع زوجها العلامة أميـن الخولى، وإذا بكتبها تتواتر الى، مع عبارة الاهداء والتوقيع المرغوب، ومنها كتاب قيم جديدة للادب العربى الذى يساق الكلام اليه.

وقد خصصت هذا الكتاب من بين كتبها بالحديث لانه دراسـة طابعها التجديد، ومحاولة ناجحة لوضع قيم حقيقية للادب العربـى

لا جديدة فقط، لان الجديد قد يبلى والحقيقة ثابتة لا تزول. فقد تنبهت الدكتورة الى ان هذه الصورة الرسمية التى يقدم بها الادب العربى منذ عصر الجاهلية الى العصر العباسى ليست هى الصورة الحقيقية لهذا الادب، وان خطا رفيعا يفصل بين مهمة الادب الاولى وهى الادب للحياة وبين ما حاولت تلك الصورة الرسمية بتواطىء النقاد القدماء ان تجعل منه مهمة الادب الوحيدة، هى الادب للبلاط ان صح هذا التعبير، فاخضعت جميع نصوص الادب العربى او على الاصح جميع تراثنا الشعرى لهذا الاعتبار وحكمت عليه وعلى عامة شعرائنا بمقاييس مستوحاة من جو السياسية والحكم ومحيط ذوى النفوذ والسلطان ، فكل من ركع بين يدى ملك او خليفة رفعته الرسميات الى الطبقة الاولى من فحول الشعراء وصار هو الشاعر الطليعى لجيله وآثاره هى النماذج المختارة لعصره. فالنابغة فى الجاهلية، وجرير فى العصر الاموى ، ومروان بن أبى حفصة فى العصر العباسى، واضرابهم هم الشعراء المقدمون على سواهم من شعراء عصورهم .

وقول الاول يخاطب النعمان :

فانك كالليل الذى هو مدركى
وان خلت ان المنتأى عنك واسع

وقول الثانى يمدح المروانية :

ألستم خير من ركب المطايا
وانـدى العالمين بطون راح ؟

وقول الثالث يحتج للعباسيين على العلويين :

أنى يكون – وليس ذاك بكائن

لبنى البنات وراثة الاعمام ؟

وامثال هذه الاقوال ، هي النماذج الرسمية في الدراسات الادبية الى عصرنا هذا .

فهل هذه هي حصيلتنا من الادب العربى طوال قرون؟ وهل حقا ان اولئك الشعراء المتملقين هم النخبة التى تمثل الشعر العربى فى عنفوان مجده ؟ ألم يقل العلماء ان الشاعر كان للقبيلة بمثابة القائد والزعيم يدافع عن احسابها ويخلد مآثرها؟ وان تكسب النابغة والاعشى بالشعر غض من قدرهما ونال من شرفهما ؟ ومعنى ذلك ان للشعر رسالة فى الحياة، وانه فن قبل ان يكون حرفة، فهل يصدق ذلك على الشعر العربى فى ادواره المختلفة؟ وهل قام شعراؤنا الاقدمون بما يطلب منهم فى هذا الصدد ؟

ذلك هو ما تجيب عنه الدكتورة فى كتابها قيم جديدة للادب العربى وتثبته بالادلة والشواهد، فتبين كيف انحرف فهم النقاد القدماء لتراثنا الادبى ، وكيف ضلت المقاييس التى وضعوها لوزنه وتقديره، وتجعل من المعارك التى خاضها الشعر فى الجاهلية والاسلام لمقاومة التسلط والطغيان واقامة موازين الحق والعدل ، قواعد ومقاييس لنقده وتقييمه، فتعيد للادب العربى، اعتباره وترفع بين الاداب الانسانية مناره . واستمع الى قولها فى ذلك: « ومستقبلنا بلا شك معركة فكرية، بعد ان انقضى عهد الاستعمار العسكرى، ولا مفر لنا من خوض هذه المعركة لان وجودنا الكريم لا يحميه الا صون مقوماته المعنوية. وهنا ياخذ الادب دوره فى نضالنا الجديد، حارساً

لمعنوياتنا. وكما لاذ اسلافنا باستنقاذ تراث العربية الادبى والفكرى فى صراعهم مع الشعوبية وكما حموا به العربية دينا ودولة فى مهب الاعصار التترى نلوذ به اليوم لحماية وجودنا فى مهب تيارات الغزو الفكرى. ولن ينهض الادب بهذا الدور الجليل فى المعركة، ما لم نتحرر من الرواسب التى شوهت تراثنا الادبى، وما لم ننج فى ذوقنا له من سيطرة الاذواق التى ورثناها من مخلفات عهود الضعف والانحطاط. بل لن تقوم للادب العربى فينا قائمة، ما لم نلغ الاسوار التى عزلت ابناءها، واجيالا قبلهم، من اجمل ما لنا من تراث فنى، ولم نمح الظلال التى حجبت عنهم بهاءه، حين فرضت عليهم نماذج بعينها من الشعر راجت فى ظل الطغيان واشخاص بذواتهم من الشعراء والكتاب يدينون بشهرتهم وذيوع صيتهم لتعلقهم بركاب الحكام ايام كانوا فى عزلة عن الشعوب... »

انني اهنىء السيدة الدكتورة بتوفيقها فى هذه الدراسة القيمة واتمنى لو تتسع فيها وتستمر حتى تشمل العالم العربى بجناحيه وتصل الى ما بعد العصر العباسى من عصور حكم عليها ظلما بالعقم والضحالة ، اذ كان النظر اليها انما يقع من هذه الزاوية التى ازدادت ضيقا بحكم تسلط الاعاجم على بلاد العرب واستغنائهم عن الشعر والشعراء، فاستغنى النقاد القدماء منهم والمحدثون عن النظر فى تراثنا الفكرى الجديد لما صار لا يمت الى حياة البلاط بصلة، وطويت صحف كثيرة كان يمكن ان يكون لها صدى ودوى فى حياتنا الادبية لو وجدت العزائم النافذة والاقلام السيالة التى تنخلها وتبرز للناس ما فيها من ذخائر وكنوز .

هل اسم خلدون
ونحوه مكبر على الطريقة الاسبانية؟

ليست هذه الكلمة بحثا فى اصل من اصول اللغة او مفردة من مفرداتها مما يكون بحاجة الى البحث للوصول الى الحقيقة وتجلية الغموض فى المعنى المبحوث عنه. وانما هى عرض وجهة نظر فى مسألة كانت فرضا وتقديرا من احد الاجانب بشأن صيغة من صيغ الاسماء العربية التى شاعت فى وقت ما بهذه العدوة الاندلسية، فاذا بها تكاد تصير حكما مسلما عند كثير من الكرام الكاتبين.

ان العلامة رينهرت دوزى الهولاندى مستشرق كبير كان اول من اقتحم ميدان البحث عن تاريخ اسبانيا الاسلامية وفتح بابه فى وجه عامة المستشرقين والمؤرخين المحدثين. ولقد كان الاسبان انفسهم يمرون بتلك الفترة من تاريخ بلادهم مرورا عاجلا ويغضون الطرف عما نشأ خلالها من حضارة زاهرة وتقدم علمى باهر، حتى ان بعض المؤلفات التاريخية كانت توجز تاريخ العرب والمسلمين فى تلك البلاد وهو يبلغ ثمانية قرون فتضمنه فى صفحات قلائل ، على حين تتوسع فى غيره مما لا اهمية له بمائات الصفحات. فلما اثار دوزى انتباه

المؤرخين الى فائدة دراسة التاريخ الاسلامى لاسبانيا فى معرفة تطور العلم والحضارة فى العصر الوسيط وطريق انتقالهما الى اروبا، عـاد الاسبان الى هـذا التـاريخ فافسحـوا لـه المجـال فى كتبهم واهتموا بالدراسات الاسلامية والعربية المتعلقة ببلادهم وكان من بعض نتائج ذلك الاهتمام، الاعمال المجيدة التى قام بها امثال اسين بلاسيوس وغونساليس بالينسيا وغيرهما مـن المستشرقين الاسبـان .

على ان دوزى وان كان له الفضل فى اماطة اللثام عن هذا الجانب من تاريخنا القومى وتعريف الاجانب بما كانوا يجهلونه من ذلك، قد وقع فى اغلاط شنيعة، منها انكارة اسوة بكثير من المؤرخين الغربيين، ان يكـون العرب أضافوا الى التراث الفكرى الانسانى شيأ جديدا وانما حسبهم انهم حافظوا على هذا التراث ونقلـوه بامانة الى الامم التى جاءت بعدهم ، ومنها تحامله على المرابطيـن الذين حلوا فى الاندلس محل ملوك الطوائف وادعاؤه ان قيـام دولتهم كان قضاء على العلم والحضارة مما لا مجال للرد عليه هنا.

ولكن جزئية صغيرة من هذه الاقوال التى ارسلها المستشرق دوزى إرسالا تتعلق بصياغة بعض الاسماء العربية ، يهمنا ان نتناولها بالتحليل والنظر لنسبر غورها ونعرف مدى انطباقها على الواقع ، لا سيما وهى قد اشتهرت وانتشرت بين ابناء العـرب انفسهم من غير ان يبدى احد منهم تحفظا ولا توقفا فيها.

اننا لا ننكر اقتباس العربية من غيرها من اللغات ، فاللغـة كائن حى ينمو ويترعرع بالتغذية والتلقيح ، ولكننا لا نقر هـذا

الاقتباس اذا لم يكن ضربة لازب، ولا نقبله اذا كان دعوى مـن غير دليل كالمسألة التى نحن بصددها.

فصاحبنا دوزى يرى ان الواو والنون فى مثـل حفصون وزيدون وعبدون وبدرون وخلدون من اسماء الاسر العربية الاندلسية اصطلاح مقتبس من صيغة التكبير فى اللغة الاسبانية، اصطنعـه ابناء هذه الاسر ليدلوا به على الجد الاكبر الذى ينتسبون اليه ، فهم حين يقولون ابن حفصون ابن زويدون مثلا يعنون ابن حفص الاكبر وابن زيدون الاكبر وهكذا بقية الاسماء من هذا النمط(I).

وصيغة التكبير هذه التى يشير اليها هى احدى الصيغ التى تفيد هذا المعنى فى اللغة الاسبانية ، وتتركب من المقطـع on للمذكر و ona للمؤنث والكلمة المراد تكبيرها، مثل hombron (امبرون) فى hombre (امبـــرى) للرجل الضخم و mujerona (موخيرونا) فى mujer (موخير) للمرأة الضخمة و zagalon (زگلون) فى zagal (زگل) و zagalona فى zagala (زگلا) للشاب والشابة عند قصد المبالغة ـ على انه ليست كل كلمة ختمت بهذا المقطع تدل على التكبير. خذ مثلا Corazon (كرسون) اى قلب و Persona (برسونا) اى شخص فانهما خاليان من معنى التكبير والمبالغة وان اشتملا على المقطع المذكور .

(I) انظر كتابه تاريخ مسلمى اسبانيا ج 2 ص I2 طبعة ليفى بروفنسال. وانظر تعاليقه على تاريخ ابن عذارى ص 48 فى طبعته لهذا الكتاب. وانظر ما كتبه فؤاد البستانى بيانا لرأى دوزى فى الحلقة I3 من الروائع، ترجمة ابن خلدون .

وننظر فى تطبيق هذه القاعدة على الاسماء العربية المدعى فيها ما ذكر من التكبير عى الطريقة الاسبانية، فنلاحظ لاول وهلة انها اسماء اعلام لا اجناس،والقاعدة المذكورةعند الاسبان كما رأينا إنما تاتى فى اسم الجنس لا فى اسم العلم، فقلما يقال مثلا Fernandon (فرناندون) فى Fernando او mariona (ماريونا) فى maria بل لا يقال ذلك أصلا؛ فى حين ان تلك الاسماء العربية كلها اعلام شخصية وليس واحد منها من قبيل اسم الجنس ولم يسمع بكلمة غير علم من هذا النمط عند عرب الاندلس ولا عند غيرهم .

ثم ان هذه القاعدة لها صيغتان احداهما خاصة بالاسم المذكر والثانية بالاسم المؤنث كما مر. ولم نرهم اخذوا بالصيغة الثانية اطلاقا على تسليم اخذهم بالصيغة الاولى فى اسماء المذكر، بل على العكس نراهم سموا نزهون بدون تاء، وهو اسم لشاعرة اندلسية معروفة، وسموا ريسون كذلك وهو اسم لسيدة تنتسب اليها الاسرة الريسونية الشهيرة فى المغرب. وقد سموا حمدونة بالتاء ولكن فى المشرق قال فى القاموس: وحمدونة كزيتونة بنت الرشيد. فلو كان هذا الاسم جاريا على القاعدة الاسبانية للحقته التاء فى الاندلس لا فى بغداد.

وشىء آخر هو ان القول بان ابناء هذه الاسر هم الذين اطلقوا تلك الاسماء على اجدادهم ليتميزوا بها، زعم يعوزه الدليل، فان ابن خلدون لما عرف بنفسه فى آخر تاريخه سمّى نفسه هكذا: «عبد الرحمن ابن محمد بن محمد بن محمد بن الحسين بن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون» ثم قال: «لا أذكر من نسبى الى خلدون غير هؤلاء العشرة ، ويغلب الظن على

انهم اكثر ، وانه سقط مثلهم عددا ، لان خلدون هذا هو الداخل الى الاندلس فان كان اول الفتح فالمدة لهذا العهد سبعمائة سنة ، فيكونون زهاء العشرين ثلاثة لكل مائة كما تقدم فى اول الكتاب(1)» فهو يجعل جده الاعلى الذى ينتسب اليه، وهو الداخل الى الاندلس، معروفا بهذا الاسم عند دخوله، ولم يقل انه اطلق عليه فيما بعد، ولا يفهم منه ذلك بحال.

وفى الجمهرة لابن حزم ان بنى خلدون ينتسبون الى وائل بن حجر. قال: «ومن اكابرهم ابو هانىء كريب وابو عثمان خالد؟ القائمان باشبيلية، اللذان قتلهما ابراهيم بن حجاج اللخمى غيلة، وهما ابنا عثمان بن بكر بكن خالد بن ابى بكر بن خالد المعروف بخلدون ، الداخل من المشرق(2)» فهو كذلك يقول فى جدهم الاعلى : (المعروف بخلدون الداخل من المشرق)« ولا يزيد على ذلك شيأ تشتم منه رائحة الدعوى المذكورة. وهذا كلام قيل قبل ابن خلدون المؤرخ بما ينيف على ثلاثة قرون .

وما قيل فى ابن خلدون يقال فى ابن زيدون وابن عبدون ونظائرهما، فان احدا لا يستطيع ان يثبت ان هؤلاء الابناء اطلقوا تلك الاسماء على اجدادهم ولا ان هذا الاطلاق كان أخيرا لتمييز الجد الاكبر الذى تنتسب اليه الاسرة .

اضف الى ذلك اننا نجد نماذج اخرى من هذا الاسم ليست علما للجد الاعلى ، او الاكبر بتعبير دوزى، حتى يتحقق فيها معنى

---

1) العبر ج 7 ص 795 طبع بيروت.

2) الجمهرة ص 430.

التكبير المزعوم، مثل اسم ابن حفصون اعظم ثوار الاندلس فى العهد الاموى الاول، فانه كان اسم ابيه المباشر، اذ هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر الذى كان اول من اسلم من اسرته، فهو جده الاعلى اذن، ولو اطردت القاعدة لقيل فيه ابن جعفرون ، لكنهم لم يقولوها وكأنهم اقتصروا على التسمية بصيغة جمع الثلاثى لخفتها . وهذا ايضا مما يخالف به الاستعمال العربى لهذه الصيغة قاعدة التكبير الاسبانية .

وهناك ايضا سوار بن حمدون القيسى قريع ابن حفصون فى الثورة والتمرد ابوه المباشر. لا جده هو حمدون وان كان يعرف به.

فهذا مما ينفى ان الصيغة المذكورة وضعت اصلا للدلالة على الجد الاكبر. كما ان التسمية بها لشخص ما لا باعتباره ابا ولا جدا كما فى حمدون وقد سمى به كثيرون وكما فى نزهون وهو اسم امرأة، هى مما يدفع ذلك .

والى هذا فان هذه الصيغة ان كانت قد استعملت بكثرة فى المغرب والاندلس، فانها قد استعملت بالمثل فى بلاد المشرق، وانا لنعد من الاسماء المشرقية التى جاءت، على وزانها، ومنها ما اتخذ قبل فتح الاندلس واتصال العرب فيها بالاسبان، قدر ما نعد من الاسماء المغربية والاندلسية . والعجب كيف لم يلفت ذلك نظر المستشرق الهولاندى فيتريث فى حكمه على هذه الصيغة بما حكم به من الاقتباس عن الاسبانية، بل العجب كل العجب كيف جاز ذلك الحكم على بعض الكتاب العرب وقبلوه حتى اصبح عندهم من الحقائق الثابتة التى لا جدال فيها ؟ !

وها نحن اولا، نذكر طائفة من اشهر هذه الاسماء التى عرفت فى المشرق ثم نعارضها بطائفة اخرى مما اشتهر فى المغرب والاندلس لنرى ان لا اختصاص بها لعرب المغرب والاندلس دون اخوانهم عرب المشرق :

بينون بن ميناف بن شرحبيل بن ينكف بن عبد شمس ، وبه سمى موضع فى اليمن(I)، ميسون بنت الحارث الغسانى ذكرها الحارث بن حلزة فى معلقته، مودون اسم فرس لشيبان بن شهاب ورد ذكره فى شعر لذى الرمة (2) وميسون بنت بحدل زوج معاوية وام ولده يزيد التى قالت فيه ابياتها المشهورة (3) ، حمدون

I) معجم ما استعجم 289 ورجح فى معجم البلدان ان وزنه فيعول من ابن بالمكان وبن اذا أقام به ومما تجدر الاشارة اليه انه نقل عن ابن جنى قوله: «وفى المعروف من اسماء الناس وان لم يكن فى كلام العرب القدماء سحنون وعبدون ودير فيتون» غير ان فيتون يحتمل ان يكون فيعولا فلا يكون من هذا الباب كما قلنا فى بينون وهو الاظهر» فاما انه لم يكن فى كلام العرب القدماء فقد علمت ما فيه وهو منقوض بمثل مسيون واما انه وارد فى كلام الناس على عهد ابن جنى فانه ايضا حجة لما نقوله من ان هذا الاسم ليس خاصا بعرب الاندلس. ونظن ان دوزى ربما أخذ رأيه فى المسألة من هذا القول المنقول عن ابن جنى فى معجم ياقوت، بالاستناد الى كلمة لابن الخطيب وردت فى ترجمته لابن حفصون فى الاحاطة وهى قوله: «ثم أنسل - بها - يعنى قرية طرجيلة عمرُ حفصا وفخّم ، اى كُبِّر فقيل حفصون» . وفاعل أنسل هو جده جعفر المذكور عنده قبل .

2) المصدر نفسه 518.

3) خزانة الادب ج 3 ص 593.

القصار، صوفى من اهل نيسابور(4)، حمدون بن اسماعيل ، من ندماء المتوكل(5) ، ابن حمدون الكاتب صاحب التذكرة(6)، وحمدون كثير فى اسمائهم فلا نطيل به ، حمدونة بنت الرشيد وقد سبق ذكرها . ابن سمعون، واعظ بغدادى من اهل القرن الرابع ضرب الحريرى به المثل فى الوعظ فى مقاماته(7)، ابن سمعون أخر فلكى من اهل القرن الثامن(8)، ابن ابى عصرون فقيه شافعى من الموصل(9)، ابن قاضى عجلون فقيه شافعى من دمشق(10)، ابن غلبون شاعر من اهل صور(11) وآخر مقرئ من اهل حلب (12) وكلاهما من اهل القرن الرابع، وهناك غيرهما من المُسمّين بهذا الاسم. ابن حكمون، هو القضاعى صاحب احاديث الشهاب (13).

---

4) الاعلام ج 2 ص 305.

5) المصدر المذكور فى الصفحة نفسها .

6) وفيات الاعيان ج 1 ص 516.

7) المصدر المذكور ج 1 ص 492.

8) الاعلام ج 6 ص 221.

9) الوفيات ج 1 ص 255.

10) الاعلام ج 7 ص 116.

11) الوفيات ج 1 ص 308.

12) الوفيات ج 1 ص 462.

13) الاعلام ج 4 ص 316.

سمنون الموسوس من الصوفية المولهين(1)، زهرون بن حيون في نسب ابى اسحاق الصابى الكاتب الشهير(2)، سعدون المجنون ابو عطاء من الصوفية المولهين(3)، واسرة سعدون بالعراق معروفة منها عدة شخصيات، عيذون، جد ابى على القالى(4) ابن سحنون طبيب من دمشق(5)، ابن حسنون محدث(6) ابن عبسون محدث كذلك(7) ابن خيرون المصرى راوى ابن عبد الحكم(8)، وآخر محدث بغدادى وغيرهما(9) ، وجاء في التاج انهم سموا فضلون وان عيشون علم لجماعة .

فهذه طائفة من الاسماء تناهز العشرين كلها مما استعمل في المشرق ، ونقابلها بنظائرها التى استعملت في المغرب والاندلس فتكاد لا تجاوز هذا العدد وهى هذه: ابن حفصون ، ابن حمدون للثائرين اللذين سبق ذكرهما. ابن زيدون، ابن وهبون، ابن عبدون

---

1) تاريخ بغداد ج 1 ص 234.
2) الوفيات ج 2 ص 202.
3) فوات الوفيات ج 1 ص 168.
4) الوفيات ج 1 ص 74.
5) فوات الوفيات ج 2 ص 20.
6) تاريخ بغداد ج 1 ص 356.
7) المصدر نفسه ج 1 ص 235.
8) تاج العروس ج 3 ص 196.
9) المصدر نفسه.

لشعراء معروفين، نزهون الغرناطية الشاعرة، ابن فُرحون فقيه مالكي من اهل الثامن، ابن فتحون له ذيل على الاستيعاب لابن عبد البَرّ، ابن خلفون من رجال الحديث فى القرن السادس، خزرون بن عبدون من ملوك الطوائف، ابن سلمون فقيه مالكى من اهل السابع، ابن بدرون شارح قصيدة ابن عبدون المعروفة بالبسامة او البشامة، سحنون الفقيه المالكى المشهور مؤلف المدونة، ابن حزمون شاعر اندلسى من اهل السابع، ابن غلبون محدث من صقلية من اهل الثالث ، ابن غلبون آخر، امير الزاب للفاطميين، ابن عرضون ففيه مالكى من المغرب، ابن رحمون نسابة مغربى متأخر، ابن فرتون من المنتزين بالاندلس فى عهد المروانية، وعالم من المغرب .

هاتان لائحتان تتقاربان فى عدد الاسماء التى احتوتا عليها ، وهما مع ذلك لا تبلغان هـذا العدد حتى يقع الاغراب فـى بعضها لعدم شهرتها مما يدل على استعمال هذا الاسم فى المشرق بالقـدر الذى استعمل فى المغرب. ويلاحظ كما ألمعنا الى ذلك من قبـل ان بعض هذه الاسماء قد استعمل عند عرب المشرق قديما مثل بينـون وميسون اللذين هما من اسماء الجاهلية.. والاسم الاخير مما يعرف الجميع انه كذلك اسم لامرأة معاوية التى انجبت له يزيد. وقد كـان ذلك قبل افتتاح الاندلس بما لا يقل عن نصف قرن من الزمن.

ومن الطريف اننا نجدهم سموا بهذا الوزن بعض الاماكـن مثل بينون المتقدم وحبرون لمدينة الخليل وقيسون لموضع قال فى معجم البلدان: بلفظ جمع قيس جمع سلامة وسيحون وجيحون لنهرين

معروفين على القول بعربية هـذه الاسماء الاربعة وخودون لقريـة بحضرموت وغينون للقرية التى اقطعها النبى (ص) تميما الدارى وجيرون لمدينة دمشق، ويحسن بنا ان نقف قليلا عند هـذا الاسم وننقل رأى أبى عبيد البكرى فيه، فانه يقول فى معجم ما استعجم:

« (جيرون) بفتح اوله واسكان ثانيه بعده مهملة على وزن فعلون او فيعول. قال الحسن بن احمد بن يعقوب الهمدانى : نـزل جيرون بن سعد بن عاد دمشق، وبنى مدينتها فسميت باسمه جيرون»

ويزيد بعد كلام لا غرض لنا به فيقول: «ومن قال وزن جيرون: فعلون فهو من لفظ جَيْر. ومن قال وزنه فيعول، فهو من جَرَنَ على الامر اى مَرَنَ. وهذا القول اقرب الى الصواب، لانه لو كان فعلون لوجب ان يتغير ما قبل النون فى الاعراب، وتلزم النون الفتحـة ، فتقول هذه جيرونَ ومررت بجيرينَ. قال ابو دهبل:

طال ليلـى وبت كالمجنون ... ومللت الثواء فـى جيـرون

وقد قيل جيرين ، فيقوى قول من قال: وزنها فعلون»

انتهى كلام البكرى، وهو نفيس سنستأنس به عند ابداء رأينا فى الاسماء من هذه الصيغة قريبا . . ولكن لربط موضوع اسماء الاماكن باطرافه نذكر اسما اندلسيا مشابها اختلفت فيه انظار الكتاب وهو اسم Lanjaron (لانخرون).

هذا الاسم يقع على قرية بناحية غرناطة فيها حمة ومياه معدنية شهيرة. ويترجمه بعض الكتاب خطأ بعين هرون اغترارا بنطق الاسبان لحرف الخاء نطقا قريبا من الهاء، ونظرا للعين بل العيون الكثيرة

الموجودة فيه. ولم يذكره المستشرق الاسبانى أسين بلاسيوس فى كتابه الذى وضعه فى اسماء الأماكن العربية باسبانيا La Toponimia Arabe de España وهو مذكور فى مخطوط الاحاطة لابن الخطيب الموجود بمكتبة الاسكوريال(1) اثناء ترجمته لبعض الادباء المنسوبين الى تلك القرية، بلفظ الانجرون. فاذا كان العرب هم الذين اطلقوا هذا الاسم على القرية، فانهم يكونون قد سلكوا مسلكهم فى تسمية بعض الاماكن بهذه الصيغة هنا وهناك. ويكون اخذه حينئذ من الانجر الذى هو مرساة السفينة، ربما لشبه القرية به فى الشكل ، وربما لملحظ أخر. وجمعه بالواو والنون وعدم تغيره لما يذكر بعد.

هذا وكما رأينا فان هذه الاسماء كلها اسماء اعلام شخصية جاءت بصيغة جمع المذكر السالم فى حالة الرفع لاستيفائها لشروط هذا الجمع الا قليلا منها فيمكن عده من الملحق به كعليون، على انهم عدوا الجمع المسمى به من الملحق واعربوه اعراب اصله . وبعض العرب يجريه مجرى غِسْلين فى لزوم الياء والاعراب بالحركات منونة ، وأخرون يجرونه مجرى هرون فى لزوم الواو والاعراب على النون غير منونة، ومنهم من يجريه مجرى عربون فى لزوم الواو والاعراب بالحركات على النون منونة ، ودون هذا ان تلزمه الواو وفتح النون(2). وبهذه الوجوه التى تجوز فيه يرد قول البكرى السابق

---

1) انظر السفر العاشر من المخطوط رقم 1673 فانه يقول فى ترجمة عبد الرزاق بن يوسف بن عبد الرزاق الاشعرى : «من اهل قرية (الانجرون) من اقليم غرناطة .

2) التصريح ج ل ص 75 ـ 76.

فى جيرون «لو كان فعلون لوجب ان يتغير ما قبل النون فى الاعراب وتلزم النون الفتحة» ان هذا غير لازم على المذاهب الثلاثة الآنفة الذكر.

والبيت الذى انشده البكرى لابى دهبل وهو قوله:

طال ليلى وبت كالمجنون ومللت الثواء فى جيـرون

المعروف فى عجزه انـه : واعترتنى الهموم بالماطرون

والماطرون موضع بناحية الشام جمع ماطر مسمى به فهو ايضا دليل على المراد.

واذا كانت هذه الاسماء من صيغ جمع المذكر السالم التـى لزمت الواو فى الاحوال كلها، فان هناك اسماء غيرها من هذا الجمع جاءت بالياء لازمة وان كانت قليلة فمنها ابن رشدين لاحد رواة الحديث وابن حمدين لقاضى قرطبة الذى تزعم حركة احراق كتب الغزالى وابن شبرين لاحد ادباء المغرب وابن عابدين لاحد فقهاء الحنفية.

فالتسمية بهذا الجمع على مختلف احواله معروفة عند العرب من قديم ومتبعة فى جميع البلاد العربية، على تعاقب الازمان؛ كالتسمية بجمع المؤنث السالم مثل اذرعات وعرفات وان كانت اقل.

وكذلك التسمية بالمثنى كعبدان وحمدان وسعدان وحيـان وزيدان وبدران وفضلان وخيران، وحسنين والعلمين ونحوها.

والنكتة فى ذلك قصد التعظيم كما قالوا فى قوله تعالى (قال رب ارجعون) جاء فى تفسير الكشاف لهذه الآية ما نصه « خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم كقوله: فان شئت حرمت النساء سواكم . . وقوله: الا فارحمونى يا اله محمد) فاستعمال صيغة الجمع فى المفرد

يفيد التعظيم بمجرده فى العربية، الا ترى انهم يقولون فى نون الجمع اذا عبر به عن المفرد انه نون المعظم نفسه ؟

وهذه هى النكتة التى خفيت عن صاحبنا دوزى فاضطر الى اتخاذ السلالم باستعارة قاعدة التكبير فى اللغة الاسبانية للوصول اليها . . وهو بصفته اجنبيا عن اللغة العربية وتفهم دقائقها معذور فى ذلك. ولكن ابناء الضاد الاصلاء لا عذر لهم اطلاقا فى الغفلة عن ذلك وهم حريون ان يصححوا اغلاط الاجانب فيها لا ان يتبنوهـا ويعجبـوا بهـا .

ولا يعترض علينا بقولهم «كل جمع مؤنث» فكيف يفيد التعظيم، لان هذا القول انما يقصد به جمع التكسير. اما جمع المذكر السالم فلا يصح اعتباره مؤنثا وهو باسمه وبقسيمه جمع المؤنث السالم صريح ومتمكن فى التذكير. ثم ان المراد بذلك القول حكم لفظى لا تأثير له فى معنى الجمعية وهو جواز تانيث الفعل معه او اجـراء الوصف عليه مؤنثا كقوله تعالى (قالت الاعراب) وقوله (اياما معدودة) فما يفهم منه فى تهوين شأن الجمع انما هو من استغـلال الادباء لذلك القـول وصنعة كلامية لا غير(I).

فقد ظهر من هذا ان اسم خلدون وما اشبهه اسم عربى اصيل، وانه ليس من صوغ عرب الاندلس على صيغة التكبير الاسبانية، وانه

I) لا يخفى ان الاشارة هنا الى قول الشاعر:

ان قوما تجمعـوا   وبذمى تحدثوا

لا ابالى بجمعـهم   كل جمع مؤنـث

مما سمي به في المغرب والمشرق على السواء، وان بعض افراده سمي به في عصر الجاهلية فما بعده، قبل افتتاح الاندلس، وانه يفيد التعظيم بدلالته الجمعية في الاصل فلا حاجة الى اصطناع قاعدة لغة اجنبية للوصول الى هذه الغاية. تلك القاعدة التي يختلف استعمالها في اللغة المنسوبة اليها عن لغتنا العربية التي اريد تطبيقها عليها . وكل ما نقصده هو خدمة لغة القرءان ورفع شأنها بين اللغات حتى تبقى دائما في الطليعة وتغني ابناءها بمعطياتها الواسعة والله ولي التوفيق.

فهـرست

مقدمــــة 7
قصة الادب المغربى فى سطور 11
البيت فى الشعر العربى 19
أنور الجندى مؤرخ الادب العربى المعاصر 27
بطاقـــة الزيـــارة 31
لما به وألفاظ أخرى 37
المعجم العربى، نشاته وتطوره 53
المغرب فى مجمع اللغة العربية 63
هل يفقد الاثر الادبى قيمته باعادة نشره ؟...... 79
لسان الدين ابن الخطيب : الكاتب الساخر 85
بحث فى علم الجنس 101
مالك بن أنس، ترجمة محررة 113
رسالة الكاتب ابن ابى الخصال التى نال فيها من كرامة المرابطين 129
هل لفظ سوقة استعمال عفى عليه الزمن؟ 143
مساهمة المغرب فى تقدم الثقافة العربية 149
السليقة عند العرب المحدثين 163
ابو البقاء الرندى وكتابه «الوافى فى نظم القوافى» 179
ابن الابار وكتابه الحلة السيراء 201
البنيس وألفاظ أخرى 209
التفكير فريضة اسلامية واشتات مجتمعات فى اللغة والادب 223
ابن سنـــاء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر 233
قيم جديدة للادب العربى 239
هل اسم خلدون ونحوه مكبر على الطريقة الاسبانية؟ 245

تصحيح الخطأ المطبعي

نلفت الانظار الى بعض الاخطاء المطبعية التى ندّت عن التصحيح وهذا صوابها .

سطر	صفحة	خطأ	صواب
12	5	جهودا	جهود
12	10	اولالفية	اول الفية
19	17	العدد الثانى	العدد الثالث
22	16	افقارها	اقفارها
23	1	من اكل الصنوف	من قصر منيف
23	2	من قصر منيف	من اكل الصنوف
39	4	الابيات تنسب	الابيات التى تنسب
72	2	امرتضى	مرتضى
93	2	لا تحسن	لا تحس
97	5	بحب	بجب
98	15	لنباهى	النباهى
104		لرد	لفرد
115	12	ما لم	وما لم
121	15	وجههما	وجهها
139	9	انباهم	أنيابهم
177	16	مهمنا	مهما
216	5	زيره	وزيره
216	20	ورواحه	ورو حاته
224	17	يرمى التحليل	يرمى الى التحليل
225	4	اليدن	الدين
249		بكن	بن